

عصر الانبعاث

(القرن التاسع عشر والثالث الاول من القرن العشرين)

« يتتدى بدخول نابوليون مصر »

« ويؤدهر في اواخر القرن التاسع عشر »

« ولا يزال مطرد الأزدهار »

فصول البحث واغراضه

لمحة تاريخية

مواطن الادب . النصارى والعربية . لبنان والانبعاث . مصر والانبعاث .
الغرب والانبعاث . ميزة مصر .

الشعراء . المحدثون (عصر الانبعاث)

ميزة الشعر . اغراضه ومعانيه . منزلة الشاعر المحدث . شوقي :
حياته وشعره .

الكتاب المحدثون (عصر الانبعاث)

ميزة النثر . الترسل . الشيخ ابراهيم اليازجي . التصنيف والمصنفون .
الصحافيون . ولي الدين يكن . المنفلوطي . علوم اللغة . العلوم الدخيلة .
الادب والادباء . سليمان البستاني .

ملحة تاريخية

موطن الادب

تنقل الشعر في القبائل والامصار .

اراد الله ان يكون للغة العربية مواطن عدة، تتفياً ظلالتها، وتعتز باكنافها، حتى اذا رزئت بواحد تعهدا الآخر بحمايته، فما تذهب بذهاب هذا الموطن، ولا تطوى في كفنه . فقد كانت في البادية لا تتنفس ابعده من الفرات او بردى، وكاد شعرها يقتصر على البدو دون الحضرة . ولكنه لم يضق بعطنه، ولا تبرم بسكنه، بل كان يستأنف نشاطه بتنقله في القبائل، فما غيض ماؤه في قبيلة او جف المرعى، الا تلقفته اخرى، بصدور حافلة، ومخيلات ثرة، فكان له عهد في ربيعة، وعهد في قيس، وعهد في تميم . وكادت نجد تستأثر به في الجاهلية، وتستبد بفحوله، حتى جاء الاسلام فتحول في قرى الحجاز، بين شعراء قريش وشعراء الانصار . ثم اعترت دولته في الشام ببني امية . فلما ادال الله بني العباس، انفردت به العراق، فتأنتق فيها كوكبه الدردي زمناً ولا كالأزمان . ثم عاد الى الشام بعد ان تقطع جسم الدولة العباسية، فزها حيناً، وصار من بعد الى مصر طوال خلافة الفاطميين وملك الايوبيين، غير ان الاندلس كانت تجاذبها الشق الاكبر منه .

فلما تأذن الله بعصر الانحطاط، وجعل الملك في يد الاتراك، واخرج العرب من الاندلس، لبثت مصر والشام موئل العربية المشتركة حتى دكه العثمانيون فابيح عرض اللغة، فكثت ردحاً لا يعصمها معقل، ولا ينصرها ناصر . ولكن الله تعالى ابى إلا ان يهي لها موطناً جديداً تنبعث منه حية قتيبة؛ فسخر لها لبنان . فكيف

تم لهذا الوطن الجديد، ان يحمل عبء النهضة، ويرفع مشعل الأدب العربي في الحافقين بعد انطفائه؟ وهو بلد سرياني اللغة، ليس له سابق عهد بلسان العرب؟ هذا ما نحاول ايضاحه في الابحاث التالية ان شاء الله .

النصارى والعربية

أثرهم في العلم والادب . انصرفهم عن الادب ورجوعهم
اليه .

لم ينقطع النصارى يوماً عن خدمة العربية وتعهدها آدابها وعلومها . فقد كان لهم
في الجاهلية شعراء وخطباء مبرزون، اوقدوا جذوة النهضة، واترعوا البادية بمنهل
قرانهم . وكان ملوكهم في الحيرة والشام يعززون الشعر، ويرفعون قدر اصحابه،
ويجيزونهم احسن جزاء .

ولما ظهر الاسلام، واستولى بنو امية على الخلافة، كانت العصبية العربية لم تزال
في عهد قوتها، والناس منقسمون قبائل واحزاباً، والشعراء يناصرون قبائلهم
واحزابهم على اختلاف الاديان والملل . وكان للنصارى شعراء متقدمون كالاخطل
والقطامي، يتحاماهم فحول الشعر، ويقرّ لهم الادياء المسلمون بالزعامة، ولا يرون
حرجاً في تفضيلهم على نوابغ شعرائهم . فقد كان يونس بن حبيب، وعمرو بن العلاء،
وحماد، وابو عبيدة يقدمون الاخطل تقديماً شديدة، ويجعلونه اشعر الناس، لا يبالون
ان يكون الفاضل نصرانياً والمفضول من المسلمين . لانهم انما كانوا ينظرون الى الشعر
واللغة، والاخطل عندهم شاعر خنذيذ، صحيح العروبة، صحيح اللغة . وفهم الاخطل
روح عصره فقال: « ان العالم بالشعر لا يبالي، وحق الصليب، اذا مر به البيت السائر
الجيد، أمسلم قاله ام نصراني . »

على ان هذه الحال تبدلت غيرها في العصر العباسي، اذ ضعفت الاحزاب،
وضعفت العصبية العربية، ونفذت الاعجام، وغلبت الصبغة الدينية على الخلافة . فكان
الخليفة يجلس للمظالم ويقضي بالشرع معتزلاً بالإمامة والبيت النبوي معاً . واصطبغت
اللغة وآدابها صبغة دينية مقدسة وتسمت بلغة القرآن . فهذه الظواهر الجديدة في
العنصر العربي، ولغته، وادبه ومجتمعه، جعلت قصور الخلفاء والامراء لا تحفل بغير

الشعراء المسلمين، وجعلت الشعراء النصارى يخلعون فما يذكر منهم إلا من أسلم كإبي تمام^(١) وابن الرومي .

ومعلوم ان الشعر عند العرب عدة التكسب، وطريق الحظوة والشهرة، فلما اصبح النصارى لا يجدون فيه ما يجده المسلمون جفوه، وانصرفوا عنه الى شي، آخر اجدى لهم وانفع . ولم يُسمع من اتبعه منهم، ذكر يذكر بين الفحول من المسلمين . وصدوف النصارى عن الشعر والادب اورث لغتهم ضعفاً، وبيانهم اسفاً . ذلك بان اللغة العامية كانت قد تفتت في الجيل العباسي، لتغلب العناصر الاعجمية، واصبح لسان العربي لا يستقيم الا بالتعلم . والعلم يومئذ يكاد ينحصر في المساجد فلا يحظى به غير المسلمين . ولو اتيح للنصارى لما انتفعوا به، والمسلمون كتابهم وشعراؤهم قد احتكروا الادب احتكاراً، وطبعوه بطابع الاسلام .

ولئن فات النصارى في العباسيين ان يرفعوا شأن اللغة بشعرهم ونثرهم، لم يفهم ان يرفعوا شأنها بعلومهم . فقد كانت مدارس السريان والروم تخرج منهم الفلاسفة والاطباء والرياضيين يوم لم يكن للعرب شي . من هذه العلوم، فلم يجد خلفاء بني العباس بدءاً من الاعتماد عليهم في بناء حضارتهم، فقربوهم، ورفعوا قدرهم، وفتحوا لهم دور الترجمة، فنقلوا الى العربية علوم اليونان والسريان، فحفلت الخزائن بمصنفاتهم، واطلع عليها المسلمون فاستفادوا منها . وبين انه لولا العلوم المنقولة لما ازدهرت حضارة بني العباس .

وضعف اللغة في النصارى جعل المسلمين على كرور الايام، وهم مستأثرون بالأدب، يعتقدون ان النصرانية والبيان العربي لا يجتمعان، وقال قائلهم : العربية لا تتنصر . حتى اذا ضرب الدهر من ضربه، وعاد النصارى في القرن التاسع عشر الى اللغة والادب، وأنسوا بالشعر بعد هجرانه، صعب على ادباء المسلمين تغيير عقيدتهم فيهم، لما لها من الرسوخ في نفوسهم، وأبوا ان ينسبوهم الى الفصاحة .

ومن اجل هذه العقيدة رفض الشيخ صالح التميمي الشاعر المسلم ان يعارض

(١) هذا على رواية من بزعه ان والده نصراني من جاسم .

خاتمة المعلم بطرس كرامة^(١)، فاعتذر الى داود باشا صاحب العراق عن الرد عليها بقوله :

عَهْدُنَاكَ تَعْفُو عَنْ سُيِّئِ تَعَدُّرَا، أَلَا فَأَعْفُنَا مِنْ رَدِّ شَعْرِ تَنْصَرَا^(٢)

على ان هذه العقيدة ما لبثت ان زالت من نفوس المسلمين او من نفوس اكثرهم فصاروا يعترفون للنصارى بالفضل، ويُطرون بلاءهم في النهضة، ولا بدع فالفضل يعرفه ذروه^(٣).

(١) الخاتمة قصيدة جميع قوافيها على لفظ الخال، وكل لفظ له معنى يختلف عن الآخر .
واولها :

أَمِنْ خَدِّهَا الْوَرْدِيَّ أَفْتَنَكَ الْخَالُ، فَسَجَّ مِنْ الْأَجْفَانِ مَدْمَعُكَ الْخَالُ^(١)

(١) افتتك : اعجبك، وولحك . وانكرها الاصمعي بالالف . الخال الاول : الشامة . الخال الثاني : سحاب لا يخلف مطره .

(٢) تعذر : اعتذر عن فعله . اعفنا : اتركنا . وقوله : ردّ شعر اي الرد على شعر، ولو قال نقض شعر، لاصاب . (٣) قال محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق في كتابه خطط الشام (ج ٤ ص ٧٩) : « . . . وبينما كانت مدارس العلم في حلب وحماة ودمشق وطرابلس والقدس وغيرها آخذة بالافول والاندراس، والمسلمون او الذين خرجوا من الأمية بعض الشيء من اهل هذه الديار يولون وجوههم قبل المناصب الدينية والادارية والعسكرية ، كان اخوانهم المسيحيون يتعلمون في مدارس نظامية في الجملة، جعلت تدريس العربية واداجيا، واللغات الحية، اول بند من منهاج الدراسة فيها . فجاء من ابناءهم ومن اخذ العلم عنهم من سائر الضوائف، جماعات يذكرون في التاريخ بحسن بلاءهم في خدمة الآداب، وانحاض المجتمع . ومنهم افراد ترحوا الى مصر واميركا وتولوا الاعمال الكبرى، واطهروا آثار قرائمهم ونبوغهم، ولاسيما في القرن التالي (القرن الرابع عشر للهجرة) . وبطلت القاعدة التي كان وضعها بعض ضعاف النظر من تقييح نحو النصارى، وغناء اليهود، فاصبح بالتعلم من النصارى نخبة ثقة، ومن اليهود مضمون ومغنيات، بمعنى ان الزمن ابطل ذلك الزعم . » اهـ

بنان والانتعاش

دخول العربية لبنان . اخزام السريانية . العصية العربية .
بدء الحركة العلمية . المدارس . بلاط الامير بشير .

بدأت النصرانية تنبسط بلبنان في القرن الرابع للمسيح، مجاهدة اهل الشرك، حتى قبض لها التجاح على ايدي الرهبان والمتعبدين، وتمت لها السيادة المطلقة، فانهزمت امامها الوثنية الجافية .

وكانت السريانية لغة اللبنانيين يستعملونها في طقوسهم، ومحاضباتهم، وكتاباتهم . ولم يصر لهم عهد بالعربية الا يوم اقتحم معاوية لبنان يريده، فلم ينل غير سواحله فأتبعها دمشق، وامتنت عنه الجبال لوعورة مساكنها فارتد عنها . واضطر بعده عبد الملك بن مروان الى ان يصالح المردة او الجراجمة^(١) على الف دينار يؤديها اليهم في كل جمعة، ليدفع معرفاتهم عن المسلمين في السواحل . ومما لاشك فيه ان ارتباط الساحل الفينيقي بدمشق الاموية مهّد طريق الفتح للغة العربية . ولم يصعب عليها ان تتوقل الجبل لما بينه وبين الساحل من الاتصال^(٢)، ثم لما بينها وبين السريانية من التشابه والقربى . ولكنها لبثت فيه بطينة الانتشار، ولاسيما مواطن الموارنة فقد ظلت بها السيادة للسريانية حتى القرن السادس عشر . ولم ترفع لغة الضاد رأسها الا بعد ان تقاطرت الاسر العربية الى لبنان واستوطنت فيه، وعادت اليها احكام

(١) اختلف في اصل المردة او الجراجمة، والراجح اخم قوم من الجرجومية في جبل اللكّام، بعثهم قسطنطين اللحياني ملك الروم الى الشام لندفاع عنه . فاعتصموا ببنان وقاتلوا العرب وانحنوا فيهم . ولما تصالح ملك الروم وعبد الملك بن مروان ارجعهم الى بلادهم وكان عددهم اثني عشر الفا . (٢) ذكر ابن جبير ان المسلمين المتعبدين اذا ارادوا التنسك قصدوا شفاف لبنان وانقطعوا حيا الى الله، فيقبل عليهم النصاري، ويأتونهم بالقوت، ويمسنون معاملتهم .

قسمين كبيرين، وكانت بينهم فتن وحروب اعدوا بها عهد العصبية العربية القديمة . وهكذا استعرب لبنان في مجموعته، وتضاءلت السريانية متوازية عن افواه موارنته، مجتزئة بكتب الدين . ولما آذن الله بنهضة الاداب العربية بعد انحطاطها كان للموارنة السهم الاكبر في بعثها وحياتها .

والحركة العلمية قديمة في لبنان، بدأت منذ عهد الصليبيين بفتح المدارس، كما يحدثنا الدويهي في اخبار سنة ١١١٢ م (٥٠٦ هـ) . وفي تواريخ الصليبيين ذكر لمدارس منظمة بنوها في ممالكهم، وجعلوا فيها اساتذة وطنيين، فكان بدء اختلاط اللبنانيين بالفرنجة حافظاً لهم على طلب العلم . ولكن اثر هذا الاختلاط كان اوضح واين، بعد ان حملت فرنسا نفسها على حماية نصارى الشرق، ولاسيما الموارنة في لبنان . فان لويس الرابع عشر جعلهم في عهده، وشملهم برعايته، وتبرع بتعليم نفر من علمانهم في المدرسة اليسوعية ببازيس .

وكان من مساعي سفراء فرنسا في الاستانة ان عقدت معاهدات تجارية بين ملوك الفرنسيين وسلطين بني عثمان . واجيز للرهبان الغربيين ان يسكنوا لبنان والولايات . ثم عقدت معاهدات بين الدولة العثمانية ودول غربية اخرى، فراج التبادل التجاري، واشتد اختلاط الشرقيين بالغربيين، ووفدت البعثات الدينية من الغرب تبني اديارها ومدارسها في الشرق، وكان حظ لبنان منها الاطيب^(١)

وعني البابا غريغوريوس الثالث عشر بكهنة الموارنة عناية تذكروا، فانه انشأ لهم المدرسة المارونية برومة في اواخر القرن السادس عشر، فاخرجت طائفة مختارة من العلماء كالبطريرك الدويهي، والمامنة، والحصري، والحاقلاني وسواهم . وانتشر جماعة من تلاميذها في قواعد اوربة^(٢) يعلمون، ويصنفون، وينقلون علوم المشاركة الى

(١) انشأ اليسوعيون سنة ١٧٣٤ م (١١٤٧ هـ) مدرسة في عينطورة كسروان، واخرى سنة ١٧٣٥ م (١١٤٨ هـ) في زغرته من اعمال طرابلس وكانتا على شيء من الرقي .
(٢) من الذين لبثوا في اوربة الممامنة المشهورون، وكسرجيوس الرزي، ومرهج ابن يرون الباني، اقاموا في رومة يقدمون الكرسي الرسولي . واقام في باريس ابراهيم الحاقلاي، وجبرائيل الصبيوني، ويوحنا اخصروني . واتصل بامراء فلورنسة بطرس مبارك الماروني اليسوعي . واشتهر في مدريد ميخائيل الغزيري . وعلم في فينا انطون عريضة الطرابنسي .

الغربيين، فحببوا الى الاوربيين دراسة آداب الشرق وعلومه . وحمل جماعة منهم الى مسيحيي الشرق^(١) ولاسيا ابناء ملتهم بلبنان، علوم الغربيين وآدابهم، وانشأوا لهم المدارس، فايقلوا فيهم حياة فكرية جديدة كان لها اثر محمود فيما بعد .

وفي القرن الثامن عشر نُظمت الرهبانيات المارونية، فكان لها يد في النهضة لانها جعلت تعليم الاحداث وتهديبهم في قوانينها؛ ونشطت الى فتح المدارس مجاناً وانشاء المطابع وتسهيل اسباب العلم .

هذا، وللامير الشهابي بشير الكبير^(٢) تاثير حسن في الحركة الادبية، فانه قرب الشعراء والكتاب، واجازهم . وكانت المناظرات بينهم تجري في حضرته، فتستحث قرائحهم للنظم والذثر . ومن شعرائه بطرس كرامة، ونقولا الترك، والشيخ ناصيف اليازجي . وكان بينه وبين محمد علي صاحب مصر من الصداقة ما يمكنه من ايفاد بعثة لبنانية الى قصر العيني لدراسة الطب .

على ان النهضة الحقيقية لم تلمس الا بعد نصف القرن التاسع عشر حين ظهرت المدارس الراقية، وانتشرت الطباعة والصحافة .

(١) من الذين رجعوا الى وطنهم البطارقة جرجس عميرة، واسطفان الدويهي، ويعقوب وسلمان عواد، ويوسف اسطفان، ويوسف تيان . والمطارنة يوحنا الحوشي، واسحق الشدراوي، وميخائيل الحصري، وارميا نجم . والكهنة اسطفان ورد، واندرائوس اسكندر، وميخائيل فاضل البيروتي، وبطرس التوتوي . وله تلمذ المطران جرمانوس فرحات في حلب .
(٢) حكم من سنة ١٧٩٠ - ١٨٢٠ (١٢٠٥ - ١٢٥٦ هـ) وجعل سريره في بيت الدين من اعمال دير القمر .

مصر والانبعث

حالة مصر قبل الانبعث . نابوليون في مصر . انشاءاته .
محمد علي . مآثره . البعثات العلمية . المدارس . النظافة .
عهد اسماعيل . النهضة المحسوسة .

كانت مصر قبل القرن التاسع عشر في شبه عزلة عن الاوربيين، لا تكاد تعرف شيئاً عن حضارتهم وعلومهم، مع انها لم تخل يوماً من قناصل وتجار اجانب . الا ان المصريين كانوا ينفرون منهم ولا يرون خيراً في الاتصال بهم . ولطالما اعتدوا عليهم وساموهم الخسف، فتحتج دولهم عند الباب العالي فما يستطيع عملاً، لان القطر المصري كان على اسوأ حالة من الخمول والفوضى والاضطراب . فالجهل مخيم على جميع الطبقات، ضارب باستاره المنظمة على الازهان، لا تستوضح في ذلك الظلام الدامس غير نور ضئيل منبعث من الازهر، ينسج من خيوطه الدقيقة للدين علماء، ولغة نحاة وتصريفين . والماليك بيدهم ازمة الامور يتنونون مشيخة البلد، ويردون اليها الادارة والاحكام . والوالي التركي الذي تبعته الدولة العثمانية آتة بيدهم، لا يبدي ولا يعيد الا عن امرهم . وهم يثقلون الشعب بالضرائب ويحتلسون اكثرها، ويقنتاون على السيادة، فيبطش بعضهم ببعض . فما يقوم شيخ البلد منهم الا وله خصوم تناوئته، وتعمل على اسقاطه، وما يطول الامر حتى يفتكوا به وينصبوا غيره .

ولم يكف مصر ما دهاها من عسف الماليك، ومذاجهم وقتنهم؛ حتى ساط عليها الطاعون، فجاحها غير مرة، فكانت الجنازات تحمل بالجملة، وربما اوفت على الاربعين، وتدفن بلا صلاة . ونقص سكان القطر نقصاناً محزناً، فكانوا لا يجاوزون ثلاثة ملايين عندما غزاهم نابوليون الاول .

دخل نابوليون مصر سنة ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ) وهي على هذه الحال من الجهل والفوضى، فزال عنها سلطة الماليك، فاعتصموا منه بالصعيد . وكان القائد الفرنسي

يرمي من افتتاح مصر الى قطع طريق الهند عن انكلترة، واقامة قيصرية شرقية ممتدة الجوانب . فاتخذ الاصلاح الاجتماعي والتثقيف الفكري، طريقاً لاكتساب ثقة المصريين، والوصول الى غايته . وكان قد استصحب معه جماعة من العلماء والصناع المتخصصين باللغات والآثار والجغرافية والهندسة والبناء والكيمياء، والطبيعي والرسم والتصوير وغير ذلك . فاقاموا المعامل والمصانع والمراصد والمستشفيات والحدائق والملاهي، واستعملوا العربات . وانشأوا مدرستين لتعليم الفرنسيين المولودين في مصر، ومجمعاً علمياً مصرياً، ومكتبة جامعة اباحوا النظر فيها ؛ ومطبعة حروفها عربية، ولاينية، ويونانية، سميت المطبعة الاهلية، ادارها المستشرق يوحنا يوسف مرسال .

واصدروا جريدتين فرنسيتين احدهما العُشاري^(١) المصري (La Décade Égyptienne) والآخرى بريد مصر، (Le Courrier d'Egypte) وجريدة عربية اسمها التنبية، تولى انشاؤها اديب عصره اسماعيل الخُشاب . وكانت تنشر ما يجري من الاحكام في ديوان القضايا الوطنية . فشهده المصريون مما رأوا من حضارة الفرنسيين، ولعبت بأذهانهم اشياء لا عهد لهم بمثالها، فتنهبوا او كادوا يتنهبون لما هم عليه من جهل ونحول .

ولم يطل لبث الفرنسيين في مصر فقد اضطروا الى الانزعاج عنها سنة ١٨٠١م

(١٢١٦ هـ) فتركوها يتقاتل فيها الجنود العثمانية والمهاليك .

وكان محمد علي في الحملة البحرية التي بعثها العثمانيون لمحاربة الفرنسيين، واجلاهم عن مصر . فما زال يتقدم بجده، ونشاطه، وحسن سياسته حتى بايعه المصريون بالولاية سنة ١٨٠٥م (١٢٢٠ هـ) ورضي الباب العالي باستعماله .

وعلم محمد علي ان لا راحة لدولته الا بزوال دولة المهاليك؛ فما انفق يتربص بهم حتى اغتالهم في القلعة سنة ١٨١١م (١٢٢٦ هـ) . ولم ينج الا اثنان من اربع مائة . وكانت نفسه الكبيرة تسمو الى مطمع عظيم الا وهو الاستقلال بالبلاد . ولطالما كان هذا المطمع حليف نفوس الولاة في مصر، وهي بما فيها من خصب وثروة ورجال

(١) يقال : توب عُشاري طوله عشرة اذرع، والمراد هنا عشرة ايام . وكانت هذه الجريدة تصدر اسبوعياً . وكان الاسبوع في اصطلاح النعوم الجمهوري الفرنسي عشرة ايام .

كانت وما برحت جديرة بان تستقل . والاستقلال يحتاج الى جيش منظم، وادارة صالحة . ولم يفت محمد علي فساد نظام الجيش في مصر، وفساد ادارتها، فصرف همهته الى تطويرها واصلاحها . وكان قد رأى حسن تنظيم الجيوش الاوربية في تحارب الانكليز والفرنسيين من اجل مصر . وشاهد ما احدثت حملة نابليون من اصلاح وعمران . ففقد نيته على استعانة الفرنج في اعماله الاصلاحية، فوفد البعثات العلمية الى اوربة^(١) وجاء منها باساتذة متخصصين يديرون مدارس الجيش والطب والصناعات والفنون^(٢)؛ فاصبحت مصر على اتصال وثيق بالغرب بعد ان كانت على شبه انقطاع عنه . وحدث مدرسة مصرية في باريس تعد الطلاب للتعليم العالي^(٣) . وما زال يستكثر

(١) اوفد بعثة من احدث المائيك الى ايطالية سنة ١٨١٦ م (١٢٣٢ هـ .) لدرس الفنون العسكرية والهندسة والطباعة . وبعثة اخرى الى انكلترة سنة ١٨١٨ م (١٢٣٤ هـ .) لدرس ايجل (الميكانيك) ونواميس السوائل . وبعثة ثالثة الى فرنسة سنة ١٨٢٦ م (١٢٤٢ هـ .) بادارة المستشرق الفرنسي جومار وحي اهم البعثات، فيها واحد واربعون فتي تعلموا العلوم المختلفة وعادوا الى مصر يعلمون ويدرون الدواوين، ويوفنون ويترجمون وفيهم الفواد والاطباء . وتابع البعثات في اوقات مختلفة فأتت بالفوائد الجليلة . (٢) اول عمل باشره في اصلاح الجيش ان بعث جماعة من مماليكه الى الصعيد ليتعلموا فنون الحرب على اساتذة من الفرنج . ثم انشأ مدرسة التجهيز في قصر العيني سنة ١٨٢٥ م (١٢٤١ هـ .) وضم اليها نحو خمس مائة غلام من غير المصريين فيهم الاتراك والارمن واليونان والاكراد وسواهم . وجعل اكثر اساتذتهم من الايطاليين . على انه ما لبث ان عدل عن النظام الايطالي الى النظام الفرنسي فاقام في السنة نفسها مدرسة اركان الحرب في ابي زعبل من ضواحي القاهرة، وعهد بادارتها الى اساتذة فرنسيين . وانشأ ايضاً في ابي زعبل مدرسة طبية ومستشفى سنة ١٨٢٦ م (١٢٤٢ هـ .) وعهد بادارتها الى الطبيب الفرنسي الدكتور كلوت بك . وكان اساتذها افرنسيين والتلاميذ يجهلون الفرنسية، فاضطروا الى توسيط التراجم بين المعلمين والمعلمين، فجاءوا واجم من لبنان والقرب ومن الارمن . (٣) كان مديرها اسطفان بك، ارمني الاصل، من طلاب البعثة الباريسية الكبرى . وكان انشأها لارمن احدها حاجة مصر الى اساتذة متوفرين على تدريس العلوم العالية، والثاني فقر اللغة العربية الى الكتب العلمية الحديثة . فكان الطلاب المصريون يتعلمون الفرنسية فيما تم ينقلون الى العلوم العالية . وبقيت هذه المدرسة حتى سنة ١٨٤٨ م (١٢٦٥ هـ .) ثم اقلت على اثر الثورة الفرنسية .

من المدارس حتى انشأ في القطر نحو خمسين مدرسة بين ابتدائية وتجهيزية، يعني معظمها بالفنون الحربية والطبية والصناعية، اكثر مما يعني بالعلوم والاداب. ولم يخل محمد علي باللغة العربية لميله الى التركية، حتى انه حاول مدة ان يجعلها لغة التعليم والدواوين، فلم يوفق بمحاوئته لرسوخ العربية في مصر. وهو وان لم يكن له فضل يذكر على لغة العرب، فان فضله في النهضة الفكرية عظيم، ولولا هو لما توثقت صلة مصر بالعرب، فاستفادت من علومه وفنونه وحضارته. ولم يغفل عن الطباعة والصحافة، فقد انشأ المطبعة الاهلية سنة ١٨٢١ م (١٢٣٧ هـ) وهي مطبعة بولاق. وعهد بادارتها الى نقولا مسابكي الماروني؛ وكان قد اتقن فن الطباعة في رومة. واصر في سنة ١٨٢٨ م (١٢٤٤ هـ) جريدة الوقائع المصرية باللغة التركية. ثم بالتركية والعربية^(١). وكانت تنشر اوامر الحكومة والحوادث التي ينبغي ان يطلع عليها الجمهور. وتداولها جماعة من الكتاب المعروفين كالشيخ حسن العطار، ورفاعة بك الطهطاوي، واحمد فارس الشدياق، والشيخ محمد عبده وغيرهم.

وخرف محمد علي في آخر ايامه (سنة ١٨٤٨ م . ١٢٦٥ هـ) ^(٢) فولي الحكم مكانه ابنه ابراهيم، ولكنه لم يعيش بل مات في السنة نفسها. فخلفه عباس الاول ابن طوسون بن محمد علي، وتوفي سنة ١٨٥٣ م (١٢٧٠ هـ). فتولى بعده سعيد بن محمد علي ومات في سنة ١٨٦٢ م (١٢٧٩ هـ). وفي عهد هذين الاميرين تقهقرت الاداب والعلوم في مصر لانها لم يترسما خطة السلف الصالح في تعزيزها. فغلقت المدارس، وتعطلت المصانع، وتقاعت عوامل النهضة. وكادت مصر تفي الى سابق خمولها لو لم يتداركها اسماعيل بن ابراهيم بن محمد علي سنة ١٨٦٣ م (١٢٨٠ هـ) فيدفعها الى الامام دفعة قوية، فتجري في المضمار كالفرس الكريم لا يثنى او يحجز الغاية. وعهد اسماعيل هو عهد النهضة المحسوسة والاصلاح الملموس. فانه نشر العلم بعد ان لحد، وفتح المدارس المختلفة ونظمها تنظيمًا حسنًا، واستقدم لها مهرة الاساتذة

(١) صارت الوقائع المصرية تصدر اخيراً بالعربية وحدها، وقصرتها الحكومة على الشؤون الرسمية من قوانين ومراسيم. ولا تزال تصدر ثلاث مرات في الاسبوع. (٢) توفي محمد علي سنة ١٨٤٩ م (١٢٦٦ هـ).

من الغرب، وأنشأ نظارة المعارف^(١) لتعديدها ومراقبتها . وجعل اللغة العربية أساساً للتعليم، فرفع مستواها، واعد اليها رونقها الغائت . وجدد ارسال البعثات العلمية الى اوروبا . وكان يشهد امتحانات التلاميذ، ويقف للناجحين ويقدم لهم الجوائز . وبسط كفه للادباء والمصنفين، فحثهم على العمل والانتاج، فالفقوا وترجموا ونشروا الكتب القديمة . وبنم مصر في ايامه جمهرة من الادباء اللبنانيين، فرأوا المجال رحباً لاقلالهم وذكايمهم، فشغلوا الدواوين، واداروا الاحكام، وأثاروا تياراً ادبياً بنا انشأوا من الجرائد والمجلات، وبما نقلوا وصنفوا من المؤلفات . وكذلك الاجانب الغربيون هبطوا مصر وفتحوا المدارس الخاصة، ومعظمها مدارس البعثات الدينية لمختلف مذاهب النصرى .

ويطول بنا القول اذا اردنا تعداد مآثر اسماعيل، وما احدث من الاصلاح وال عمران . وما بنى من القصور والشوارع، والقناطر . وما شق من الترع، وما انشأ من المعامل والمصانع . وما اصلىح من الزراعة، وما نظم من المجالس في القضاء والنيابة . فالنهضة مدينة بكثير من الاعمال الاصلاحية لاسماعيل . ولكن افراطه في السخاء والانفاق، اضطره الى الاكثار من الضرائب ليفي ما عليه من الديون للاجانب؛ ومهد الطريق لتدخل دول اوروبا في شؤون الحكومة المصرية ومراقبة دخلها وخرجها حفاظاً على اموال رعاياها؛ وافضى الى خلعه عن عرش الامارة سنة ١٨٧٩م (١٢٩٧هـ)^(٢) . وتولية ابنه توفيق . وفي ولاية توفيق حدثت الثورة العراقية^(٣)، واحتل الانكليز مصر سنة ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ) .

(١) النظارة في مصر بمعنى الوزارة . (٢) مات اسماعيل سنة ١٨٩٥ م (١٣١٣هـ) . وهو اول من تلقب باخديوي، وصارت ولاية مصر بعده ارثاً في نسله من بكر الى بكر . وكانت قبلاً تنتقل في الاسرة العويية الى من يختاره السلطان العثماني . (٣) الثورة العراقية منسوبة الى احمد عرابي، كان جندياً صغيراً ثم اعتلى الى قيادة الجيش ثم الى نظارة الخريبة . ورأى من الخديوي توفيق اثاراً للاتراك، فآلب عليه الجيش . وعاوخم النواب، ورئيس النظار محمود سامي البارودي، فاضطهدوا الاتراك والشراكية، واحتقروا الفرنجة، وغلبوا ايدي المراقبين الماليين منهم، واطرحوا سلطة الخديوي . ثم قرروا عزله واخراج اسرته من مصر وتولية محمود سامي مكانه . فاعلنت انكسرة وفرنسة حماية الخديوي وتدفاع عنه، فثار

العرب والاندلس

اطوار الاستشراق . اعمال المستشرقين .

لم يقتصر عمل الغربيين في النهضة على نقل حضارتهم وعلومهم الى بلاد العرب، بل كانت لهم ايدي مشكورة اسداها المستشرقون منهم الى العربية وآدابها . والاستشراق قديم العهد، مرّ باطوار مختلفة حتى صار الى ما هو عليه الآن، فقد عني الغربيون بدراسة العربية منذ القرن العاشر للمسيح يوم كانوا في اشد الفقر الى العلم والادب، ويوم كانت بلاد العرب تشع بانوار العلوم والآداب، وقواعد الاندلس مناور الغرب بمدارسها وجامعاتها . فكان الفرنجة يقدمون اليها من جهات مختلفة يدرسون العربية وعلومها، فنشأ الطور الاول من الاستشراق وهو طور استفادة الاوربيين من العرب . واشهرهم في هذا العهد البابا سلفستروس الثاني^(١) . وازدادت مهاجرة الاوربيين الى الاندلس في القرن الثاني عشر، وتضاعف اقبالهم على دراسة العربية، والنقل منها الى لغاتهم . واشتهر فيهم يومئذ جيرار الكريوني^(٢) . فانه نقل الى اللاتينية نحو ستين كتاباً جليلاً للفارابي والرازي وابن سينا وغيرهم . واقدم الملوك المستشرقين فريدريك الثاني قيصر المانيا^(٣)، والفسن العاشر^(٤) ملك

عراي بالجيش، فتقدم الاسطول الانكليزي الى الاسكندرية، وقذفها بالمدافع فهدم اكثر حصونها، ثم احتلها واحتل سائر مصر . ونفي عراي والبارودي وغيرهما من الوطنيين الى جزيرة سرديب (سيلان) وصودرت املاكهم . ولم يمض عنهم الا سنة ١٩٠١ م (١٣١٩ هـ) وصرحت انكلترا بانها لا تخرج من مصر الا ان يستتب الامن، ولا يعلم الا الله متى يستتب الامن في نظر الانكليز!

(١) مدة بابويته من سنة ٩٩٩ - ١٠٠٣ م (٣٩٠ - ٥٣٩٤ هـ) . (٢) جيرار الكريوني منسوب الى كريوننة بلدة من ايطالية، تعلم في طليطنة، واتقن العربية وادابها، ولد سنة ١١١٤ وتوفي سنة ١١٨٧ م (٥٠٨ - ٥٨٣ هـ) . (٣) فريدريك الثاني نودي به قيصر اعلى المانيا سنة ١٢١٢ م (٥٦٠٩ هـ) وقاد الحملة الصليبية السادسة سنة ١٢٢٩ م (٥٦٢٧ هـ) وتوفي سنة ١٢٥٠ م (٥٦٤٨ هـ) . (٤) الفسن العاشر الملقب بالحكيم امتاز بالشعر والعلوم ولا سيما علم الفلك،

لاون وقشتانة فقد كان لها فضل عظيم في نشر علوم العربية وتدابيرها في اوربة .
 واصطبغ الاستشراق بعد الحروب الصليبية صبغة دينية ظاهرة، لاهتمام رومة
 باخراج الدعاة الى الشرق . فكان الاحبار الاعظمون يحضون الكليات والمدارس على
 دراسة العربية، فالبابا انوريوس الرابع^(١) تقدم بفتح مدرسة للغة العربية في باريس .
 والبابا يوحنا الثاني والعشرون^(٢) امر قاصده بباريس ان يراقب الدروس العربية في
 كليتها . والبابا يوليوس الثاني^(٣) اول من طبع كتاباً عربياً . وفي النصف الثاني من
 القرن السادس عشر اجاز الخبر الاعظم للرهبانية اليسوعية انشاء مدرسة ومطبعة في
 رومة للعربية والعبرانية . ثم انشئت المدرسة المارونية، فاغنى تلاميذها الجماعنة
 مكتبة الفاتيكان بالمصنفات العربية .

وترسم ملوك فرنسة احبار رومة في العناية بتدريس العربية، فان فرنسيس الاول
 استقدم اغوستينوس جوستنماني اسقف نابيو من اعمال كورسكة، وعهد اليه بتعليم
 العربية والعبرانية في رومس سنة ١٥١٩، وحدث فيها المطابع العربية . ثم عم
 الاستشراق ساثر اوربة، واكب الغربيون على العربية يجنون من ثمارها اليانعة، فكان
 لهم منها نعم الزاد في ابلان نهختهم .

وما اكتهل القرن السابع عشر حتى خرج الاستشراق من طور الاستفادة الى
 طور العلم بالشيء . ولكنه لم يخلص من العاطفة الدينية وانما اضاف اليها المآرب
 السياسية . واقدم مستشركي هذا العهد: ادورد بوكوك^(٤) (Pocock) الانكليزي،

قبل انه اى باشهر علماء عصره من مسلمين ونصارى ويهود، واتراحم في قصر جميل بطليطة
 فاقاموا اربع سنوات يبحثون في المسائل الفلكية . ولد سنة ١٢٢٦ م (٦٢٣ / ٥٦٢٤ .)
 ومك سنة ١٢٥٢ م (٦٥٠ .) وتوفي سنة ١٢٨٤ م (٥٦٨٣ .) .

(١) مدة بابويته من سنة ١٢٨٥ - ١٢٨٧ م (٦٨٤ - ٦٨٦ .) (٢) مدة بابويته
 من سنة ١٣١٦ - ١٣٣٤ م (٧١٦ - ٧٣٥ .) (٣) مدة بابويته من سنة ١٥٠٣ - ١٥١٣ م
 (٩٠٩ - ٩١٩ .) (٤) رحل الى الشرق وسكن حلب ثم علم في اكسفورد . من اثاره
 نشر مختصر الدول لابن العبري . ولد سنة ١٦٠٤ م (١٠١٣ .) وتوفي سنة ١٦٩١ م
 (١١٠٣ .) .

ثم دربلو^(١) (d'Herbelot) الفرنسي - ثم جان جاك ريسكي^(٢) (Reiske) الألماني .
 ونهض الاستشراق في القرن التاسع عشر نهضة عظيمة، وتكاثر المستشرقون،
 وانشئت في قواعد اوربة المدارس، والجمعيات، والمجلات الآسيوية تعنى جميعها بعلوم
 الشرق، وتدعم سياسة الاستعمار والتوسع التجاري . وكان الفرنسيون اسبق الناس
 اليها فانهم انشأوا في باريس مدرسة اللغات الشرقية سنة ١٧٩٥ م (١٢١٠ هـ) .
 واليها يرجع الفضل في اخراج طائفة جلييلة من علماء المشرقيات على اختلاف اجناسهم .
 وعلى مثالها انشأت الدول الاوربية المدارس الشرقية في حواضرها . وانشأ الفرنسيون
 الجمعية الآسيوية سنة ١٨٢١ م (١٢٣٧ هـ) واصدروا سنة ١٨٢٢ م (١٢٣٨ هـ) .
 مجلة لها تنشر اعمالها . واقتفى الانكليز اثرهم، فنظموا الجمعية الآسيوية الملكية
 سنة ١٨٢٣ م (١٢٣٩ هـ) ثم انشأوا مجلة باسمها . وكذلك صنع الالمانيون سنة
 ١٨٤٤ م (١٢٦٠ هـ) .

وفضل المستشرقين في النهضة قائم على ما يطبعون وينشرون من المخطوطات
 القديمة، وما يصححون منها بمقابلة نسخ الاصول بعضها ببعض، وما يضعون لها من
 الفهارس الشاملة، والحواشي والمقدمات المفيدة . وهم في التحقيقات التاريخية، سادة
 الحلبة لا يضطلع بهذا العبء احد مثلهم . واطالما كابدوا الاسفار الشاقة والنفقات
 الباهظة ليظفروا بنسخ مخطوطة نادرة، ولا حافر لهم الا الشغف الخالص بالتحقيق
 العلمي .

ومن محامدهم عقد المؤتمرات الشرقية في مدائن اوربة، يأتون اليها على شحط
 الديار، واختلاف الامصار، وربما دعوا اليها علماء العرب . واقدم هذه المؤتمرات
 عقد في باريس سنة ١٨٧٢ م (١٢٨٩ هـ) ثم تعاقبت المؤتمرات بعده في سقى
 الحواضر والعواصم .

(١) عاش في اواخر القرن السابع عشر، وله في اللغة العربية معجم في تاريخ الشرق وآدابه
 اشبه شيء بدائرة المعارف . (٢) نشر طائفة جلييلة من كتب العرب، ونقلها الى اللاتينية،
 وحشأها، كمقامات الخربري، وتاريخ ابي الفداء، ومعلقة طرفة . ولد سنة ١٧١٦ م (١٢٩٩ هـ) .
 وتوفي سنة ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ) .

وللمستشرقين انبعاث ادبية في الشعر والشعراء، والكتابة والكتاب، ولكنها غير دقيقة في الجملة، لعجمتهم، وضعف الروح العربي فيهم، وقلة خبرتهم بمذاهب الكلام عند العرب . وليس لهم براعة في الانشاء ولا انقاد لهم سحر البيان فيكون لما كتبوه في العربية منزلة ادبية مذكورة . غير انهم اعتمدوا في الاغلب على لغاتهم، فافادوا من حيث تأت لهم الافادة .

مبزة العصر

الاحوال السياسية . فتن في لبنان . عهد المتصرفين .
 مهاجرة اللبنانيين . عهد الانتداب الفرنسي . حالة مصر
 والبلاد العربية . امتزاج الحضارة الشرقية بالحضارة الغربية .
 المدارس . الطباعة . الصحافة . الجمعيات العلمية .
 الاحزاب السياسية . النقابات . المكاتب . النهضة
 النسائية . النهضة القومية . نقشي الخلاعة .

يصطبغ هذا العصر بالوان شتى من الحوادث والسياسيات والاخلاق والعادات،
 كما يصطبغ بالوان شتى من العاوم والفنون والحضارة وال عمران . فقدمرت احوال كانت
 فيها البلاد تضطرب بين الفتن والمذابح والثورات والحروب . ومرت احوال كانت
 فيها البلاد راتعة في رغد من العيش، وراحة وطمأنينة وامن . فعهد الامير بشير كان
 غاصاً بالقلق والفتن والحروب . ثم جاء بعد الشهابيين عهد غاص فيه لبنان بالدم
 المراق في المجازر الطائفية، يؤرث نازها عمال الاتراك لاضعاف الشعب العربي وتفريقه،
 وتستغلها الدول الاوربية فتنفرد كل دولة منها بطائفة تبني عليها نفوذها وسياستها .
 ثم كان عهد المتصرفين فخطت به القلاقل، وسادت الطمأنينة لبنان أن
 تكافلت على حمايته وتعهد طوائفه دول سبع . ولكن ضيق العيش في بقعته الجمودية
 حمل ابناءه على الارتحال عنه، فأنحدر منهم فريق الى بيروت، وهاجر فريق الى مصر،
 وآخر الى اوربة . ثم وكت جماعتهم وجهها اميركة، فاحدثوا في كل بلد حلوه حركة
 علمية ادبية، بدت آثارها في صحفهم ومدارسهم وجمعياتهم ومصنفاتهم .
 ثم كان الانتداب الفرنسي، واصبحت بيروت عاصمة لبنان، فهبطها اللبنانيون
 قضهم وقضيضهم، واستأثرت على الاخص نجاعة المثقفين منهم، فجعلوها عكاظ القرن
 العشرين، ولم يخل لبنان في عهد الانتداب من فتن وقلقل، وضيق اقتصادي .
 ولم يكن حظ سورية في زمن العثمانيين احسن من حظ لبنان، فقد لقيت شيئاً

عسيراً من استبداد الولاة، واضطهادهم للاحرار، ولم يرفقه عنها عهد الانتداب، وما استقامت لها سياسة فيه، ولا سلمت من الثورات والفتن .

وكذلك مصر لم يبدأ لها هادي فمن حرب المراك والفرنسيين، الى حروب محمد علي وابنه ابراهيم، الى الثورة العربية، الى الاحتلال الانكليزي، وما حدث في ظله من فتن حتى نالت مصر دستورها سنة ١٩٢٢ م (١٣٤١ هـ .) .

والبلاد العربية على الاجال تداولتها الاحداث والغير، فكانت تضطرب بين الشدة واللين، والضيق والرخاء . ومع هذا، فالنهضة كانت تسير سيراً حثيثاً في طريق الكمال، ولا سيما بعد منتصف القرن التاسع عشر حيث توافرت لها الاسباب والعوامل، فمن امتزاج قوي بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية، الى مدارس راقية وطنية^(١)

(١) المدارس الوطنية قديمة في لبنان انشأها الرهبان اللبنانيون وكثرت منذ القرن الثامن عشر، ولكنها لم تكن منظمة، اشهرها يومئذ عين ورقفة، وكانت ديراً فاحيات مدرسة سنة ١٧٨٩ م (١٢٠٤ هـ .)، ولم تنظم شؤونها وينهض تعليمها الا في الربع الثاني من القرن التاسع عشر . وفتحت في القرن التاسع عشر مدارس جديدة كبار عبداً عمر قرياً انشأها الرهبان الموازية بين كسروان والفتوح سنة ١٨٣٠ م (١٢٤٦ هـ .) والبلسند انشأها الارشمندريت اثناسيوس قصير قرب طرابلس لاحداث الطائفة الارثوذكسية . واول مدرسة بينة الرقي المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني، انشأها في بيروت سنة ١٨٦٣ م (١٢٨٠ هـ .) ثم المدرسة البطريركية للروم الملكيين، ومدرسة الثلاثة الاقمار للروم الارثوذكس سنة ١٨٦٥ م (١٢٨٢ هـ .) ثم المدرسة الوطنية الاسرائيلية سنة ١٨٧٤ م (١٢٩١ هـ .) مدرسة الحكمة المارونية سنة ١٨٧٦ م (١٢٩٣ هـ .) وتعددت المدارس الوطنية في القرن العشرين ومنها مدارس الاناث . ونظمت الحكومة اللبنانية معارفها بعد الحرب العامة، وفتحت المدارس في المدن والقرى ومنها دار المعلمين، ودار المعلميات في بيروت . ولم تقتصر المدارس على لبنان وحده بل كان لسورية منها حظ حسن، وتاج مدارسها الجامعة السورية في دمشق انشأت سنة ١٩٢٣ م (١٣٤٢ هـ .) وفيها المجمع العلمي العربي، وكلليات الطب والحقوق والاداب . وكذلك مدارس العراق اخذت تنهض منذ عهد الملك فيصل . اما مصر فقد اتينا على ذكر مدارسها الوطنية في زمن محمد علي وحفيده اسماعيل، وارقى المدارس التي انشأها اسماعيل دار العلوم، وفيها كان للعربية شأن كبير . وفي سنة ١٩٠٨ م (١٣٢٦ هـ .) انشأت الجامعة المصرية وهي من ارقى الجامعات، والاداب العربية فيها مترلة سامية . وكانت مدرسة الطب في مصر تعتمد على اللغة العربية، فجعل التعليم فيها بالانكليزية منذ سنة ١٨٩٨ م (١٣١٦ هـ .) واللازهر يد على النهضة فان طلابه هم الذين كانوا يرسلون في البعثات العلمية الى اوربة .

واجنبية^(١) الى طباعة^(٢) انتشرت وعمت وتقدم فيها، ولا تزال تطرد السير بنجاح،

(١) المدارس الاجنبية ظهر رقيها ببنان في مدرسة عينظورة سنة ١٨٣٤ م (١٢٥٠ هـ) عندما اتقنت من يد الآباء اليسوعيين الى يد الآباء العازاريين، وصارت تعلم الاداب العربية. ثم بدأت تظهر في بيروت واجيل مدارس المرسان الاميركيين، وتزاحمها في الوقت نفسه مدارس الرهبان اليسوعيين، وتم عمهم العظم بالشاء ككتبتين راقبتين هما مفخرة بيروت في العالم المتحدن. وتسميان اليوم جامعتين. فالكنية الاميركية انشئت سنة ١٨٦٦ م (١٢٨٣ هـ) وبدأت تخرج تلاميذها الاجازات العلمية سنة ١٨٧٠ م (١٢٨٧ هـ) ثم صارت في طريق الكمال، وانقسمت الى فروع منها العلمي والطبي والادبي والتجاري والاستعدادي، وفيها المرصد الفلكي. وانشئت الكلية اليسوعية سنة ١٨٧٤ م (١٢٩١ هـ) وفروعها الهندسة والطب واخقوق والفلسفة وعلم الكلام، والاداب الشرقية. وفي اواخر القرن التاسع عشر انتشرت المدارس الاجنبية في بيروت ولبنان لنصيان والبنات ولاسيما مدارس اخوة المدارس المسيحية، واخوة مريم، والراهبات. وكذلك كان انتشارها في سورية، واقدمها مدرسة الرهبانية الفرنسية التي جاءت حلب في اواخر القرن السادس عشر، ولم تلبث ان فتحت مدرسة بلغت من الرقي ان صارت تعلم عدة لغات بينها العربية، وطرقتا صالحا من العلوم والفنون. وانتشرت في مصر المدارس الاجنبية من عهد اسماعيل، واكثرها للفرنسيين ثم للانكليز. (٢) اقدم مطبعة ظهرت في لبنان مطبعة قزحياً انشأها الرهبان الموارنة سنة ١٦١٠ م (١٠١٩ هـ) وكانت سريانية. واول مطبعة عربية في لبنان مطبعة مار يوحنا الصابغ في الشوير للروم المنكيين انشئت سنة ١٧٣٢ م (١١٤٥ هـ) ثم مطبعة القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس انشئت في بيروت سنة ١٧٥٣ م (١١٦٧ هـ) وهذه المطابع كانت مطبوعاتها قليلة واكثرها دينية. حتى كانت سنة ١٨٣٤ م (١٢٥٠ هـ) فنهضت المطابع العربية في بيروت بظهور المطبعة الاميركية ثم المطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٤٨ م (١٢٦٥ هـ) والمطبعة اللبنانية انشأها داود باشا متصرف لبنان سنة ١٨٦٣ م (١٢٨٠ هـ) وكانت بدير القمر. ومطبعة المعارف سنة ١٨٦٧ (١٢٨٤ هـ) للمعلم بطرس البستاني و خليل سر كيس. والمطبعة الادبية سنة ١٨٧٤ م (١٢٩١ هـ) خليل سر كيس. واقدم مطبعة عربية في الشرق انشئت بحلب سنة ١٦٩٨ م (١١١٠ هـ) انشأها البطريرك أثناسيوس الرابع، وهو بطريرك من اسرة الدباس تغلب مراراً بين الارثوذكسية والكاثوليكية الملكية (راجع المشرق ٣ [١٩٠٠] ص ٣٥٧، حاشية ٣). وقد اتينا على تاريخ الطباعة في مصر، وكان انتشارها منذ عهد اسماعيل بانتشار الصحف. واول مطبعة اهلية المطبعة القبطية انشأها الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الاقباط سنة ١٨٦٠ م (١٢٧٧ هـ) ثم مطبعة وادي النيل سنة ١٨٦٦ م (١٢٨٣ هـ) وزاد انتشار المطابع في القرن العشرين ولاسيما بعد الحرب الكبرى، فكان منه فيض في بيروت والقاهرة. وانتشر في سورية والعراق وفلسطين.

وخصوصاً في القاهرة وبيروت . إلى صحافة تمت غواً سريعاً بفضل الشوقين على النشاط . إلى جمعيات علمية وخيرية^(١) ، وأحزاب سياسية، ونقابات . إلى مكاتب في حواضر الشرق والغرب حافلة بطوائف الكتب والمخطوطات العربية . إلى نهضة نسائية محمودة أخرجت فتيات حسنت ثقافتهن ، فكان منهن صحافيات ومؤلفات ومعلمات ومحاميات وقوابل وطبيبات . وكان مسيحيو لبنان وسورية ، ولاسيما الموارنة ، سبق الناس إلى إضاءة مشعل النهضة ، لربي مدارسهم وتقدم عهدهم ، ثم لسهولة امتزاجهم بالتقريبين . فساروا بها شوطاً بعيداً منفردين ، حتى تنبه المسلمون في أواخر القرن التاسع عشر . وكان المصريون أسرعهم إلى أطراح العقلة نفرة دواعي النهضة عندهم ، وخصوصاً في زمن اسماعيل . ونشط بعدهم مسلمو بيروت ودمشق وحلب فانشأوا المدارس^(٢) ، وأقبلوا بأولادهم إلى معاهد النصارى ، يتقنونهم ثقافة حديثة راقية . وصدفوا عن المدارس الاميرية^(٣) وقد رأوا فيها لا تنشئ الأرجالاً مستتركين في بيانهم ، رجال سيف وإدارة ، لا رجال علم وثقافة .

(١) اول جمعية علمية في بيروت سعى لإنشائها المرسلون الاميركيون ، فظهرت سنة ١٨٤٧ م (١٢٦٤ هـ) وغايتها نشر العلوم وتنشيط الفنون ، اعضاءها منهم وطيون كالمعلم بصرى البستاني ، والشيخ ناصيف اليازجي ، ومنهم اميركيون كالدكتور عالي سميت ، والدكتور فنديك . واول مجمع علمي في مصر انشأه نابولايون بونابرت سنة ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ) . وسبقت حكومة دمشق الى انشاء المجمع العلمي العربي سنة ١٩٢٣ م (١٣٤٢ هـ) وتلتها حكومة لبنان فانشأت المجمع العلمي اللبناني سنة ١٩٢٨ م (١٣٤٧ هـ) . وكان عمره قصيراً . واما حكومة مصر فم تنشئ مجعها اللغوي الا سنة ١٩٣٤ م (١٣٥٣ هـ) .

(٢) انشأت جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت سنة ١٨٨٠ م (١٢٩٨ هـ) . وفتحت المدارس لنصيبان والبنات ، ونهضت بها نخضة حسنة في الثالث الاول من القرن العشرين . وانشأ الشيخ احمد عباس الازهري المدرسة العثمانية سنة ١٨٩٥ م (١٣١٣ هـ) وعرفت بعد الحرب الكونية بالكلية الاسلامية . وانشأت في دمشق جمعية المقاصد الخيرية سنة ١٨٧٨ م (١٢٩٥ - ١٢٩٦ هـ) وسعت في تأسيس المدارس . وكذلك فتحت المدارس في حلب وسواها من المدن السورية . (٣) فتحت الحكومة العثمانية المكتب الاعلادي للمسلمين في بيروت سنة ١٨٩١ م (١٣٠٩ هـ) ثم انشأت المدرسة الرشيدية العسكرية . واول مدرسة اميرية في حلب ، المنصورية انشئت سنة ١٨٦١ م (١٢٧٨ هـ) وفتح مدحت باشا في دمشق سنة ١٨٧٨ م (١٢٩٥ هـ) ثمانى مدارس ابتدائية للذكور والانات ، ودار صنائع .

ومن آثار النهضة في الامم العربية تزوعهم القوي الى الاستقلال، وطلب المجد المفقود، ونقمتهم على الظلم والاستعباد. فكانت لهم من اجل ذلك ثورات باسيوف دامية، وثورات بالاقلام حامية. فلقوا من الضغط والتشكيل شيئاً كثيراً، فنفروا ينشدون الحرية في اوربة واميركة. ونشروا صحفهم للدفاع عن حقوقهم، ودفع الظلم والظالمين، فأنفوا بالاغتراب انطلاقاً من القيود الثقيلة التي كُبلت بها حرية التفكير. وكانت مصر بعد الاحتلال الانكليزي ارحب سماء للانعتاق الفكري، فقصد اليها جماعات الكتاب والادباء من لبنانيين وسوريين وعراقيين، فوجدوا فيها مجالاً واسعاً لآرائهم وانتقاداتهم. فحملوا على اسواء الحكم الحميدي^(١) ونادوا باصلاحه، وشدوا باسم الدستور، حتى أعطوه سنة ١٩٠٨ م (١٣٢٦ هـ). فنعشت حرية القول والعمل مدة، ثم خاصمها الاتحاديون، واجهز عليها جمال السفاح في الحرب العامة، فلم ينبض لها عرق الا بعد ان تقلص ظل الترك عن البلاد العربية، وخيم ظل الانتداب الاوربي. وهي عند الفرنجية على علاتهم، اقرب منالاً منها عند بني عثمان.

على انه، وان تكن الحرية السياسية لم تعط بعد الحرب الا بمقدار، لقد اعطيت الحرية الخلقية جزافاً، فشاعت الخلاعة، واصبح الجهار بها ضرباً من المدنية الحديثة. وساعدها على الانتشار دور السينما، والصحف والقصص المجونية المباحة.

فهذا العصر، كما تبين، من اعظم العصور في قلائقه وحروبه وانقلاباته. في حضارته وعالومه وفنونه. هو عصر الاستبداد المطلق، والحرية العرجاء؛ عصر يصطبغ بلونين مختلفين. تركي خشن، واوربي ناعم، على ما في هذين اللونين من مساوى ومحاسن.

(١) الحكم الحميدي : نسبة الى السلطان عبد الحميد الثاني استخف سنة ١٨٧٦ م

(٥١٢٩٣). وخلص سنة ١٩٠٩ م (١٣٢٧ هـ) وتوفي سنة ١٩١٨ م (١٣٣٧ هـ).

الشعراء المحدثون

عصر الانبعاث

مِيزَةُ الشَّعْرِ

ضعفه وأسفاهه أول النهضة . ارتفاع لغته مع التقليد .
الشعر المطبوع والشعر المصنوع . الشيخ ناصيف اليازجي .
محمود سامي البارودي . التجديد . مواطنه . الشعراء
المخضرمون . جديدهم وقديهم . خليل مطران .
شوقي . المجددون بعد الحرب الكبرى . الخلاف بينهم
وبين المحافظين . محاسنهم ومساوئهم .

بدأ الشعر يتطور بتطور حضارة العصر، ويتقدم بتقدم العلوم والفنون .
وكان في صدر القرن التاسع عشر ضعيف اللغة، بين الأسفاه، لا يختلف بميزته
عن شعر عهد الانحطاط لاتصاله به . ثم لان يواعث النهضة لم تكن توافرت
بعد، ولا ظهرت لها نتائج . وأشعر الناس في هذه الحقبة نقولا التُّرك^(١) وبطرس

(١) ولد نقولا التُّرك في دير القمر سنة ١٧٦٣ م (١١٧٧ هـ) من أسرة تعرف بالتُّرك .
وانصل بالامير بشير الشهابي الكبير، وتوفي سنة ١٨٢٨ م (١٢٤٤ هـ) وله ديوان غير
مطبوع . ومن شعره قوله من موشح يصف به طرابلس واهلها :

بأبي عهد التُّماني والصفاء ، زمنٌ مرٌّ بظراً بئس
يا هنا عيش رغيد سلفاء ، لي بذاك المعلم المواتس (كذا)

حبذا الفيحاء! أهنا كل نادٍ ، والحمى المعمور، والركن الحصين!
كتب السعدُ عليها يا عبادُ : أدخلوها بسلام آمين

كرامة^(١) في لبنان، والسيد علي الدرويش^(٢) في مصر .

وما انتصف القرن الفائت حتى اخذت بروق النهضة تلتمع، فارتفعت لغة الشعر، وانجلت ديباجته، واستحکم نظمه، وتوثق بنيانه . إلا انه لم يكن ذا حظ من الابتكار والتجدد، لان اصحابه تلمذوا للشعراء المتقدمين، وتثقفوا بلقنهم واساليبهم واغراضهم، فرأوا الخير في محاكاتهم، والتشبه بهم، فاحتدوا على مثالهم في الاستهلال

بلدة طيبة، خير البلاد، والمقام المشتمى للناظرين
اهلها قوم لطاف ظرفا، نعم اجداد، كرام الأفس (كذا)
ماجم عيب سوى حسن الوفا، والخلوص المنتج عن دس
(١) ولد بطرس كرامة في حمص سنة ١٢٧٢ م (١١٨٨ هـ .) وجاء لبنان واتصل
بالامير بشير . وكانت وفاته سنة ١٨٥١ م (١٢٦٨ هـ .) وله شعر كثير طبع بعضه في
ديوان كبير . ومنه قوله يصف ينبوع الصفا وتجربة مائه الى بيت الدين على عهد الامير بشير:
صاح قد وافى الصفا يروي الظما، بشراب كوثري أفس (كذا)
وأفاض الشهد في روض الحمى، لجلا الغم، وبرء الأفس

حبذا القوار منه حين راق، فأرانا ماؤه ذوب اللجين
تزة القلب عن الصم، وراق، بسنا صافي صفاه، كل عين
نشر الدرر بفيض واندفاق، وسقى الوارد أهنا الأطيبين
قد جرى عذبا، فأغنى الندما، بزلال، عن رحيق الأكوسر
وعلى الاغصان أبقى النعما، فزهت مثل ندامى العرس

(٢) نشأ السيد علي الدرويش في القاهرة، واتصل بالامير عباس الاول صاحب مصر .
وتوفي سنة ١٨٥٣ م (١٢٧٠ هـ .) وله ديوان جمعه احد تلاميذه، وسماه الإشعار بمجيد
الأشعار، مطبوع على الحجر . ومن شعره قوله يصف قصرًا :

وقصر كالسما به نجوم، مظالمها السعادة، والبُدور
على أقطاره تبكي عيون، إذا أتسمت لوارده زهور (كذا)
فليس لوافد وافاه، ضر، وقد نذت لمدحتي البحور
وحسبك روضه في كل مجد، وفضل بالبنان له يشير
تفاصر عن سناه ذو ثناء، وحسن القصر ما فيه قصور

بالغزل ثم التخلُّص إلى المدح . ووصفوا مثلهم الطلول والابل، وذكروا اماكن الاعراب في البادية . وشاركوهم في استعاراتهم وتشابيههم، وعرضوهم في منظوماتهم متوكتين على معانيهم والفاظهم . فجاء شعرهم مصطبغاً بالوان العصور الخالية، ليس له من صبغة عصره الا لون ناضل .

وفي الادب القديم صورتان متباينتان : صورة الشعر المطبوع، وصورة الشعر المصنوع . فاضطرب الشعراء بين هاتين الصورتين، وتعلقوا باهدابهما من الناحيتين . فتارة يرسلون الشعر على سجيته، وتارة يوشون لفظه ويزينون . غير انهم كانوا اميل الى الصناعة^(١) منهم الى الطبع لسهولة الأخذ بها على من فاته توليد المعاني وابتكارها، ثم لقرب عهدهم باصحابها في عصر الانحطاط، وقد كان لهم الحريري يومئذ منارة وهدى، واستاذاً اكبر . وزعيم هذه الطبقة من شعراء النهضة الشيخ ناصيف اليازجي^(٢)، وشعره خير مثال لانبعث اللغة، وللتقليد الخائر بين المطبوع والمصنوع .

على ان هذا الشعر الخائر لم يلبث ان هداه الطريق السوي شاعر فارس نبغ في الربع الاخير من القرن الماضي، الا وهو محمود سامي البارودي^(٣) . فانه رغب عن الصناعة

(١) من جملة صناعتهم التأريخ الشعري، فقد كان له حظ كبير عندهم .

(٢) الشيخ ناصيف اليازجي ولد في كفرشيبا من قرى لبنان سنة ١٨٠٠ م (١٢١٥ هـ) . واتصل بالامير بشير الشهابي وكتب له، ونزمه حتى نفي الامير سنة ١٨٤٠ م (١٢٥٦ هـ) . فأنحدر ناصيف الى بيروت، وفيها ظهرت مصنفاته العديدة، في الشعر واللغة، فكانت هداية للطلاب في مدارس النصارى . وكانت وفاته سنة ١٨٧٤ م (١٢٨٨ هـ) . ومن شعره قوله في مدح اسعد باشا القائد العثماني :

بناء العلى بين القنا والبوارق، على صهوات الخيل تحت البيارق
ولله سر في العباد، وإغما قليل محل السر بين الخلائق
يقلب هذا الدهر أحوالنا، كما تقلب فينا لاحقاً إثر سابق

ومنها :

أقام السرايا يُنفِرُ الموجُ خيلها، ككل لواء، فوق لبنان، خافق
بجارت على وجه البحار زواجر، جبال على متن الجبال الشواهِق

(٣) هو محمود سامي باشا البارودي ولد في القاهرة سنة ١٨٣٩ م (١٢٥٥ هـ) . وكان قائداً في الحملة المصرية التي حاربت مع الدولة العثمانية في ثورة البلقان واقريطش فأبلى

اللفظية، فجرى شعره مع الطبع؛ غير ان حظه من الابتكار لم يكن احسن من حظ اصحابه. فقد ترسم في اغراضه ومعانيه، وفجولة لفظه، ابا فراس، والمثنبي، والشريف الرضي، والطغراني، فجاء صورة عنهم، بيد انها صورة بينة الشخصية، وان تكن مستعارة، واضحة التقليد.

فشعراء القرن الماضي كانوا على الاجمال محافظين كل الحفاظ على القديم، لا يعينهم اختراع او تجديد، وانما همهم في تحدي اسلافهم، والاستمداد من آثارهم. الا الذين عرفوا الثقافة الاجنبية، وتأدبوا بادب العرب فقد كان لهم بعض الحظ من الجديد، وهم قلة لا يكاد يذكر منهم الا نجيب الحداد^(١).

احسن البلاء. وما زال يتقلب في المناصب الرفيعة حتى ولي نظارة الجهاد، ثم رئاسة مجلس النظار. وقبض عليه بعد الثورة العراقية في جملة زعماء الثوار ونفي معهم الى جزيرة سرنديب «سيلان» وفيها نظم روائع شعره. ولبت في المنفى سبع عشرة سنة حتى غني عنه، وكان قد كف بصره فعاد الى مصر واقام بها ومات سنة ١٩٠٤ م (١٣٢٢ هـ). وله ديوان شعر في جزئين طبع بمصر. ومن شعره في منفاه قوله:

ولمّا وقفنا للوداعِ وأسبلتْ	مدامعنا، فوق الترابِ، كالمزني
أهبتْ بصبري أن يعودَ، فبزّني،	وناديتْ حلمي أن يثوبَ، فلم يُعني
وما هي إلاّ خطرةٌ ثمّ أقامتْ،	بنا عن شطوطِ الحيّ، أجنحة السّفنِ
فكمّ مُجّة من زفرةٍ الوّجدِ في لظي،	وكمّ مقلّة من غزرةٍ الدّمعِ في دجنِ
وما كنتْ جرّبتْ النوى قبل هذه،	فلما دَهنتني، كدتْ أقضي من الحزنِ
ولكنّني راجعتْ حلمي، وردّني	إلى الخزمِ رأي لا يحومُ على أفنِ
ولولا بُنيّاتٌ، وشيبٌ عواطلٌ،	لما قرّعتْ نَفسي، على فائتِ، سني

(١) نجيب الحداد هو سبط الشيخ ناصيف اليازجي، ولد في بيروت سنة ١٨٦٢ م (١٢٨٤ هـ). وقدم مصر وهو في حدود العشرين، واشتغل في الصحافة والقصص التمثيلية. وكان شاعراً مجيداً وله في الشعر اغراض جديدة كوصف القمار ووصف حريق سوق الشفقة في باريس وغير ذلك. توفي مصدوراً في مصر سنة ١٨٩٩ م (١٣١٧ هـ). قال في القمار:

قد اختصرُوا التجارة من قريب،	فقدمُ في الدقيقةِ او يسارُ
كأنّ وجوههمُ ندماً وحزناً،	كساها لونَ صُفرتِهِ، التُّضارُ
فينا تُبصرُ الوجناتِ ورُدّاً،	إذا هي في خسارتهمُ جمارُ

وكان الجديد أوضح في شعر الذين تحضرموا وأدركوا حضارة القرن العشرين،
واتصلوا بآداب الغربيين ولاسيما اللبنانيون فانهم على الغالب اقرب من غيرهم الى
التجديد والتغريب . ويتلوهم المصريون ثم البغداديون، فالسوريون، فاهل النجف .
وتختلف درجات التجديد في قطر واحدا، او في قطر وآخر، باختلاف الثقافة
والبيئة . فالمهاجرون من لبنان الى اميركة اعلى بالجديد من المتخلفين . والمجددون من
النصارى اعرق من المجددين المسلمين . وشعراء العواصم التي تعددت فيها المدارس
الاجنبية، وشملت الحضارة الغربية، ابعد عن القديم من شعراء المدن المستسكة
بتقاليدها وعلومها الماثورة . ومن هنا كان الجديد اوضح في لبنان ثم في مصر ثم في
بغداد .

هذا وان الشعراء المحضرمين على الاطلاق، ما تأتى لهم ان يتخلصوا من قديمهم
وان اشتدت رغبة بعضهم في محاكاة الغربيين . فخليل مطران^(١) شيخ المجددين في

عصائب لا يؤذ المرء فيها ،
يلاحظ بعضهم بعضا بعين ،
فكم غضبوا على الأيام ظلماً ،
وكم تركوا النساء تببت تشكو ،
نبت على الطوى ترجو وتحنى ،
فبست عيشة الزوجات : حزن ،
وبست خلة الفتيان : هم ،
أخاه ، ولا يراعي الجار جاراً ،
يكاد يضيء أسودها الشراراً ،
وكم حنقوا على الدنيا وثاروا ،
وتعددها الأصبية الصغاراً ،
يورقها الشهاد ، والانتظار ،
وتسبده ، وهجر ، وأفقاراً !
وأعاب ، وخسران ، وعاراً !

(١) شاعر لبناني لا يزال حياً الى زماننا ، هبط مصر في اواخر القرن الماضي واقام بها،
ويعد في مقدمة شعراء الطبقة الاولى، وزعيم المجددين، الا انه افسد شعره بما ادخل عليه من
اغراض مبتذلة كان يتكلف نظمها، ارضاء للناس . طبع الجزء الاول من ديوانه سنة ١٩٠٦ م
(١٣٢٤ هـ) . ومن روائعه النبرونية، والاسد الباكى، والتثال، والمساء . قال يصف غروب
الشمس في قصيدة المساء :

والشمس في شفق يسيل نضاره ،
مرت خلال غمامتين نحدرا ،
فكان آخر دمه للكون قد
وكأنتي آسنت يومي زائلاً ،
فوق العقيق ، على ذرى سوداء
وتفطرت كالدمة الحمراء
مزجت بأخر أدمعي ليرثاني
فرايت في المرآة كيف ساني

عصرنا، ران القديم على ناحية جليلة من شعره، ولم ينظمه كلفاً به، وإنما مراعاة للمحافظين، او تودداً الى الناس في افراحهم واحزانهم . وكذلك احمد شوقي على سمو قدره في دولة الشعر، كان الجديد عنده اقل حظاً من القديم . والمحافظون الذين ينكرون هذا الجديد لا يزال عددهم وفراً، مع انبساط سلطان الاعاجم، وانتشار عاومهم وفنونهم؛ واكثرهم يجهل الادب الاوربي، والانسان عدو لما يجهل . غير انه نشأ بعد الحرب الكبرى جيل من الشعراء تثقفوا ثقافة اجنبية، وتمكنوا من نظم الشعر في العربية، فحاولوا نبذ القديم واطراحه، وجعل الادب العربي صورة عن الادب الغربي في اغراضه ومعانيه . ففوقوا بعض التوفيق الا ان افكارهم وصورهم جاءت في الجملة غريبة عن بيئة الشرق وعاداته، فما استاغتها جمهرة الناس، وتنگر لها المحافظون، فشنعوا عليها وازدروها . فقامت المجددة الغالية تطعن في المحافظين، وتتهمن ادبهم، وتسخر من جمودهم وتقليدهم . فكانت حرب سجال بين دعاة الحديث واصحاب القديم، لا يزال حرها يصطلى الى اليوم . وكلا الخصمين محق في بعض ما يدعيه، جازر في بعضه الآخر . فالمحافظون لم يظلموا هؤلاء المجددين لما رموهم بضعف الصياغة، والسعي في طلب الالفاظ، وغموض المعنى، وتحدي الشعراء الغربيين . فصياغة الجيل الذين نشأوا بعد الحرب العالمية اضعف على الاجمال من صياغة المخضرمين . وفيهم ولع جنوني بتصيد الالفاظ الموسيقية البراقة ليلوتوا بها صورهم الغريبة، لا يستنون من ذلك عنوان القصيدة؛ فعندهم دمعة القلب، والشاطىء المجهول، ووادي الدموع وما اشبه . وغموض المعنى في شعرهم ناتج عن اغرابهم في اختيار الالفاظ، وافرطهم في الاعتماد على صور من التشابيه والاستعارات الشاذة، يزجها خيال طليق جامح لا يقترن بالذهن . واساليبهم الشعرية، وصورهم الخيالية، واغراضهم ومعانيهم، مصطبغة بالوان الادب الفرنجي كل الاصطباغ . فما يصعب على الناقد البصير ان يرد اكثر شعرهم الى اصول غريبة معروفة الاصحاب . وربما غزوا التوراة، تشبهاً بشعراء الفرنجة، واعتنموا منها مادة لمنظومهم او اغاروا على الحرافات اليونانية، وتوقلوا الاولب والبرناس واستزلوا الآلهة والربات . وبلغ من افتنائهم بالغربيين، واعتلاقهم اياهم، ان ترسموهم في مذاهب الشعر عندهم، فاتبعوا الفئة المتجررة (Les Romantiques)، والفئة المتجررة (Les Réalistes)، والفئة

الرمزية (Les Symbolistes) . وجاءت ثقافتهم الغربية امتن من ثقافتهم العربية، فاذا هم تحدثوا عن اديب عجمي افاضوا بوصفه وتحليل ادبه، وتصوير عصره في دقة وبراعة . واذا هم تحدثوا عن اديب عربي، اضطربوا في معرفته، وتبيان عصره، وبدأ عليهم العجز والتقصير .

على ان المحافظين قد جاروا على الشعراء الجدد اذ عروهم من كل فضيلة، ونسبوههم الى الغثاة في حين انهم يحسنون اشياء لا يحسنها هؤلاء . فهم اشد اتصالاً بعصرهم، واصدق تصويراً لحياتهم والطبيعة . وعلق خاطرهم بوحدة الموضوع، واكل احتفالاً بشعر المنابر .

وكذلك الشعراء الاحداث لم يظلموا المحافظين حين اتهموهم بالتقليد، وقالوا انهم اشبه شيء بالصدى يرجعون اقوال المتقدمين، ويعددون الموضوعات، ويغالون مثلهم، وينظمون على ابوابهم المعروفة . وليس لهم براعة الا في شعر او حته حادثة تدعو الى مدح او رثاء او ما شاكل ذلك . وانهم كسالى جامدون لا قبل لهم بالمطالعة ليتزيدوا من العلوم والفنون، فتكتمل ثقافتهم . ولكنهم لم ينصفوهم في نكران محاسنهم، فلقتهم اشد احكاماً، واسلوبهم اصفى عروبة، وشعرهم افيض عاطفة، واوضح معنى، واكل ابهاماً، واحفظ لتراثنا الادبي . ومهما غلا اصحاب الحديث في مذهبهم، لا ينبغي لهم انكار قديمهم، فليس من ادب طريف تحت الشمس الا وله صلة بالتليد .

فشعر الانبعاث، كما يتبين، مر باطوار مختلفة حتى وصل الى حالة يتنازعه فيها تقليدان: عربي شائخ، وغربي محدث، وهو بين هذين الامرين يكاد يكون غريباً عن عصره وبيئته . وهيئات ان يرتجى له نهضة صحيحة الا اذا خلع اصحابه اتواهم المستعارة، وبدوا على ملعب الحياة بأدب حقيق بهم، مطبوع بطابعهم . فيه صور جليلة لنفوسهم، ومجتمعهم، وعاداتهم، واخلاقهم . ولولا نفثات بليغة يفيض بها صدور الشعراء المحسنين، لما كان للشعر الحديث شأن يذكر . واكل الشعراء تقليداً، واعربهم بياناً، واطهرهم شخصية، والصقهم بروح العصر، اقرهم الى الناس، واحبهم الى القلوب .

اغراض ومعاني

الابواب القديمة والجديدة . القصص والتمثيل .

ما آذن الشعر بالتطور على انوار الحضارة الغربية حتى اخذت الاغراض والمعاني الجديدة تنسرب فيه ولاء، وتمتزج بالقديمة امتزاجاً يقوى ويشدد مع تقدم العلوم والفنون . حتى اذا اكتمل شباب القرن العشرين، طغت الاغراض الحديثة على الاغراض الماثورة، وغاقت ابواب مطروقة، كان الخير في تغليقها كالمدح والهجاء . واهملت ابواب لم تبق من طلبات الشعراء كالفخر والحماسة والطرود . ولبثت ابواب مفتوحة المصاريح، مطردة الاتساع كالغزل، ووصف الحمر ومجالس اللهو . والطبيعة والعمران، والجيوش والمعارك، والرثاء، والشكوى والتاريخ، والسياسة والاجتماع . والدينيات، والكفريات، والشعر التعليمي . واستحدثت اغراض لم تكن معروفة من قبل كوصف المخترعات، والمستنبطات، والقصص والتمثيل .

المدح

رواج سوقه في القرن التاسع عشر . ضعفه بعد الحرب الكبرى .

كان للمدح سوق رائجة في القرن التاسع عشر، ثم اقبل القرن العشرون ولم تكسدها بضاعة عند الشعراء المحضرمين . وميزة المدح في شعر الانبعاث لا تختلف عنها في الشعر التالذ، فلها الغلو المقيت والزلفى والاستجداء . ولها الاوصاف والمعاني المعهودة . ولها التصدير بالغزل المتكلف، وحسن التخلص .

على ان الشعراء الذين ظهروا بعد الحرب الكبرى اعرضوا عن هذا الفن، واستنكروه، وكرهوه، وابوا ان يحسبوه من اغراض الشعر، فضعف وانحط شأنه . ولولا بقية صالحة من المحافظين وشبه المحافظين، لفني هذا النوع ولم يبق منه الا ما

يجري بين الأدباء، والأصحاب من الأخوانيات كالتهنئات والتقريظات، ومن شعراء المدح في القرن الماضي نقولاً الترك، وبطرس كرامة، والشيخ ناصيف اليازجي، واشتهر من المحضرمين أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم^(١)، وخليل مطران، والشيخ عبدالله البستاني^(٢)، وشبلي الملائط^(٣)، ومعروف الرصافي^(٤)، وغيرهم.

الهجاء

طوي هذا الفن أو كاد بسبب تبدل الاخلاق والعادات وقيام القوانين المدنية في وجه المعتدين على اعراض الناس. ولم يبق منه الا مداعبات لطيفة فيها تمكّم وتصوير سخري، مما لا يتناول المحارم، واكثره يجري بين الأدباء.

الحماسة والفخر

هذا فن اشرق في القرن الماضي عند محمود سامي البارودي الشاعر الفارس، ثم خبا نوره، وخذت معه همم الشعراء، فما ينظم فيه الا ابيات متفرقة يذكر فيها الشاعر آباءه واخلاقه، وشاعريته.

الطرد

شاع هذا الفن في القرون الحالية يوم كان الشعراء يتلهون بالصيد، أو يرافقون

(١) حافظ إبراهيم شاعر مصري ولد سنة ١٨٧١ م (١٢٨٨ هـ) وتوفي سنة ١٩٣٢ م (١٣٥١ هـ) واحسن شعره في الاجتماعيات والوطنيات . (٢) الشيخ عبدالله البستاني وند في الدبئية من قرى لبنان سنة ١٨٥٤ م (١٢٧١ هـ) وتوفي في بيروت، وقبر في دير القمر سنة ١٩٣٠ م (١٣٤٩ هـ) وهو لغوي من الطيفه الاولى، وله شعر اكثره في المدح والثناء . وكانت له عناية بالتاريخ الشعري والقصص . (٣) شبلي الملائط شاعر لبناني لا يزال حياً الى عصرنا، اجاد المدح وله في الشعر القصصي قصائد حسان . (٤) معروف الرصافي شاعر عراقي ولد في بغداد سنة ١٨٧٥ م (١٢٩٣ هـ) ولا يزال حياً . وله شعر جيد في الوصف والقصص .

الملوك في قنصهم، فيصفون الطرد وادواته، والطرائد واجناسها . اما شعراء عصرنا فلم يحفلوا به، ولا عطفوا عليه، ولم يكن لهم من الملوك محرض على سلوكه فاهملوه واطرحوه، ولم يلبث ان دخل في عالم النسيان .

الغزل

الاصناف المادية . وصف العواطف . الخلو من الفحش .
الغزل المتكلف . الغزل العاطفي . اسماعيل صبري .
بشارة الخوري .

ما برح المقام الرفيع لهذا النوع من الشعر، وما انفك الشعراء المعاصرون يقتصون اثر المتقدمين في اوصافهم المادية وتشابيههم واستعاراتهم . غير انهم جعلوا مكاناً لتحليل العواطف وتصوير نزوات النفس في سرورها والمها، واستئناسها ووحشتها، وسكونها واضطرابها . مما لا تجد مثله في كثير من الغزل القديم . وغزلهم في الغالب خالٍ من الالفاظ الفاحشة، وان تكن معانيه لا تخلو من الاستسلام الى الشهوة، والالحاح في طلب اللذة .

والغزلون في الشعراء كثير، فمنهم المتكلفون الذين يصطنعون الغزل واسطة لا غاية، او ارضاء للفن، لا تلبية للعاطفة . فاما الاولون فالتقليد والجفاف طافيان على نسيبهم لانهم يترسمون فيه اسلوب المتقدمين . واما الآخرون فلهم صور جميلة ملونة، فيها اتساق حسن، وفيها خيال لطيف، ولكنها جامدة لا تتحرك، كالاولئان المنحوتة، افرغت في قالب الجمال، واعوزتها الحركة والحياة .

ومنهم العاطفيون وهم قلة بالاضافة الى المتكلفين، واحسنهم من تأتى له ان يجمع العاطفة والفن، فكانت له صور بديعة الاشكال والالوان، عميقة الاثر، قوية الاحساس والشعور . واشهر شعراء هذه الطبقة اسماعيل صبري^(١)، وبشارة الخوري^(٢) .

(١) هو اسماعيل صبري باشا شاعر مصري رقيق الشعور، ولكنه كان مقلاً، وولد سنة

١٨٥٤ م (١٢٧١ هـ) وتوفي سنة ١٩٢٣ م (١٣٤٢ هـ) ومن غزله قوله :

الحمر ومجالس اللهو

لم يرقم بعد ابي نواس شاعر يصف الحمر الا كان مقلداً له، مقصراً عنه، وقد وصفها في عصر الانبعاث جماعة من الشعراء. ووصفوا معها مجالس اللهو، ولكنهم لم يغنوا غناء شاعرها العباسي، بل لم يلحقوا غباره. ومن وصفها احمد شوقي وحافظ ابراهيم وبشارة الخوري. إلا ان شوقي اجاد وصف المراقص العصرية في خمرياته.

الطبيعة والعرمان

وجوه النظر الى الطبيعة . تشخيصها . الامتراج جا .

للشعراء وجوه مختلفة في النظر الى الطبيعة ووصفها، فمنهم من يرنو اليها من ناحيتها الباسمة، فما يرى غير الرياض الأريضة، والازهار الفواحة، والاثار اليناعة، والاطيار المفردة، والمياه المصطفقة، والكواكب المؤتلفة . ومنهم من يلحظها من ناحيتها العابسة، فما يستهويه غير ليلها المظلمة، ورياحها الخافقة، ورواعدها القاصفة، وامطارها الجارفة، واشجارها العارية، ومفاوزها المتقاذفة، ووحوشها الجائعة . ومنهم من يروود ناحيتها، فيتتهج لبهجتها، ويكتب لكآبتها . وهم في وصفها متباينون

أَقْصِرْ فَوَادِي فَا الذَّكْرَى بِنَافِعَةٍ ، وَلَا بِشَافِعَةٍ فِي رَدِّ مَا كَانَا

سَلَا الْفَوَادِ الَّذِي شَاطَرْتَهُ زَمْنَا ، حَمَلُ الصَّبَابَةِ ، فَأَخْفَقَ وَحَدَّكَ الْآنَا

(٢) بشارة الخوري، ويعرف بالاختل الصغير، شاعر لبناني نشأ في بيروت ولا يزال

حيًا؛ وهو أشهر الشعراء الغزليين . ومن غزاه :

كفاني يا قلب ما أحمل ، أفي كل يوم هوى أول !
 أخلق منك جديد الهوى ، فواداً من السكر لا يعقل
 له عثرة الطفل حول السرير ، ودعته البكر إذ يعول
 أفي كل وجه لنا مرتع ، وفي كل ثغر لنا منهل
 كفى نصاً لن يقر الجبال ، وترحل أنت ، ولا يرحل
 عذرتك يا قلب من للهوى ؟ أنتر كة بعدنا يذبل ؟

الفكرة والاسلوب، فقد يصفها احدهم وصفاً مادياً يحايه بشتى التشابيه والاستعارات، دون ان يتحد بها ويستجلي اسرارها. ويصفها غيره فيبعث فيها روحاً حية، وشعوراً متدفقاً، ويغوص على دخائل نفسها، يستشفها ويصورها حسبما تلي عليه عاطفته، ويوحى اليه خياله. او يمزج بها روحه وشعوره، ويخرج منها صوراً ملونة تبرز ما في نفسه من بيحة او كآبة، من حزن او سرور. ويصفها آخر فيستخرج منها صوراً شاملة للجماعة الانسانية، وما يجري في مقاييس الحياة، من خير وشر، وعدل وظلم، واتفاقات وتناقضات. ويصطبغ هذا الشعر على الغالب بالكآبة والتشاؤم والثورة على النظم والشرائع.

وقد تناول شعراء العصر اوصاف الطبيعة على اختلاف وجهاتها. فوصفوها وصفاً مادياً^(١) وشخصوها وانطقوها^(٢)، ومزجوا بها ارواحهم^(٣)، واحتدوا على مثال الغربيين في النظر الشامل الى الكون، فعل جبران خليل جبران^(٤) وايليا ابي ماضي^(٥).

وكذلك وصفوا مشاهد العمران، فنتقوا المدن والقصور، والكنائس والمساجد، والآثار والتماثيل. وفي شعر شوقي طائفة حسنة من هذا النوع.

(١) مثال ذلك وصف شوقي للبنان ودمشق. (٢) كوصف شوقي لرحلة. (٣) كقصيدة المساء لخليل مطران وقد روينا شيئاً منها. (٤) كاتب شاعر مفكر، ولد في ابشراي من اعمال لبنان سنة ١٨٨٣ م (١٣٠١ هـ). وهاجر الى الولايات المتحدة، ومكث فيها حتى توفي. وكانت وفاته في نيويورك سنة ١٩٣١ م (١٣٥٠ هـ). ونقل جثمانه الى مسقط رأسه في لبنان. وامتاز بخياله الحصب وصوره الجميلة العميقة، ونثره الشعري الذي طبعه بطابعه، وسمي باسمه، ومصنفاته المبتكرة. ولكنه كتب اكثرها واحسنها باللغة الانكليزية. وله في الشعر كتاب المواكب وهو قصيدة طويلة من المسطّ ينشد فيها الحرية في كهوف الغاب، ثائراً على ضعف الانسان وتقاليدته وشرائعه. قال فيها :

ليسَ في الغاباتِ راعٍ ، لا ولا فيها القطيعُ
فالشُّنَّاءُ يَحْتَبِي ولكنَّ لا يُجَارِيهِ الرِّيعُ
خُلِقَ النَّاسُ عَيْدًا للذي يأبى الخُضوعَ
فإذا ما هبَّ يوماً سائراً، سارَ الجَمِيعُ

أعطني النَّايَ وَعَنِّي ، فالغنا يرعى العُقُولُ
وَأَنْبِيَّ النَّايِ أَبْقَى ، من مجيدٍ وذليلٍ

(٥) ايليا ابوماضي شاعر لبناني هاجر الى اميركة ولا يرح مقيماً فيها، وله ديوان تذكاري

الجيش والمعارك

ناصريف اليازجى . البارودى . شوقى .

حفل عصر الانبعاث بالحروب والثورات والفتن، فتأثر بها الشعر، وناله من وصف
الجيش والمعارك نصيب وفر. واشهر اصحاب هذا الفن الشيخ ناصريف اليازجى،
ومحمود سامى البارودى واحمد شوقى . وكانوا فى اكثر اوصافهم مقلدين، يغلب
عليهم خيال المتقدمين ومعانيهم، لا يذكرون الا السيوف والرماح والدروع والمغافر،
والخيل والعبار . وقلما ذكروا المدافع والقذائف والحنائق، والحنادق وسواها
من ادوات الحرب الحديثة واساليبها .

الرثاء

الاقبال عليه . تصوير شخصية الميت . رثاء المدن
والمالك . شوقى .

لا يزال للرثاء شأن عظيم عند الشعراء، ولكنه خرج بعد الحرب عن قصد
التكسب والزلفى، وكاد يقتصر على كل اديب لامع او عالم عامل، او زعيم وطنى .
ومما يحمد فى شعر المجددين ان اكثر رثائهم يصور شخصية الميت تصويراً دقيقاً فما يصلح
الا له، وليس كالرثاء التقليدى يصح نقله الى كل ميت عند تساوى الدرجات والطبقات .
وللمحدثين براعة تذكر فى رثاء المدن والمالك، وشعر شوقى حافل بذلك .

الماضى، وديوان الجداول، وهو فى مقدمة الشعراء المجددين، وشعره يصور الطبيعة والحياة
الانسانية ابرع تصوير . قال :

قد يصيرُ الشوكُ إكليةً لا إِمْلَكُ أو نبيّةً
وبصيرُ الوردُ فى عُرْ وَةٍ لِصَيِّ أو بغيّةً
أَبْغَارُ الشُّوكِ فى الحَفْ لٍ مِنْ أَلْزَهْرِ الجَنِّيّةِ،
أم تُرى بِحَسْبِهِ أَحقرَ منه؟

الشكوى

البارودي . تامر الملائط . سليمان البستاني . خليل مطران .

وهذا الباب من النوع الوجداني، يعبر به الشاعر عما في نفسه من ألم وحزن وغم وشقاء. وهو كثير في شعر المحدثين، فما تكاد ترى شاعراً الا شاكياً باكياً حتى اصبح الذواح صفة قوية تتميز بها منظوماتهم . واحسن ما ورد لهم في هذا الباب ما خرج عن نفس صادقة الشعور بالالم، لا تتكلفه حبا للفن، او جرياً مع التيار الباكي . فنه الشعر الذي نظمه البارودي في منفاه^(١)، ووصف تامر الملائط نفسه^(٢)، وسليمان البستاني داءه^(٣)، و خليل مطران همومه وآلامه^(٤) .

(١) اوردنا للبارودي شيئاً من شعر منفاه في مكان آخر مر بنا . (٢) تامر الملائط اخو شبلي الملائط الشاعر، ولد في بعبدا من قصب لبنان، سنة ١٨٥٦ م (١٢٧٣ هـ) وتولى عدة مناصب في القضاء، حتى رأس محكمة كسروان . فحدث ان سرق سجل منها، وأثبت فيه صك مزور، فاتهم تامر بالجرم وحس ولم تظهر براءته الا بعد ان خولط في عقله . وكانت وفاته سنة ١٩١٤ م (١٣٣٣ هـ) . وله شعر قوي الاحكام، كثير الغريب يخرج الى اسلوب البادية حيناً، والى اسلوب ابي تمام آخر . ومنه ما قاله في جنونه وارونه قصيدة يصف بها نفسه، قال فيها وكلمها من هذا الوصف البديع :

مَقُودٌ غَيْرٌ مُخْتَارٌ ، كَأَنِّي آلَةٌ صَاءٌ
إِذَا مَا حَشْرَةٌ أَزَّتْ ، عَرَّتَنِي هَزَّةٌ رُغْمًا
وَإِنْ صَرَ الذَّبَابُ الْغَثُ - صَرَّتْ أَضْلَعِي مَاءً
وَيَأْتِينِي الْبُكَاءُ عَفْوًا ، وَيَعْصِيهِ الْبُكَاءُ لَمًّا
• وَلَا أُسْطِيعُ جَذْبَ النَّفْسِ ، عَنِ ضَحْكِي فِي النَّسَاءِ

(٣) قال سليمان البستاني من قصيدة يصف بها داءه :

تَلُوحُ لَكَ الْوُجُوهُ الْبَيْضُ سَوْدًا ، وَوَجْهُ الْأَفْقِ يَبْدُو مُكْفَهَرًا
يَقُولُ لَكَ الْأَسَى صَبْرًا ، وَآتَى عَلَى هَذَا الْعَذَابِ تَطْبِيقَ صَبْرًا
إِذَا عَالَجْتَ عَضْوًا هَجْتَ عَضْوًا ، وَإِنْ دَاوَيْتَ رَأْسًا هَضْتَ صَدْرًا
كَأَنَّ بِكُلِّ عِرْقٍ مِنْكَ دَاءٌ ، تُسَكِّنُ عَلَّةً ، فَتَشُورُ أُخْرَى

(٤) قال خليل مطران من قصيدة الاسد الباكي :

ذَرُونِي أَحْسُو الْحَمْرَ غَيْرَ مُفَرِّرٍ ، عَنِ الْوَرْدِ مِنْهَا، نَفْرَةَ الطَّائِرِ الْخَاسِي

التاريخ

الشعر القصصي . التعليمي . شوقي .

في الشعر المحدث طائفة حسنة من القصائد التاريخية، يجري بعضها مجرى الشعر القصصي الرائع كهزمية شوقي التي قالها في المؤتمر الشرقي الدولي، وبأنيته في وصف الوقائع العثمانية اليونانية . وبعضها ينحط الى مستوى الشعر التعليمي لضعف الميزة الادبية فيه كشعر شوقي في دول العرب وعظما الاسلام .

السياسة والاجتماع

الوطنيات والقوميات . النظر الى الحياة الاجتماعية ومشاكل الحياة . الشعر الانساني . التماس الاصلاح بالهدم .

وهذا النوع له حظ وافر في شعر المتقدمين، فقد كان للاحزاب السياسية شعراء ينافعون عن حقوقها وآرائها . وكان للمجتمع شعراء يأتون بالحكم والامثال للارشاد، وتهذيب الاخلاق؛ ويتألمون لآلام الناس فيرثون الممالك البائدة، ويكون على المدن المنكوبة . الا ان المتأخرين وسعوا نطاق هذا الباب، ونوعوا اغراضه، واقتنوا فيها، وخرجوا الى اشياء لم يعرفها الاوائل؛ فنظموا في الوطنيات، والقوميات . وتغنوا بالحرية والاستقلال، وثاروا على الظلم والظالمين . وناصروا الاستعباد والمستعبدين، وعطفوا على الهياة الاجتماعية، وعرضوا لمشاكل الحياة فيها، فنظموا الشعر الانساني السامي . فاذا هم يذنون لجراح الشعوب على اختلاف اجناسها، ويكون لمصارع الاخلاق، ويحثون على الفضائل، ويصورون عقبة الرذائل، ويحضون على تحرير المرأة، وتعليمها، وتربية الاطفال وتثقيفهم . ويدعون الى الحياة الرياضية، ويحسونها بالاناشيد، ويظرون المعاهد العامة كالمستشفيات والملاجي والمدارس، وما شاكل مما يتناول

فَرُبَّتْ كَأْسٌ عَنْ شِفَاهِي رَدَدْتُهَا ، وَقَدْ قَتَلَ الدَّمْعُ السَّلَافَةَ فِي الكَاسِ
أَنَا الأَلَمُ السَّاجِي، لِيُبْعِدَ كِرَافِرِي، أَنَا الأَمَلُ الدَّاجِي، وَلَمْ يَنْجُبْ نِيرَاسِي،
أَنَا الأَسَدُ البَاكِي، أَنَا جَبَلُ الأَسَى، أَنَا الرَّمْسُ يَمُثِي دَامِيًا فَوْقَ ارْمَاسِ !

اصلاح المجتمع، وسياسة الامم . غير ان التشاؤم والسرف سيطرا على جانب من هذا الشعر، فذرفت فيه دموع غزيرة، وتصاعدت منه زفرات حارة، وامتهنت التقاليد والعادات، واييحت العقائد والشرائع، واتمس الاصلاح بالهدم والتعطيل .

الدينيات والكفریات

التميدون . مدح الانبياء . شوقي . الشك والانكار .

والدينيات احتلت مكاناً من الشعر في منظومات المتعبدين والمتزهدين من رجال الدين وغير رجال الدين . ومنها ما يدخل في باب الزهد والتوبة، ومنها ما يقتصر على قص اخبار الرسل والانبياء والقديسين، ومدحهم واستشفاعهم . ولشوقي في الدينيات شعر كثير اشهره نهج البردة والمهزبية النبوية .

وتقوم الكفریات قبالة الدينيات؛ واصحابها جماعة رق دينهم فاستهزؤوا وسخروا، او جماعة عرفوا من الفلسفة الشك والانكار، فشكوا وانكروا ليقول الناس انهم فلاسفة . او جماعة تقموا على رجال الدين، وساء ظنهم بهم حتى اذا ارادوا اصلاح مجتمعهم، وانقاذه من التشعب الطائفي، لم يجدوا الدواء الا في تعطيل الاديان، وهدم الجوامع والكنائس .

الشعر التعليمي

متون العلوم . التاريخ . الاناشيد والحكايات .

وكذلك الشعر التعليمي اقبل عليه المحدثون، وفي مقدمتهم الشيخ ناصيف اليازجي، فانه نظم الارجيز في النحو والبيان والعروض . ثم اصبح هذا الفن مقصوراً على سرد الاخبار التاريخية، كما فعل شوقي في كتابه دول العرب وعطاء الاسلام . وعلى تربية الاطفال، واصلاح الاخلاق والحض على العلم؛ اما بطريق الحكايات على السن الحيوان، وضرب الامثال، شأن شوقي في ارجيزه القصصية . واما بطريق الوعظ والارشاد كانشيد شوقي لاحداث الامة .

المخترعات والمستنبطات

القطر الحديدية . الطائرات . السيارات .

هذه الاشياء جديدة في الشعر العربي لان المتقدمين لم يعرفوها ليصفوها كما وصفوا غيرها من المحسوسات . وانما كان اخذ منها للمتأخرين، فاقاضوا في ذكرها، واحسنوا نعتها؛ فاشتملت منظوماتهم على طائفة جليلة في صفات القطر الحديدية، والطائرات، والسيارات، والكهرباء، والصليب الاحمر، والهلل الاحمر، وغير ذلك من الاشياء التي ظهرت في العهد الحديث .

الفصص

اخبار الاقصوة . التاريخ . الحوادث الجارية . ضعف تحليل العواطف .

عرف القدامى شيئاً من الفن القصصي في ما كان يتخلل قصائدهم من ذكر الحوادث القصيرة، وعرفوه اخباراً وحكايات في الشعر التعليمي، بيد انه ضعيف الخيال، ساقط الميزة الادبية . اما المحدثون فقد اطلعوا على الشعر القصصي في آداب الاعاجم، فنبههم الى ما في ادبهم من نقصان؛ فحاولوا سد هذه الثلمة، وتوفروا على نظمه، فجعلوه فناً قائماً برأسه . إلا انهم آثروا الاقصوة، ونكلوا عن القصة؛ ولو لم ينقل سليمان البستاني إلياذة هوميروس نظماً متقناً خلا الشعر العربي من القصص الطويل الرائع .

واشهر اصحاب الاقاصيص الشعرية احمد شوقي، و خليل مطران، وحافظ ابراهيم، وشبلي الملائط، وبشارة الخوري، ومعروف الرضافي . وموضوعاتهم مستمد بعضها من بطون التواريخ، وبعضها من الحوادث الجارية في ايامهم . غير انهم يفتنون في اخراجها، ويسبقون عليها خيالاً جميلاً، وفناً شعرياً، فتغلب الصبغة الادبية على صبغة التاريخ والخبر . ولو برعوا في تصوير الاشخاص وتحليل العواطف النفسية براعتهم في عرض الحوادث ووصفها وسردها، لبلغوا غاية بعيدة في هذا الفن .

التمثيل

اول قصة تمثيلية منظومة . الاعتماد على التاريخ . شوقي .

واطلع المحدثون على الشعر التمثيلي عند الغربيين، كما اطلعوا على الشعر القصصي، فانشطوا الى محاكاتهم، فنظم الشيخ خليل اليازجي^(١) اول قصة تمثيلية، وحذا حذوه الشيخ عبدالله البستاني^(٢) . ثم كان احمد شوقي فرع الشعر التمثيلي في قصصه، وفاق من تقدمه، وان لم يبلغ به الفن درجة سامية . ويعود توفيقه الى شاعريته وبراعته، ثم الى تصرفه في الاوزان والقوافي . فقد كان الذين تقدموه دونه شاعرية وبراعة، ودونه تحرراً من ربة الاحكام العروضية، فجاءت قصصهم ضعيفة الفن مملّة، تصدع الآذان بقصائدها الطويلة الجارية على بحر واحد، وقافية واحدة .

وهو موضوعات الشعر التمثيلي مقصورة على حوادث التاريخ دون غيرها . وما من قصة تصور المجتمع العربي في حضارته العصرية، وعاداته، واخلاقه، وازيائه . ومهما يكن من شيء . فان ظهور الشعر القصصي والتمثيلي في الادب العربي اتم الفنون الشعرية بعد نقصانها، وخرج بالشعراء عن الحدود الشخصية الى الميدان العالمي المتسع .

اوزانه وقوافيه

المقطعات . اختلاف القوافي . الشعر المشور .

لبث الشعراء في القرن الماضي يحافظون على الاوزان والقوافي كما جاءتهم عن

(١) هو ابن الشيخ ناصيف اليازجي، ولد ببيروت سنة ١٨٥٦ م (١٢٧٣ هـ) وتعلم في الكلية الامبركية . ثم هاجر الى مصر واشتغل مدة في الصحافة، ثم عاد الى بيروت، واحترف التعليم . حتى اصيب بداء الصدر فانهض عن العمل حتى مات سنة ١٨٨٩ م (١٣٠٧ هـ) . وكان شاعراً محسناً . وهو اول من حاول الشعر التمثيلي، فألف قصة المروءة والوفاء منظومة في نحو الف بيت . (٢) وضع خمس قصص تمثيلية شعرية . وهي حرب الوردتين، ويوسف بن يعقوب، وبروتوس ايام تركوين الظالم، وبروتوس ايام يوليوس قيصر، ومقتل هيرودس لولديه .

العرب المتقدمين، إلا ما كان من ميلهم الى التوشحات في قصائدهم الطويلة، وخروجهم بها عن اصولها، وتفننهم في تجزئتها وتفصيلها، حتى صاروا بها الى مسدسات، ومسبعات، ومشمات، دونما التفات الى عدد الاقفال والابيات، او الى اصطناع الخرجة في القفل الاخير . ولكنهم راعوا نظماً في الوزن والتقفية .

فلم اسادت الثقافة العربية في القرن العشرين، حاول شعراؤه ان يُحدثوا حدثاً في القوافي والاوزان فجعلوا ينظمون القصيدة مقطعات، تختلف في عدد ابياتها حيناً، وتتفق آخر، ولكل مقطعة قافية تستقل بها عن اخواتها . ومنهم من جرى على اسلوب الشعر الفرنسي، في تشنية قوافيه، وتقطيعه وتفصيله، وآثر البحور الخفيفة الرشيقه . ومنهم من اهمل القوافي، وحافظ على الاوزان . ومنهم من حافظ على القوافي، واهمل الاوزان، او اهملها معاً . وسما هذا النمط الاخير بالشعر المنشور، وهو اسخف ما وصل اليه القريض وكان ظهوره عند المهاجرين من لبنان . ولقي من جبران خليل جبران نصيراً قوياً يزينه بنجاليه الجميل وموسيقى الفاظه، ويجيبه الى جمهرة مريديه ومناقسيه؛ فانبرى الى تقليده أصيبية الادب مستسهلين الخطب، وانبرى كل كاتب اراد التشبه به، ولم يرزقه الله ملكة الشعر، فاسقوا الى الحضيض، حتى اصبح شعرهم المنشور، وليس فيه غير جمل مقطعة، مرصوفة، وغير تشابيه واستعارات سقيمة الخيال مكرورة لا طائل تحتها .

ونحمد الله ان انصار هذا النوع قليل، واكثرهم لا خطر له في الادب . وكذلك الذين اهملوا القوافي كان نجاحهم دون نجاح اصحاب الشعر المنشور .

منزلة الشاعر المحدث

الذائد الوطني . المعلم الاجتماعي . شاعر الشعب .

لبث الشاعر المحدث طوال القرن التاسع عشر وبعض العشرين لا هم له إلا ان يقف في حضرة الملوك والامراء، واصحاب المناصب، والاشراف يدحهم ويرثي امواتهم، فكان لهم صنأجة تطريهم انغامها في الافراح والاحزان . ثم اتخذ خاصة الذائد الوطني، والمصلح الاجتماعي، والمهذب الخلفي . فارتفعت منزلته في عيون الناس، ولمسوا بنفثاته ما يعبر عن شعورهم وأحاسيسهم، وآلامهم وآمالهم . وكان كلما ابتعد عن التملق والاستجداء تزداد منزلته علواً، واقواله سيرورة . فخطا خطوة محمودة في تحويل الشعر عن الافراد الى المجموع، واصبح شاعر الشعب بعد ان كان شاعر الملوك .

ومن المجددين طبقة شخصية الإلهام تقتصر منزلتها على الفن دون سواه .

شوقي

(١٨٦٨ - ١٩٣٢ م و ١٢٨٥ - ١٣٥١ هـ .)

حياته . علومه . شاعر الامير . بعد الحرب . صفاته
واخلاقه . نظمه الشعر . آثاره . ميخته . التاريخ .
السياسة . الاجتماع . الدين . الوصف . الغزل . المدح .
الرشاء . الفخر . الحكمة والاحلاق . الشعر التعليمي .
شوقي والتمثيل : مصرع كليوباتره . مجنون ليلى . قبيز .
علي بك الكبير . اميرة الاندلس . عنزة . نظرة عامة
في مآسي شوقي . ما ادرك عليه . اسلوبه . منزلته .

حياته

هو احمد شوقي بك ، ابن علي بك ، ابن احمد شوقي بك . ينتهي نسبه الى الاكراد من جهة ابيه ، والى الاتراك من جهة امه . وفيه عرق من الكرجية بجده لاييه ، وعرق من اليونانية بجده لامه . ولد في القاهرة على عهد اسماعيل ، وكان ابوه مبدراً اتلف ما عنده ، فكفلته زمزار^(١) جدته لوالدته ، وهو في المهدي ، وكانت من وصائف دار الامارة .

علومه

دخل شوقي المدرسة منذ سنه الرابعة . ولما بلغ الخامسة عشرة طلب الحقوق مدة سنتين . ثم انشئ في مكتب الحقوق قسم للترجمة ، فانسلت فيه سنتين اخريين ونال الاجازة . ثم بعثه الخديوي توفيق الى فرنسا ليدرس الحقوق والاداب الفرنسية ، فسافر سنة ١٨٨٧ ، ودرس سنتين في مُنيليه ، وسنة في باريس ، واحرز اجازة الحقوق . ومكث بعدها ستة اشهر يتعرف بها باريس وحضارتها . ورحل في خلال سني دراساته الى فرنسا الجنوبية ، والى انكلترة والجزائر . وعاد الى مصر سنة ١٨٩١ . وكان يتقن ثلاث لغات : العربية والفرنسية والتركية .

شاعر الامير

وتعهده عباس برعايته كما تعهده توفيق من قبل ، فلما عقد مؤتمر المستشرقين في جنيف سنة ١٨٩٤ ، اوفده مندوباً عن مصر ، فلبث شهراً في سويسرة ، حتى اذا انفض المؤتمر ، برحها الى بلجيكة ، وشهد معرض انفرنس . ثم عاد الى مصر ، فجعله

(١) نزار هذه من اهل المورة سبأها ابراهيم باشا في حرب العثمانيين واليونان ، ثم اعتقها ، وازوجها محمد بك حلم احد رجاله الاتراك .

عباس شاعره الخاص، ورئيساً للقسم الفرنجي في حاشيته :

شاعِرُ الْعَزِيزِ وَمَا بِالْقَلِيلِ ذَا الْلَقَبِ

فكان له من النفوذ والدالة ما لفت اليه انظار ذوي الحاجات ، ولاسيما طلاب الرتب والادوية . فكان لا يرد طالباً، ولا يجيب في سؤال، فافاد بذلك ثروة حسنة . وتزوج وهو فتى في منتصف العقد الثالث ، فحملت اليه زوجته ثروة ضخمة عن أبيها فأصبح من كبار الموسرين . ورزق ثلاثة اولاد صبية وصبيين . ولما نشبت الحرب العامة ، خلعت انكلترة عباساً لاتصاله بالاتراك، وأبعدت شاعره عن مصر، فأم الاندلس، واتخذ برشلونة له سكناً .

بعد الحرب

عاد شوقي الى مصر في اواخر سنة ١٩١٩ . وقد تغير سكان قصر عابدين ، فابتعد عنه وفي النفس ما فيها من ذكريات العهد الماضي . فصرفها الى العمل المنتج، فنظم وألّف، ولم تفتر له همّة على كبر السن، وايدان الشمس بالغروب . وكان في كل صيف يقصد الاستانة، او بعض مصايف اوربة حتى سنة ١٩٢٥ فقصر اصطيفاه على لبنان .

وفي سنة ١٩٢٧ عقد مهرجان لتكريمه في دار الاوبرة الملكية . فجاءت وفود الادب من جميع الاقطار العربية ، وبايعته بامارة الشعر ، بعد ان بايعه بها كتاب الصحف المصرية يوم كان «شاعر الامير»، فزادوا للاتباع : «وامير الشعراء» . وعاش سنواته الاخيرة عيشة هادئة خصبة ، يتمتع بجاه عريض ، ومال وفر، واسرة نامية ، وشهرة طائرة . حتى توفاه الله في اليوم الثالث عشر من تشرين الاول سنة ١٩٣٢ . فانطوت امارة الشعر من بعده .

وتولت وزارة المعارف المصرية تنظيم حفلة الاربعة لتأبينه ، فدعت اليها البلاد العربية، فلبتها برسلها من اهل الشعر والخطابة، وكان يوم مشهود .

صفاء واهلوفه

كان ممتلياً الجسم فوق الرتبة، مستدير الرأس، محتلج العينين لاختلال اعصابهما.
 قليل الكلام في المجالس، كان به غفلة عما حوله .
 وكان شديد الاعتداد بشاعريته، مفاخرأ بها، يحب الثناء، ويضيق بالنقد .
 وكان يداري اصحاب الصحف، ويكثر من زيارتهم ليجملوا القول فيه .
 وابتسمت له الحياة، فضحك لها، واحبها، واستمتع بما فيها من هو وجمال
 وشباب . وكان حسن الايمان على غير تعصب، فاتسع صدره لجميع الاديان، ولكن
 دون ان تضعف عقيدته الاسلامية .
 وكان وطنياً مخلصاً لمصر، وشرقياً مفاخرأ بالشرق .

نظامه الشعر

بدأ الذوق الشعري يتولد في شوقي وهو حدث . ذكر احمد زكي باشا ان الشيخ
 محمداً البسيوني كان يعرض قصائده على تلميذه، قبل ان يرسلها الى دار الامارة .
 وكان شوقي بسداجة التلميذ الناشئ يشير عليه بمحو تلك الكلمة وتصحيح تلك
 القافية، وحذف هذا البيت، وتغيير ذاك الشطر، والاستاذ يعقبط بقوله، وينزل على
 رأيه . وتحدث البسيوني الى صاحب العرش بذلك . شوقي الصغير، وبراعته، فكانت
 هذه الشهادة من الاسباب التي حفزت توفيق الى تعهد شاعرنا بالدراسات العالية .
 وسألت مجلة الهلال شوقي : كيف بدأ النظم ؟ فقال : « نظمت الشعر وانا
 طفل، وكنت يومئذ اخطى واهدي، واتعثر ككل صاحب خيال طفل . ولكنني
 لم البث ان تعلمت العربية على استاذ نابغة هو المرحوم المرصني صاحب الوسيلة، حتى
 استقام لي ميزان الشعر بين العشرين والخامسة والعشرين، وعرفني الناس به في هذه
 السن . فحفظوا لي وغنوا :

مُضْنَى، وَلَيْسَ بِهِ جِرَاكُ، لَكِنْ يَخْفُ إِذَا رَأَى
 يَا حُسْنَهُ بَيْنَ الْحَسَانِ، فِي شَكْلِهِ إِنْ قِيلَ بَانَ

والآيات السائرة :

خَدَعُوها بِقَوْلِهِمْ حَسَنًا ، وَالنَّوَارِي يَغْرُهُنَّ الشَّاه

والآيات التي اقول منها :

صُورِي جَمَالَكَ عَنَّا إِنَّنَا بَشْرُهُ ، مِنَ التَّرَابِ ، وَهَذَا الْخُسْنُ رُوحَانِي . اهـ

وكان ينظم الشعر في كل مكان وزمان، جالساً او ماشياً، وحده او مع الناس، واشد ما يكون ارتياحاً الى النظم بعد منتصف الليل . ذكر كاتبه احمد عبد الوهاب انه اذا حاول الشعر اخذ ير راحته اليسرى على رأسه، وينظر الى خاتمه .

وتحدث خليل مطران عنه قال : « لا يعرف جليسه انه ينظم الا اذا سمع منه بادى ذي بدء، غممة . ثم رأى ناظريه، وقد برقا، وتواترت فيهما حركة المحجرين . ثم بصر به وقد رفع يده الى جبينه، وامرها عليه امراراً خفيفاً هنيئة بعد هنيئة » . وروى كاتبه انه اذا ضاق عليه الوقت، واضطر الى صنع قصيدة ، تناول مُحّ ثلاث من البيض النيء، وشرع في النظم .

وكان سريع الخاطر ، ربما اتم القصيدة في ساعة . قال محمد كرد علي : « من جميل بديته المطواعة ، ما شهدته منه ليلة تكريمه في المجمع العالمي العربي، فقد نظم قصيدة ثم ابطالها لانه ما ارتضاها ، ونظم في الحال غيرها بمجلس من اصحابه » اهـ وتحدث كاتبه انه نظم قصيدة النيل في ليلة واحدة، وهي تربي على خمسين بيتاً ومائة . وكان قوي الذاكرة، يحفظ شعره، ولا يئليه على كاتبه الا جملة آيات غير ناس شيئاً منها .

آثاره

لم يقيم عند العرب شاعر اكثر انتاجاً من شوقي، فقد انتظم له ديوان مطبوع، في الثلاثين من عمره، ومات وهو على اشد ما يكون نشاطاً الى العمل، فكانت اواخر سنه، اخصب ايام حياته . ولم تقتصر آثاره على الشعر، وإنما تجاوزته الى النثر، وقد طبع معظمها، وبقي اقلها لم يطبع .

فاما الذي طبع من الشعر، فالجزء الاول من الشوقيات . وهو ما اشتمل على منظومه في القرن التاسع عشر « ١٨٨٨ - ١٨٩٨ م » . صدره بتقدمة في الشعر والشعراء، وترجمة حاله . وافتتحه بمدحتين لعبد الحميد الثاني، وعباس بن توفيق . وجعله على سبعة ابواب : فالاول الادب والتاريخ، والثاني الوصف، والثالث المديح، والرابع المراثي، والخامس الحكايات، والسادس الخصوصيات . وهذا الباب خليط من خصوصيات الشاعر، واشياء غير خصوصية، كمدحته في حرب بني عثمان واليونان، ووصف البسفور، والقمر وسوى ذلك . ويظهر ان شوقي بعد ان طبع الابواب الاولى، وانتهى الى الباب الاخير جهزت لديه قصائد جديدة فادخلها فيه، وان لم تكن منه . فأخل في ترتيب الديوان، وخالف ما حمل عليه نفسه في المقدمة^(١) .

ووعده في المقدمة بان ينشر في آخر كل عام هجري ما يحصل عنده من منظوم ومنثور، ولكنه لم يفعل . بل اهمل طبع شعره الى ما بعد الحرب العامة، فنشر سنة ١٩٢٥ الجزء الاول من الشوقيات، على ورق صقيل، مشكول الحروف، مشروح الغريب، مفسر المعاني، مصدر بمقدمة للدكتور محمد حسين هيكل، حلل بها شاعرية صاحب الديوان . وهذا الجزء يختلف عن الذي طبع في شبابه بانه خلو من المدائح والمراثي، والانشيد والحكايات . مخصوص بالسياسة والتاريخ والاجتماع . لم يدخل

(١) ذكر في مقدمة شوقياته انه ارجأ الشعر الذي عثر عليه او نظمه، بعد تنسيق

الابواب، وطبعها، الى الجزء الثاني، لتلا يخل في ترتيبها .

فيه من الديوان القديم إلا ما تلائم مع هذه الأغراض، كهمزيته في مؤتمر المستشرقين، وملحنته في الحرب العثمانية اليونانية .

ونشر الجزء الثاني سنة ١٩٣٠، وهو كسابقه في الطبع والاتقان إلا أنه دونه في الشرح والتفسير . مقسوم إلى ابواب أولها الوصف، والثاني النسب، والثالث متفرقات في الوصف والتاريخ والسياسة والاجتماع . وفيه قصائد كثيرة نشرت في الديوان القديم .

وطبع من القصص التمثيلية مصرع كليوباترة سنة ١٩٢٩، ومجنون ليلي وقبيل سنة ١٩٣١، وعلي بك الكبير وعنزة سنة ١٩٣٢ .

ونشر له بعد موته كتاب دول العرب وعطاء الاسلام سنة ١٩٣٣، ومعظمه أراجيز مزدوجات التزم فيها من القوافي ما لا يلزم . تبحث في تاريخ الاسلام وعظائمه، منذ عهد النبوة إلى زمن الفاطميين . ونشر الجزء الثالث من الشوقيات سنة ١٩٣٦، وهو مخصوص بالمرائي .

وأما الذي طبع من النثر، فأميرة الاندلس سنة ١٩٣٢، قصة تمثيلية . واسواق الذهب^(١) سنة ١٩٣٢، مقالات اجتماعية، أكثرها مسجع بادي التكلف .

(١) استوحى شوقي هذا الاسم من اطواق الذهب للزخري، واطباق الذهب للأصفهاني .

مبزة

وقف شوقي من الشعر وقفة المستطيل على فنونه، المتصرف في اغراضه وشؤونه،
الضارب في سهوله وحزونه . وأوتي شاعرية خصبة ، يدها اصول اربعة ينتمي اليها،
وترفدها نخيلة قوية، دعمت بالعلم، وغذيت بالاسفار . ويحفزها طموح شديد الى بلوغ
اعلى ذروة في القريض ، يجدد بها عهد المتنبي عند سيف الدولة ، والبحري عند
المتوكل، والبي تاقم عند المعتصم . ويجازي من شعراء الفرنجة فيكتور هينغو في السياسة
الوطنية ، والتاريخ واسباطير القرون . ولافتنين في الحكايات الخرافية . وكُرناي في
المآسي التمثيلية . فإلى هؤلاء الشعراء خصوصاً ، والى أمثالهم عموماً كان ينظر طامعاً
في محاكاتهم، والارتفاع الى منازلهم . فتلمذ لهم ، واستقى من بحورهم . ثم انبرى
يجاريهم، ويعارضهم، وينافسهم . فكان له منهم عناصر قوية مختلفة اختلطت اختلاطاً
عجيباً، فاخرجت شخصية مركبة تذكر دائماً بغيرها، وان يكن لها طابع لا يخفى
في شتى طرقه، والفاظه وتعاييره . وهذا ما نعى باظهاره في دراستنا لاغراض الشاعر .

التاريخ

اولع شوقي بالتاريخ منذ عهده الاول بالنظم فتوفر عليه، وبرع فيه . وعني على الاخص بتاريخ الاسلام، وتاريخ مصر . فكان له منها اداة صالحة لاغراضه الشعرية . وتتبع الحوادث الجارية في عصره، فدونها في منظوماته السياسية والاجتماعية؛ فانتظم له منها قصائد مشهورة في الوطنيات والخلقيات .

وكان التاريخ القديم والمعاصر ذلك الينبوع الثر الذي استسقاها شاعرنا على ظمها، فتدفق له بالخصب الخير من شعره . فاتخذة عبرة وذكرى للمصريين والمسلمين، يذكرهم باجداد اسلافهم، ويحض الهمم القاعدة على النهوض، بوصف ما كان لدولهم من فتوح، وعظمة، وازدهار . ويروض به اطفالهم على البأس، وطلب المجد المفقود :
 وَيَرُوي الْوَقَائِعَ فِي شِعْرِهِ ، يَرُوضُ عَلَى الْبَأْسِ اَطْفَالَهَا

وقد تطول قصائده التاريخية، فأحياناً يوفق فيها، فيخرج منها شعراً قصصياً رائعاً كهزيبته التي قدمها الى مؤتمر المستشرقين في جنيف، وبائنته في وصف الوقائع العثمانية اليونانية، وقصيدة النيل، وقصيدة ابي الهول . وحياناً تحونه الروعة الادبية، فيقتصر على سرد الحوادث كأنه مؤرخ لا شاعر . وهذا ما يصطبغ به اكثر شعره في كتاب دول العرب وعظما الاسلام .

واجمل حلية يتلألأ بها هذا الشعر، عاطفة الدين، وعاطفة الوطن فان شوقي يكاد يتلظى حمية، واندفاعاً في ذكر عز مصر، وحضارتها القديمة . وذكر انتصارات المسلمين، واتساع ممالكهم . ويكاد يتفطر حزناً ولوعة في وصف ما نزل بمصر والبلاد الاسلامية، من النكبات والارزاء . وسيان عنده مصر الفرعونية، او مصر الاسلامية، وبقاع يعمرها العرب، او بقاع يعمرها الاتراك .

واذا خلا شعره من الحوادث، فما يخلو من الاشارات التاريخية، فانها مبشوة في شتى منظوماته . وفيها الجميل المستملح، وفيها المتكلف المبتذل، للافراط في تكراره .

السياسة

تقلب شوقي في احضان السياسة المتقلبة مع المكان والزمان، فجاء شعره وفيه صور متناقضة، لوجوه السياسة المتناقضة . فقد كان شاعر القصر في زمن عباس، فنطق بسياسة القصر، وأيد صاحب العرش . وكان اللورد كرومر عميد انكلترا قد بسط نفوذه على مصر حتى اصبح لا يصدر امر الا عن امره . فطبيعي ان يتذمر الخديوي على هذا النفوذ، وان يتذمر شاعره معه، فيحمل على العميد طاعناً فيه، مندداً باعماله، مقبلاً سياسة من يتودد اليه، فعله برياض باشا^(١) بعد خطبته التي فاه بها في المدرسة الصناعية سنة ١٩٠٤، متملقاً للورد، كافرأ نعمة مصر واصحاب عرشها . فقد آنبه شوقي تانياً اليماء، واتهمه بالخيانة، مشبهاً اياه بعرايي . وعرايي في نظر شوقي خائن، لانه ثار على ولي نعمته توفيق، واعقب بثورته احتلال الانكليز . قال منها :

خَطَبْتَ فَكُنْتَ خَطْبًا، لَا خَطِيبًا، اُضِيفَ إِلَى مَصَائِنَا الْعِظَامِ
لَهَجْتَ بِالْإِحْتِلَالِ وَمَا آتَاهُ، وَجُرْحِكَ مِنْهُ، لَوْ أَحْسَنْتَ، دَامِ
وَمَا أَغْنَاهُ عَمَّنْ قَالَ فِيهِ، وَمَا أَغْنَاكَ عَنِ هَذَا التَّرَامِي
أَحَبَّتْكَ الْبِلَادُ طَوِيلَ دَهْرٍ، وَذَا تَمَنُّ الْوَلَاءِ وَالْإِحْتِرَامِ ؟

ويجتمها :

أَفِي السَّبْعِينَ، وَالْدُنْيَا تَوَلَّتْ، وَلَا يُرْجَى سِوَى حُسْنِ الْخِتَامِ،
تَكُونُ، وَأَنْتَ أَنْتَ رِيَاضُ مِصْرٍ، عَرَايِي الْيَوْمَ فِي نَظَرِ الْأَنَامِ.

وتقضي السياسة الانكليزية بجلع اللورد كرومر عن منصبه سنة ١٩٠٧، فيقيم له رئيس الوزارة مصطفى باشا فهمي حفلة وداع في ملعب الاوبرة . ويودعه بخطبة

(١) رياض باشا تغلب في الوزارات المصرية من عهد اسماعيل الى عهد عباس . وكان

رئيس الوزارة في بدء الثورة العرابية ، ثم في زمن عباس سنة ١٨٩٣ .

لطيفة مثيلاً عليه . ويخطب اللورد بعده فيندد بالخدوي اسماعيل ، ويحاشن الامة المصرية . وكان الامير حسين كامل حاضراً (السلطان حسين فيما بعد) فسمع شتم والده بأذنيه ، ولم ينبس ببنت شفة . فغضب شوقي غضبة شريفة ، ونظم قصيدة جميلة ، هاجم بها اللورد وحكومته ، ولم يعف عن الامير حسين . وانما هو ينطق بلسان صاحب العرش . قال في اولها والخطاب للورد :

أَيَامُكُمْ أَمْ عَهْدُ إِسْمَاعِيلَا ، أَمْ أَنْتَ فِرْعَوْنُ يَسُوسُ أَلْيَلَا ؟
 أَمْ حَاكِمٌ فِي أَرْضٍ مِضْرَ بِأَمْرِهِ ، لَا سَائِلَا أَبَدَا ، وَلَا مَسْرُؤَلَا ؟
 يَا مَالِكَا رِقِّ الرِّقَابِ بِبَاسِهِ ، هَلَّا اتَّخَذْتَ إِلَى الْقُلُوبِ سَيْلَا !
 لَمَّا رَحَلْتَ عَنِ الْبِلَادِ تَشَهَّدْتَ ، فَكَأَنَّكَ أَلْدَاءُ أَعْيَاءِ رَجِيَلَا
 أَوْسَعْتَنَا يَوْمَ الْوَدَاعِ إِهَانَةً ، أَدَبٌ ، أَعْمَرُكَ ، لَا يُصِيبُ مَثِيلَا
 هَلَّا بَدَا لَكَ أَنْ تُجَامِلَ بَعْدَمَا ، صَاغَ الرَّئِيسُ لَكَ الْثَنَّا إِكْلِيلَا
 أَنْظُرْ إِلَى أَدَبِ الرَّئِيسِ وَلُطْفِهِ ، تَجِدِ الرَّئِيسَ مُهَذَّبَا ، وَنَبِيلَا

.....

فِي مَلَبٍ لِلْمُضْحِكَاتِ مُشِيدٍ ، مَثَلَتْ فِيهِ الْمُبَكِّيَاتِ فُضُولَا (١)
 شَهَدَ الْخَمِينَ عَلَيْهِ أَعْنِ أَصُولِهِ ، وَتَصَدَّرَ الْأَعْمَى بِهِ تَطْفِيلَا (٢)
 جُبْنٌ أَقْلٌ ، وَحَطٌّ مِنْ قَدْرِيهَا ، وَاللَّوْءُ إِنْ يَجْبُنُ ، يَعِشُ مَرْدُؤَلَا
 لَمَّا ذَكَّرْتَ بِهِ الْبِلَادَ وَأَهْلَهَا ، مَثَلْتَ دَوْرَ مَمَاتِهَا تَمِيلَا (٣)

ومنها :

أَلْيَوْمَ أَخَافَتْ الْعُهُودَ حُكُومَةً ، كُنَّا نَنْظُنُّ عُهُودَهَا الْأَنْجِيلَا
 دَخَلَتْ عَلَى حُكْمِ الْوَدَادِ وَشُرْعِهِ ، وَحُضْرًا ، فَكَانَتْ كَالسَّلَالِ دُخُولَا

(١) ملعب للمضحكات : اي دار الاوبرة . (٢) الاعمى : الشيخ عبد الكريم سلمان ، من المتوردين للانكيز المتردين على الصحف التي تؤيد سياستهم . وكان قد ضعف بصره ، وكاد يكف . (٣) به : اي بالملعب

هَدَمَتْ مَعَالِمَهَا ، وَهَدَّتْ رُكْنَهَا ، وَأَضَاعَتْ أَسْتِثْلَاهَا الْمَأْمُولًا^(١)

وازيل التاج عن مفرق عباس في الحرب العامة ، وزين به جبين حسين كامل .

فهنا شوقي ، وبإيعه على الوفاء ، لانه لا يخون اسماعيل في ابنائه :

أَخُونُ إِسْمَاعِيلَ فِي أُنْسَانِهِ ؟ وَلَقَدْ وُلِدْتُ بِبَابِ إِسْمَاعِيلَا

ومدح الانكليز الذين حافظوا على عرش مصر في برهة تنناثر بها العروش .

وكان يخشى ثله ، بعد ان لاذ عباس بالاتراك ، وبسطت انكلترة حمايتها على البلاد :

وَتَدَارَكَ الْبَارِي لِوَاءِ مُحَمَّدٍ ، فَرَعَى لَهُ غُرًّا ، وَصَانَ حُجُولًا^(٢)

فِي بُرْهَةِ يَذُرُ الْأَيْسِرَةَ نَحْسَهَا ، مِثْلَ النُّجُومِ ، طَوَالِهَا ، وَأَفْوَلًا^(٣)

اللَّهُ أَدْرَكَهُ بِكُمْ ، وَبِأَمَةٍ ، كَالْمُسْلِمِينَ الْأَوَّابِينَ عُقُولًا^(٤)

حَلَفَاؤُنَا الْأَحْرَارُ إِلَّا أَنَّهُمْ أَرْقَى الشُّعُوبِ عَوَاطِفًا وَمُيُولًا

لَمَّا خَلَا وَجْهُ الْبِلَادِ لِسَيْفِهِمْ ، سَارُوا سِمَاحًا فِي الْبِلَادِ ، عُذُولًا

وَأَتَوْا بَيْكَايِرَهَا ، وَشَيْخَ مُلُوكِهَا ، مَلِكًا عَلَيْهَا ، صَالِحًا ، مَأْمُولًا

ومن غرائب الاتفاق ان تكون هذه القصيدة في بجرها ورواها ، كالقصيدة التي

حمل بها على اللورد كرومر ، وندد بسياسة حكومته ، وهجا حسين كامل ذاك الذي

شهد لعن اصوله ، وسكت صابراً على الاذى . وهنا نفسية شوقي معقدة لا تنجلي

صريحة . فانه يحب الاتراك ، ولا يسره ان تذهب سيادتهم عن مصر ، ولكنه ساخط

عليهم ، لاصطلائهم حرباً خسروا بها باقي تلك السيادة :

أَقْوَمُ حِينَ دَهَا الْقَضَاءُ عُقُولَهُمْ ، كَسَرُوا بِأَيْدِيهِمْ لِمِصْرَ غُلُولًا^(٥)

هَدَمُوا بَوَادِي النَّيْلِ رُكْنَ سِيَادَةٍ ، أَنَّهُمْ كَرُّنَ الْعَنْكَبُوتِ ضَيْلًا

(١) المعالم جمع معلّم : موضع الشيء الذي يظن فيه وجوده ويريد بها معالم حضارتها .

(٢) يريد بالغرور والحجول ، الایام المشهورة ، والغزوات المظفرة . (٣) الايسرة :

العروش . الافول : جمع آفل . (٤) بكم : الخطاب للسلطان حسين كامل . وبامة :

اي انكلترة . (٥) القوم : اي العثمانيون .

ومحب عباساً، ويؤثره على حسين، ولكنه لا يرى بدءاً من اظهار الرضى بعد ان انقطع ما بين عباس والعرش . واصبح من خير مصر، ان يحفظ تجها امير من ابنا. اسماعيل، ولو كان الحسين الذي هجاء، لتعود به السلطة الشرعية التي اغتصبها عميد الانكليز واستأثر بها برهة من الدهر .

هَلْ كَانَ ذَلِكَ الْعَهْدُ إِلَّا مَوْقِفًا ، لِلْسُلْطَتَيْنِ ، وَلِلْبِلَادِ وَيَمِيلًا^(١)
يَعْتَزُّ كُلُّ ذَلِيلٍ أَقْوَامٍ بِهِ ، وَعَزِيزُكُمْ يُلْقِي الْقِيَادَ ذَلِيلًا^(٢)

وكان عباس ميلاً الى العثمانيين، متودداً صاحب الخلافة، ساعياً في اجلاء، انكلترا عن مصر . فكان شوقي يفعل فعل سيده، مجارياً سياسة العرش من جهة، وعاطفته التركية من اخرى وهو بين السياسة والعاطفة، يفاخر بالاتراك، ويؤثرهم في قرارة نفسه على العرب، وان كان بيانه عربياً . ويرى ان الخلافة لا تصلح الا لهم . وان عصر عبد الحميد الثاني اسعد العصور على الشعب، عصر الرحمة والعدل والخير، فيظعن على الذين يعيبونه، والذين يشورون على صاحب السلطان .

وتدور الايام على عبد الحميد فيسقط عن سريره، ويستخلف اخوه محمد رشاد . فيودعه شوقي بقصيدة حسنة، ويلومه في شي . من الألم لانه ضن بالدستور :

أُذِيتَ مِنْ دُسْتُورِهِمْ ، وَحَدَّثْتَ لِلْحُكْمِ الْعَبِيرِ

ثم يبايع الخليفة الجديد ويمدحه، ويمدح ابطال الدستور الذين خلعوا عبد الحميد، ولا يجد في ذلك حرجاً ما دام السلطان للاتراك والخلافة فيهم .

الا ان حال شوقي تبدلت بعد الحرب، فلا هو اتصل بالقصر، ولا هو شاعر الامير، فاصبح في سياسته الصق بالشعب، واقرب الى القاوب، وان لم يفعل عن مدح صاحب العرش وتأبيده، وهو الوفي لابناء اسماعيل . ولكن هذا المدح كان يأتي عرضاً لا غاية؛ يستطرد اليه الشاعر في بسطه خادث سياسي او اجتماعي يشغل مصر،

(١) ذلك العهد : اي عهد الحكم في مصر قبل تولية السلطان حسين . السلطانان : اي السلطة الشرعية لصاحب العرش، والسلطة العملية التي اغتصبها عميد انكلترا . (٢) عزيزكم : الخطاب لاهل مصر .

فيثني على الملك بعمل حميد أتاه، او يحضه على عمل صالح يريد ان يأتيه . وانما يجعل همه في الدفاع عن مصر، واستقلالها، وحريتها . ولا تأخذه هوراة في الحلة على الانكليز، والتنديد باعمالهم، وتقبيح تصرفهم في البلاد .

واذا رأى في الامة شقاقا وخلافاً، ثار ثائره، وهب يدعو الاحزاب الى الوثام، وترك الشغناء، خشاة ان يستغل الغريب خصامهم . ولم يكن ينتسب الى حزب سياسي، بل كان يضع حرية مصر واستقلالها فوق الاحزاب . فاليك كيف يؤنب المصريين على تخاذلهم، وانقسامهم :

إِلَامَ الْخُلْفُ بَيْنَكُمْ إِلَّا مَا ؟ وَهَذِي الضَّجَّةُ الْكُبْرَى عَلَامًا ؟
وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ، وَتُبْدُونَ الْعِدَاةَ ، وَالْإِخْصَامَا ؟
وَأَيْنَ الْقُوْرُ ؟ لَا مِصْرُ اسْتَقَرَّتْ عَلَى حَالٍ ، وَلَا السُّودَانُ دَامَا ا

ومنها يصف حالة مصر، والدولة المحتلة :

تَبَاغَيْتُمْ كَأَنَّكُمْ خَلَايَا مِنْ السَّرَطَانِ ، لَا تَجِدُ الضَّمَامَا
أَرَى طَيَّارَهُمْ أَوْفَى عَلَيْنَا ، وَحَلَقَ فَوْقَ أُرْوِسِنَا ، وَحَامَا
وَأَنْظُرُ جَيْشَهُمْ بِنِيفِ قَرْنٍ ، عَلَى أَمْصَارِنَا ضَرْبَ الْخِيَامَا
فَلَا أُمْنَاوْنَا نَقْصُوهُ رُمْحَا ، وَلَا خُوَانُنَا زَادُوا حُسَامَا
وَنُلْفِي الْجَوَّ صَاعِمَةً ، وَرَعْدَا ، إِذَا قَصْرُ الدُّبَارَةِ ، فِيهِ غَامَا^(١)
إِذَا أَنْفَجَرَتْ عَلَيْنَا الْخَيْلُ مِنْهُ ، رَكِبْنَا الصَّمْتَ ، أَوْ قُدْنَا الْكَلَامَا
فَأَبْنَا بِالتَّخَاذُلِ ، وَالتَّلَاحِي ، وَآبَ بِنَا أَبْتَعَى مِنَّا وَرَامَا^(٢)

ولم يطلق شوقي السياسة التركية، وان انقطعت علاقة الاتراك بمصر . بل ظل يراقب سير الحوادث عندهم، ويعنى بها، مدفوعاً بعاطفة الحب والوشيجة، والدين . فقرأه يحمل على الخليفة وحيد الدين، لاعتماده على الانكليز، ويمدح مصطفى كمال،

(١) قصر الدوبارة : مقر العميد الانكليزي في مصر . (٢) التلاحي : التلائم

والتلاوم . وآب : الضمير يعود على قصر الدوبارة .

ويهنئه بانتصاره على اليونان . ثم تلغى الخلافة فيتألم لالغائها، ويعاتب الغازي في رفق وحزن ، لمحوه اياها، وهي « ملاة فخر الاتراك . » ويحشى ان تعود الى العرب، ويتولاها الحسين بن علي ، فيظعن في الحسين العاجز، الذي مديده في الحرب الى موالة الاعداء . ويدعو المسلمين الى الاعراض عن مبايعته .

ثم لا يلبث مصطفى كمال ان يرفع دعائم الجمهورية، على انقاض الخلافة . فيبتهج شوقي ابتهاجه بكل شي . يعلي شأن الاتراك والمسلمين . فيمدح الجمهورية، ويذم حكم الفرد ، الا انه لم ينس الخلافة بل ظل يرجو عودتها الى الترك ، وأن تكون شورى بينهم شأنها في فجر الاسلام :

عُودِي إِلَى مَا كُنْتُ فِي فَجْرِ الْهُدَى ، عَمْرُ يُسُوسُكَ ، وَالْعَتِيقُ يَلِيكَ^(١)

ومهما تعقدت سياسة شوقي، وتناقضت، وتباينت . فانه ثابت على امور لا يتخلى عنها . اولها استقلال مصر ، وان يكون الملك دستورياً في ابناء اسماعيل . وثانيها عودة الخلافة الى الاتراك لان فيها عزهم وعز الاسلام . ولا بأس عنده ان تجعل شورى كما كانت في عهد الخلفاء الراشدين .

(١) العتيق : لقب ابي بكر الصديق .

الاجتماع

شعر الاجتماع ممتزج عند شوقي بشعره السياسي والتاريخي . فرب قصيدة اجتماعية اشتملت على الآراء السياسية، والحوادث التاريخية معاً . لذلك افرد لهذه الانواع الثلاثة باباً واحداً في ديوانه .

وكانت اجتماعياته في اول امره تتصل بالشعر التعليمي الخاص، كاناشيد الاحداث، والحكايات الخرافية على السن الحيوان . ثم ارتفع بها الى الاغراض العامة، وادمج فيها السياسة والتاريخ لاعتقاد هذه الانواع بعضها على بعض . وكان وهو شاعر القصر لا يتعدى بها سياسة البلاط، وتقاليد . فاذا عرض لقضية السفور والحجاب، جارى المحافظين في رأيهم بحجاب المرأة . لان شاعر الامير لا يجمل به ان ينادي بالسفور، وإن يكن هواه فيه، وهو الذي شهد حضارة باريس، وثقف ثقافة غربية، راقية . ومما لا ريب فيه ان عقيدة الحجاب غير متمكنة من نفس الشاعر، وان حافظ على تقاليدها في اسرته . فقد نظم قصيدة « صداح » ورمز عن المرأة بببليل جميل يكرم في قفصه، ولا يطلق سراحه لئلا يطير، فيهون على الصيادين . ورأى العيد في الاستانة، سوافر على ضفاف كوك صو يغتسلن، فانكر الحجاب، ونسي انه شاعر الامير :

فَقُلْ لِلْجَانِحِينَ إِلَى حِجَابٍ ، أَتُحَجَّبُ عَنْ صَنِيعِ اللَّهِ نَفْسُ ؟
إِذَا لَمْ يَسْتُرِ الْأَدَبُ الْقَوَائِي ، فَلَا يُغْنِي الْحَرِيرُ ، وَلَا الدِّمَشْقُ

بيد انه لم يجرؤ على المجاهرة برفع الحجاب، الا بعد ان ابتعد عن القصر، وتحرر من سياسته، وتقاليد . فنقض قصيدة صداح، واخذ برأي قاسم امين^(١) ونادى بحرية الاناث . ودونك بعض ما يقول في صداح ثم في نقيضتها :

(١) هو زعيم المنادين بتحرير المرأة المسلمة، في كتايبه تحرير المرأة، والمرأة الجديدة؛ توفي في مصر سنة ١٩٠٨ .

بِالرَّغْمِ مِنِّي مَا تُعَا لِحُ فِي النُّحَاسِ الْمُثْقَلِ
حِرْصِي عَلَيْكَ هَوَى ، وَمَنْ يُحْرِزُ ثَمِينًا ، يَبْخُلُ
ومنها يحكم بالحجاب وطبيعته :

أَنْتَ ابْنُ رَأْيٍ لِلطَّيِّبِ مَعَهُ فِيكَ غَيْرُ مُبَدَّلِ
أَبَدًا مَرُوعٌ بِالإِسَاءِ رِ ، مُهَدَّدٌ بِأَلْمِثْلِ
إِنْ طَرَتْ عَن كُنْفِي وَقَعَتْ عَلَى النُّسُورِ الْجَهْلِ

وقال في نقيضتها :

قُلْ لِلرِّجَالِ طَعَى الأَسِيرِ ، طَيْرُ الْجِبَالِ مَتَى يَطِيرُ ؟ (١)
أَوْهَى جَنَاحِيهِ الأَحْدِيدِ دُ ، وَحَزَّ سَاقِيهِ الأَحْرِيرِ
ذَهَبَ الأَجْبَابُ بِصَبْرِهِ ، وَأَطَالَ حَايِرَتَهُ الأَسْفُورِ

ومنها :

إِنَّ السَّمَاءَ جَدِيرَةٌ بِالأَطِيرِ ، وَهُوَ بِهَا جَدِيرٌ

وشوقي على الحاليين، يرى تعليم المرأة ورقبها، ويأبى لها الجهل والحمول :

وَإِذَا الأَنْسَاءُ نَشَأْنَ فِي أُمِّيَّةٍ ، رَضَعَ الرِّجَالُ جَهَالَةَ وَخُمُولًا

وينكر بيعها بالدينار لرجل لا يستحقها . واكره شيء إليه ترويج الفتيات

بالشيخ :

أَمَّا حَلَلٌ كُلُّ غَيْرِ مُحَلَّلٍ ، حَتَّى زَوَاجَ الشَّيْبِ بِالأَبْكَارِ
مَا زَوَّجَتْ تِلْكَ الأَفْتَاةُ وَإِنَّمَا بَيْعَ الأَصْبَا والأُخْمَنِ بِالأَدِينَارِ

ولم يقتصر تطور شعره على المرأة وحدها بعد تركه البلاط ، بل تجاوز الى

الاعراض الاجتماعية الطليقة من سياسة الخلافة، والعرش المصري . الى الشعر الذي لا

تقف دونه الحدود والامصار، الشعر الذي جعل من صاحبه شاعر الشعب لا شاعر

الامير، وشاعر الشرق الاسلامي، لا شاعر مصر وحدها :

(١) الحجال جمع حَجَلَة : خدر المرأة .

كَانَ شِعْرِي الْغِنَاءَ فِي فَرْحِ الشَّرْقِ ، وَكَانَ الْغَزَاءُ فِي أَحْزَانِهِ
ويجمع معائب الشرق فيجعلها واحدة :

وَنَحْنُ فِي الشَّرْقِ وَالْفُضَيْعَى بِنُورِ حِمِّهِ ، وَنَحْنُ فِي الْجُرْحِ وَالْأَلَامِ إِخْوَانُ
وهذا البيت من قصيدة رائعة عارض بها نونية ابي البقاء الرندي ، ونقشها في
دمشق زفرة حارة على المسجد الاموي ، وعز بنو امية البائد . قال منها :

بَنُو أُمِيَّةٍ لِلْأَنْبَاءِ مَا فَتَحُوا ، وَلِلْأَحَادِيثِ مَا سَادُوا ، وَمَا دَانُوا
كَانُوا مَلُوكًا ، سَرِيرُ الشَّرْقِ تَحْتَهُمْ ، فَهَلْ سَأَلْتَ سَرِيرَ الْغَرْبِ : مَا كَانُوا ؟
عَالِينَ كَالشَّمْسِ فِي أَطْرَافِ دَوْلَتِهَا ، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ، مُلْكٌ وَسُلْطَانُ
بِالْأَمْسِ قُمْتُ عَلَى الزَّهْرَاءِ أَنْدَبُهُمْ ، وَالْيَوْمَ دَمَعِي ، عَلَى الْفَيْحَاءِ ، هَتَانُ^(١)
مَعَادِينُ الْعِزِّ قَدْ مَالَ الرَّغَامُ بِهِمْ ، لَوْ هَانَ فِي تَرْبِهِ الْأَبْرِيُّ مَا هَانُوا
مَرَرْتُ بِالْمَسْجِدِ الْمُحْزُونِ أَسْأَلُهُ : « هَلْ فِي الْمَصَلِيِّ ، أَوِ الْبَحْرَابِيِّ ، مَرْوَانُ ؟ »
تَغَيَّرَ الْمَسْجِدُ الْمُحْزُونُ ، وَأَخْتَلَفَتْ ، عَلَى الْمَنَابِرِ ، أَحْرَارٌ ، وَعِبْدَانُ
فَلَا الْأَذَانَ أَذَانٌ فِي مَسَارَتِهِ ، إِذَا تَعَالَى ، وَلَا الْأَذَانَ آذَانُ

وله قافية بديعة نظمها لما نكبت دمشق في الثورة الدرزية السورية على عهد
الجنرال ساراي القائد الفرنسي وفيها عتاب لطيف لفرنسة التي أجهبا ، وطالما اشاد
بذكرها لتثقفه فيها . قال منها والخطاب لدمشق :

رَمَاكَ بِطَيْبِهِ ، وَرَمَى فَرَنْسَا ، أَنْوَ حَرْبٍ ، بِهِ صَلَفٌ وَحُمُقُ
إِذَا مَا جَاءَهُ طُلَّابُ حَقِّ ، يَقُولُ : عِصَابَةٌ خَرَجُوا وَشَقُّوا
دَمُ الثَّوَارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا ، وَتَعْلَمُ أَنَّهُ نُورٌ وَحَقُّ
جَرَى فِي أَرْضِهَا ، فِيهِ حَيَاةٌ ، كَمَنْهَلِ السَّمَاءِ ، وَفِيهِ رِزْقُ
بِلَادٍ مَاتَ فِتْنَتُهَا لِتَجِيَا ، وَزَالُوا دُونَ قَوْمِهِمْ لِيَسْقُوا

(١) الزهراء : قصر للمعتمد بن عباد على نحر اشيلية . ومدينة قرب قرطبة ، بناها
عبد الرحمن الثالث الخليفة الاموي .

وَحَرَرَتِ الشُّعُوبُ عَلَى قَنَاقِهَا ، فَكَيْفَ عَلَى قَنَاقِهَا تُسْتَرَقُّ !

ومنها هذا البيت العائر :

وَالْحُرِّيَّةِ الْعَمْرَاءُ بَابٌ ، بِكُلِّ يَدٍ مُضْرَجَةٍ يُدَقُّ

ومن قصائده الاجتماعية السامية مملكة « النحل » وفيها يدعو الى العمل والاستقلال الذاتي، بأسلوب رمزي جميل يصف به دولة النحل وما هي عليه من نظام وتديير وبعد نظر . وكذلك قصيدته مصاير الايام في وصف حياة الانسان منذ عهده بالمدرسة الى يوم يشيب، ويطويه الدهر، وهي من خير شعره .

على ان شغفه بالاجتماعيات ، كلفه ان يتناول كل دقيقة وجليلة منها . فرويت له قصائد باردة، ضعيفة الروح الشعري، كقصيدة ايها العمال، وقصيدة الصحافة، وسواهما .

الدين

لم يكن شوقي من المتعبدين القانتين ، الذين يصرفون النفس عن متع الحياة وملاذها ، ولا يجدون مشقة في النشبت باحكام الدين وفروضه ، واتباع اوامره ، ونواهيه . بل ابتلي بالمعاصي كما ابتلي غيره من الشعراء ، وشرب الخمر ونها وعبث . وقعدت همته عن الحج الى البيت الحرام عندما دعاه الخديوي عباس الى مرافقته ، فاعتذر ساكياً تعب الرحلة ، وبعد الشقة ، في حين لم يضق باسفاره العديدة الى الاستانة ، ومدائن اوربة .

على انه لم يكن مغموز العقيدة ، فاتر الايمان ، وانما هو من اولئك النفوس الذين عظمت ثقتهم بعفو الله ، فلم يجرموا النفس شهواتها ، ولا اخرجوها باتباع الشرائع ، واقامة احكامها :

إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْقُرْآنِ لِي أَمَلٌ فِي اللَّهِ يَجْعَلُنِي فِي خَيْرٍ مُعْتَصِمٍ
 وكان للدين اثر قوي في شعره ، اصطبغت به شتى قصائده ، بله القصائد التي خصها بهذا الغرض ، كنهج البردة ، والهمزية النبوية^(١) في مدح محمد ، وذكر سيرته . فقصيدته التي قالها في مؤتمر المستشرقين هي تريخ لديانات المصريين القدماء ، وللاديان الثلاثة التي جاء بها موسى والمسيح ومحمد . واليك قوله في مولد عيسى :

(١) عارض بقا بردة البوصيري ، وممزية . مطلع البردة :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانِ بَدِي سَلَمٍ ، مَزَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مَقَلَةٍ بَدَمٍ

ومطلع نهج البردة :

رَبِّمْ عَلَى الْفَاعِ بَيْنَ الدِّانِ وَالْعَلَمِ ، أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الْأَثْمَرِ الْحَرَمِ

ومطلع همزية البوصيري :

كَيْفَ تَرُقَى رُقْبِكَ الْأَنْبِيَاءُ ؟ يَا سَاءَ مَا ظَلَمْتَهَا سَاءَ ؟

ومطلع همزية شوقي :

وُلِدَ الْهُدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ ، وَفَمُ الزَّمَانِ تَقَسُّمُ وَثَمَاءُ

وُلِدَ الرَّفِيقُ يَوْمَ مَوْلِدِ عَيْسَى ، وَالْمَرْوَاتُ ، وَالْهَدَى ، وَالْحَيَاءُ
 وَأَزْدَهُي الْكَوْنُ بِالْوَلِيدِ، وَضَاءُ ، بِسَنَاهُ مِنَ الثَّرَى الْأَرْجَاءُ
 وَسَمَتْ آيَةُ الْمَسِيحِ كَمَا يَسْرِي ، - مِنْ الْفَجْرِ فِي الْوُجُودِ الضِّيَاءُ
 تَمَلُّ الْأَرْضَ وَالْعَوَالِمَ نُورًا ، فَالْثَّرَى مَا نَحِجُّ بِهَا ، وَضَاءُ
 لَا وَعِيدٌ ، لَا صَوْلَةٌ ، لَا أَنْتِقَامٌ ، لَا حَسَامٌ ، لَا غَزْوَةٌ ، لَا دِمَاءُ

وقوله يصف التنزيل على محمد :

فَلِجِبْرِيلَ جَيْئَةٌ وَرَوَاحٌ ، وَهَبُوطٌ إِلَى الثَّرَى ، وَارْتِقَاءُ
 بِحَسَبِ الْأَفْقِ ، فِي جَنَاحِيهِ نُورٌ ، سُلَيْبَتُهُ النُّجُومُ وَالْجَوَازَاءُ^(١)
 تِلْكَ آيُ الْفُرْقَانِ أَرْسَلَهَا أَلَا لَمْ ضِيَاءُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ
 نَسَعَتْ سُنَّةَ النَّبِيِّينَ وَالرُّسُلِ كَمَا يَنْسَخُ الضِّيَاءُ الضِّيَاءُ

وشوقي مولع بذكر الانبياء والملائكة والقديسين، والجنة وحورها ووندانها .
 ومولع بالتلميح الى الحوادث الدينية المشهورة ومولع خصوصاً بالتحدث عن المسيح لا
 يترك ساحة الا ذكره فيها . فاذا نعت نفسه بالصفح والرحمة تشبهه بابن مريم فقال :

وَلَا بَيْتٌ إِلَّا كَأَبْنِ مَرْيَمٍ مُشْفِقًا ، عَلَى حُسْدِي ، مُسْتَفْرِغًا لِعِدَاتِي

واذا ذكر الدستور، شبهه بعيسى، ورأى فيه شفاء لعيمان البصائر، وانهاضاً

للمقعدين الخاملين :

فَدَاوِ بِمِ الْبَصَائِرِ فَهَرَّ بِي ، وَهُوَ الْمَرْوَاتُ بِرَأْيِهِ الْإِثْمُ عَدِيدًا^(٢)

ولا يتحرج ان يجاري عقيدة النصارى في المسيح، فيعترف بصلبه وقيامته . قال

يخطب توت عنخ امون بعد نبش آثاره :

خَرَجْتَ مِنَ الْقُبُورِ خُرُوجَ عَيْسَى ، عَلَيْكَ جَلَالَةٌ فِي الْعَالَمِينَ

(١) في هذا البيت تقديم وتأخير . والمراد : في جناحي جبريل نور يحسه الافق انه

مسلوب من النجوم والجوزاء . (٢) الخطاب للملك فؤاد . والضمير في به للدستور .

وقد يتخذ المسيح والصليب حجة له في مخاطبة دول النصارى بالشؤون السياسية
قال في اندلسيته الجديدة :

عَيْسَى سَبِيلِكَ رَحْمَةٌ ، وَمَحَبَّةٌ ، فِي الْعَالَمِينَ ، وَعِصْمَةٌ ، وَسَلَامٌ
مَا كُنْتَ سَفَاكَ الدِّمَاءِ ، وَلَا أَمْرًا ، هَانَ الضَّعْفُ عَلَيْهِ ، وَالْأَيْتَامُ
يَا حَامِلَ الْأَلَامِ عَنْ هَذَا الْوَرَى ، كَثُرَتْ عَلَيْهِ ، بِأَسْمِكَ ، الْأَلَامُ

وقال يخاطب اللورد أنبي بعد رفع الحماية عن مصر :

يَا فَاتِحَ الْقُدْسِ ، نَحْلَ السَّيْفِ نَاحِيَةً ، لَيْسَ الصَّلِيبُ حَدِيدًا كَانَ ، بَلْ خَشَبًا
إِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَيْنَ أَنْتَهَتْ يَدُهُ ، وَكَيْفَ جَاوَزَ فِي سُلْطَانِهِ الْقُطْبَا
عَلِمْتَ أَنَّ وِرَاءَ الضُّعْفِ مَقْدَرَةٌ ، وَأَنَّ لِلْحَقِّ ، لَا لِلقُوَّةِ ، الْعَلْبَا .

فالدين كما ترى بل الاديان على اختلافها، تشغل جانباً عظيماً من منظومات

الشاعر .

الوصف

فتيح شوقي للوصف باباً رحباً في شعره، وتناول الموصوفات على شتى أنواعها، واجاد نعتها وتصويرها . وهو بارع في الاوصاف المادية اكثر منه في الاوصاف المعنوية، يجيد نعت اعضاء المرأة، وحسن صورتها . وقد يضيق بوصف لواعج الحب، واثر الغيرة في النفس، وتصوير عواطف المرأة، وطباعها، واهوائها . ويجسن نعت الطبيعة الناضرة الباسمة، وعرض مفاتها، واتساق الوانها . ويقصر في تصوير احساسه بها، واتحاد روحه بروحها . ويعن في ذكر المغنين، ومدح اصواتهم . وقلما عني بوصف الغناء، واطهار مواطن الجمال فيه فعل ابن الرومي .

واوصافه منها قديمة ينسحب بها على اذيال المتقدمين كوصف الحمر والمرأة . ومنها جديدة كوصف الرقص الحديث، وحضارة المدن الغربية وآثار الفراعنة، وصبيان المكاتب، والطيارات، والغواصات . ومنها بين القديم والحديث كوصف الطبيعة، والحرب، والرسوم والآثار، والمدن المنكوبة .

وله صور رائعة ترسم المشهد المتعدد الحالات، باليجاز قوي، وسرعة فائقة، كوصف غرق السفينة :

طُغِنَتْ، فَأَنْبَجَسَتْ، فَاسْتَصْرَحَتْ، فَأَتَاَهَا حَيْنَهَا، فَهِيَ خَبْرٌ^(١)

ووصفه درجات الحب :

نُظْرَةٌ، فَأَيْتَسَامَةٌ، فَسَلَامٌ، فَكَلَامٌ، فَتَوَعِدٌ، فَلِقَاءٌ

ووصفه انطلاق المدفع :

إِذَا عَصَفَ الْحَدِيدُ أَحْمَرَ أَفْقٍ، عَلَى جَنَابَتِهِ، وَأَسْوَدَ أَفْقٍ

وينطلق به خيال جميل مجنح، يطير الى الصور المخدرة، فيهتك حجابها ويمسحها

(١) هذه السفينة اغرقها غواصة، لذلك قال طغنت .

بشتى الالوان ، ويجسمها ، ويحيي ميتها . كوصفه الريح وقد مرت على بردى ،
فارتدت بليلة :

وَقَدْ صَفَا بَرْدَى لِلرَّيْحِ ، فَأَبْتَرَدَتْ لَدَى سُورٍ ، حَوَاشِيَهِنَّ أَفْسَانُ
ثُمَّ أَنْشَتْ لَمْ يَزَلْ عَنْهَا الْبَلَلُ ، وَلَا جَعَّتْ مِنْ الْمَاءِ أَذْيَالُهُ وَأَرْدَانُ

الغزل

تغزل شوقي، ولكنه لم يبرع في هذا الفن براعته في غيره من الاغراض . لان الغزل من الوجدانيات التي ينبغي للشاعر ان يحس تأثيرها في نفسه . فان لم يكن لالم الحب من سلطان على قلبه ، فهيهات ان يأتي بغزل عاطفي صادق اللوعة ، متواصل الحنين . وشوقي لم يكن من المثيمين المتألمين ، ولا من العشاق الروحانيين ، وانما هو صاحب لذة يتبعها في مواطنها ، فما تحرمه سعة يده الوصول اليها . فلم يشعر بذلك الألم الذي يشعر به من يغرى بشي . ويصعب عليه نيئه ، فيأسف عليه ، ويأسى ، وتثور عاطفته وجداً وكداً . فيلفظها لسانه ، قطعاً دامية من افلاذ كبده .

ولم يكن شوقي مجاهراً بلذته ، فيستر عجزه عن بث لواعجه بغشاء من القصص الغرامي . لان البيئة التي وجد فيها قضت عليه بالترصن والتستر . فشاعر الخديوي لا يصح له ان يكون مستهتراً ، بل لا يصح له ان يعنى بالنسيب . وربما استهل مدحته متغزلاً ، واراد نشرها في جريدة الحكومة ، فتوعز بطانة الامير الى مدير المطبعة ان يسقط الغزل منها ، كما اصاب قصيدته : خدعوا بقولهم حسناً .

ومثل هذا التعرض من الحكومة يخدم نشاط الشاعر الى النسيب ، ويحملة على الاقتصاد فيه ، وقلة التبسط في شرح احواله .

وشوقي في غزله مقلد متكلف ، يترسم البها . زهير في سهولة الفاظه ، ولين تعابيره ، وخفة اوزانه ، وابتدال معانيه :

مُضَى ، وَأَيْسَ بِهِ جِرَاكَ ، لَكِنْ يَخْفُ إِذَا رَأَى

فكانه ينظم هذا الشعر ، لا رغبة في النسيب ، وانما ليتغنى به المغنون .

ويعارض ابا الحسن الحصري القيرواني في قصيدته الشهيرة : يا ليل ، الصب متى غده ؟ والمعارضة ضرب من التقليد :

مُضْنَاكَ جَفَاهُ مَرَقَدُهُ ، وَبَكَاهُ وَرَحَّمَ عَوْدُهُ

ويحاول ان يحتذي على مثال ابن ابي ربيعة في زيارته الليلية ، فيطرق فتاة الحي، وترجوه النساء . حتى اذا عرفنه، طلب من الامان للعداري . ولكنه يقصر عن عمر اشواطاً، سواء في الصراحة والصدق، او في جمال القصص والحوار .
ويصطنع غزل الشعراء الفرسان ، فيمزج الفاظ الحب بالفاظ الحرب ، وهو لم يشهد وغي، ولا حمل سيفاً ولا رحماً :

فَلَكُمْ رَجَعْتُ مِنَ الْأَسِنَّةِ سَالِمًا ، وَصَدَرْتُ عَنْ هَيْفِ الْقُدُودِ طَمِينًا
ويدخل الحكمة في نسيه كالمتنبي :

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَدْرَ فِي النَّاسِ شَائِعٌ ، وَأَنَّ خَلِيلَ الْغَائِبَاتِ مُضَيِّعٌ
ويحشوشن مثله، فيقاتل العيون، كما قاتل استاذه الحدود :

يَا قَاتِلَ اللَّهِ الْعُيُونَ فَإِنَّهَا ، فِي حَرِّ مَا نَضَلَى ، الضَّعِيفُ الْبَادِي
ويتغزل بالطبيعة كأنها امرأة فعل ابن الرومي :

وَدَخَلْتُ فِي لَيْلَيْنِ ، فَرَعَاكَ وَالْدُّجَى ، وَلَشَمْتُ كَأَلْضَبِحِ النُّوْرِ فَالِكُ

وهو مقلد في وصف محبوبه ، يعنيه ان ينعت شعره وعينيه، وثره، ورضاب وقوامه . ويخصه بالتشابه المبتذلة : بالليل، والسيوف، واللؤلؤ، والكوثر، والغصن . وقلما يلتفت الى وصف العواطف، والاهواء، وما يعتاد النفس من شوق وصبابة وغيرة وحرقة، وخوف وامن، ويأس ورجاء . او الى تصوير طباع محبوبه، وم يلتقطه من حركاته وسكناته، وغنجه ودلاله . بيد انه يذكر طول ليله، وبرايم النجم، ويتحدث الى الحمام، ويشكو ويئن ويتظلم متشبهاً بالشعراء المتيمين .

ولا يخلو غزله من جمال الفن وحسن الصناعة، وان خلا من صدق العاطفة، وجد المعنى . وقد تخضع له ابكار المعاني، ولا تستسلم بنات العواطف كقوله :

صُونِي جَمَالِكَ عَنَّا إِنَّنَا بَشَرٌ ، مِنْ التُّرَابِ وَهَذَا الْحُسْنُ رُوحَانِي
أَوْ فَابْتَعِي فَلِكَا ، تَأْوِينُهُ مَلِكَا ، لَمْ يَتَّخِذْ شَرَكَا ، فِي الْعَالَمِ الْغَابِي

المدح

لم يكن شوقي اول الامر يرى خيراً في المدح، وانما كان يأسف ان يتخذ الشعر حرفة للتكسب . وقد اعرب عن هذا الرأي في مقدمة ديوانه الاول، ونعى على الشعراء الذين يضيعون شعرهم بالمديح . ولكنه اعترف بانه ينهى عن خلق ويأتي مثله، واعتذر بقوله: انه قرع ابواب الشعر، ولم يجد امامه الا دواوين لا مظهر للشعر فيها، وقصائد للاحياء يحذون فيها حذو القدماء، والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر الا ما كان مدحاً في مقام عال، ولا يرون غير شاعر الحديوي صاحب المقام الاسمي . فما زال يتمنى هذه المنزلة حتى بلغها، واصطنع المديح، واتبع القدماء . لانه رأى ان الخير في الاحتراس من مفاجأة الناس بالشعر الجديد دفعة واحدة .

واذا عدنا الى منظوماته في صباه نرى انه كان يحاول ان يتخذ للشعر وجهة جديدة تبعد به عن القديم البالي . ولكن الاقدار عاكسته من حيث سلمته، واصابه ما اصاب شعراء العرب من قبل: حظوة عند الامراء، ورزق واسع، وشاعرية مقيدة، مرهونة بالمديح، وما يشبه المديح . ففنع من دنياه بان يكون :

شاعِرُ الْعَزِيزِ وَمَا بِالْقَلِيلِ ذَا الْقَلْبِ

فانصرف الى المدح الذي كان يفتنه، ويجد به غضاضة على الشعر والشعراء . فانس به بعد استيحاء، وحالفه بعد خلاف . ولم يتخرج من الغلو المقوت والتذلف والتذلل . ولم يجزع من التفهقر مات من السنين الى الورا . :

وَقِيلَ: «ابنُ رَبِّ التَّيْلِ!» فَأَفْتَرَّتِ الْقُرَى، وَتَأَجَّى الثَّرَى نَعْلِكَ يَسْتَوْهَبُ الْخِضْبَا

....

فَأَسْمَعُ لِعَبْدِكَ، وَأَبْنِ عَبْدِكَ مَنطِقًا، مُتَطَايِرًا بِكَ فِي الْقَوَائِي صِيئُهُ

....

إِلَيْكَ عَزِيزَ الْمَالِكِينَ بَعَثُهَا، تُقْبَلُ عَنِّي، دُونَ أَعْتَابِكَ الثَّرَبَا

وبلغ من افراطه في تمويه الحقيقة أن جعل عصر عبد الحميد خير العصور على

الرعية :

عَمْرُ أَنْتَ ، بَيْدَ أَنْكَ ظِلُّ الْبَرَايَا ، وَعِصْمَةٌ ، وَسَلَامُ
مَا تَتَرَجَّتْ بِالْخِلَافَةِ حَتَّى تُورِجَ الْبَانِسُونَ ، وَالْأَيْتَامُ
وَسَرَى الْخُصْبُ وَالنَّمَاءُ وَوَأْفَى أَا بِشْرُ ، وَالظَّلُّ ، وَالْجَنَى ، وَالْعَمَامُ

وكان معجباً بمدائح البحري، وحسن ديباجته . فلما اراد ان يصف موكب عباس في يوم عيده، لم يغفل عن معارضة الوليد في رائيته التي وصف بها موكب المتوكل يوم الفطر . فتوكلأ عليها، وتعلق بالفاظها ومعانيها، واكنه انحدر عنها انحداراً مشووماً . قال في مطلعها متغزلاً :

أَشْكُو هَوَاكَ لِمَنْ يَلُومُ فَيَعْتَدِرُ ، وَأَجَادِلُ الْعُدَّالَ فِيكَ ، وَأَكْثِرُ

ويثب فيها الى المدح وثباً كصاحبه البحري حتى يصل الى وصف الموكب :

بَاكَرَتْ دَارَ الْمَلِكِ فِيهِ بِمَوْكِبِهِ ، قَامَ السَّرَاةُ بِهِ ، وَحَفَّ الْعَسْكَرُ^(١)
رَأَعَتْ رَوَائِعُهُ النَّهَارَ جَلَالَةً ، فَالشمسُ تُجْفَلُ ، وَالضُّحَى تَسْتَأخِرُ
كَيْبِي الْحَمِيسُ بِهِ جَمَالَكَ رَوْنَقًا ، وَأُعِيرَ غُرَّتَكَ اللُّوَاهُ الْأَحْمَرُ
فَالْأَرْضُ مَا نَبْجَةُ الْمَذَاهِبِ بِالْقَنَا ، وَالْأَفْقُ حَالِ بِالسِّيُوفِ ، مُجَوَّهَرُ

غير انه بعد رجوعه من الاندلس، وتحلصه من شرك القصر، تغيرت صبغة مدائحه، فذهب عنها الغلو الكاذب . وترفعت عن العبودية والزاني، وان لم تنتزه في الجملة عن التقليد . فاصبح الشاعر يتخذ من المدح وسيلة الى النصح والارشاد، وطلب الاصلاح وال عمران كقوله يمدح الملك فؤادا :

فَعَجَّلْ يَا أَبْنَ إِسْمَاعِيلَ عَجَلْ ، وَهَاتِ النُّورَ ، وَأَهْدِ الْخَائِرِيْنَا^(٢)
هُوَ الْبِضَاحُ ، فَأَتِ بِهِ وَأَخْرِجْ ، مِنْ الْكَهْفِ السَّوَادِ الْعَافِلِيْنَا

(١) به : اي بيوم العيد . (٢) النور : كناية عن الدستور .

مَلَايِينُ تَجُرُّ الْجَهْلَ قَيْدًا ، وَتُسْحَبُ بِأَقْلِيلِ الْمُطَلِّقِينَ^(١)
فَدَاوِ بِهِ الْبَصَائِرَ فَهَوَّ عَيْسَى ، وَفَكَ بِرَاحَتِهِ الْمُتَعَدِّينَا

وممدوحو شوقي كثير؛ فمن الامراء العلويين : اسماعيل ، وتوفيق ، وعباس ،
والحسين ، وفؤاد . ومن الخلفاء : عبد الحميد الثاني ، ومحمد رشاد . ومن الرؤساء
والزعماء : مصطفى كمال ، وسعد زغلول . ومن الدول : فرنسا ، وانكلترا . ومهما
تعدد ممدوحوه من امراء مصر؛ فهو صادق العاطفة ، يخلص لهم الولاة جميعا ، وان
اختلفت لهجته في مخاطبتهم باختلاف زمانه ومكانه . وهو صادق في مدح الاتراك ،
ملكين كانوا او جمهوريين . واصفى مودة لفرنسة منه لانكلترا .

(١) وتُسْحَبُ الخ : اي يسحبها اشخاص قليلون هم الذين اطلقوا من ذاك القيد .

الرثاء

توفر شوقي على الرثاء اكثر منه على المدح لان مدائح كادت لا تتجاوز طبقة الملوك والامراء والزعماء . واما مرثيه فقد عمت طبقات مختلفة . فانتظم له منها شي . غير قليل . ولقي بسببها لوم النقاد وعنتهم ؛ والى هذا يشير في بعض مرثياته :

يَقُولُونَ يَرِثِي الرَّاحِلِينَ فَوَيْحَهُمْ ، أَمَلْتُ عِنْدَ الرَّاحِلِينَ الْجَوَازِيَا !

ولانكثير ان الشاعر صادق، لم يتخذ الرثاء اداة للتكسب والزلفى، بل كان يندفع اليه اما بعامل التأثر، واما بعامل الواجب، واما ارضاء للحاسة الفنية في نفسه . وكان صادق الولاء في كثير من مرثيه، باذي الحزن والاسف . غير انه لم يكن بكاء عاطفياً، ولا مصوراً للوعته وحزنه، ووقع المصاب عليه ؛ حتى في رثائه لاحب الناس اليه كابييه وامه وجدته ، والامير توفيق ولي نعمته . فكان قواه العاقلة تأبى عليه ان يستسلم الى الضعف والجزع عند حلول النوائب . وترين له الصبر والترصن والحكمة . فكان رثاؤه لابييه تفلساً اكثر منه تفجعاً :

أَنَا مَنْ مَاتَ وَمَنْ مَاتَ أَنَا ، لَقِيََ الْمَوْتَ كِلَانَا مَرَّتَيْنِ
نَحْنُ كِنَا مُهْجَةً فِي بَدَنِ ، ثُمَّ صِرْنَا مُهْجَةً فِي بَدَنَيْنِ
ثُمَّ عُدْنَا مُهْجَةً فِي بَدَنِ ، ثُمَّ نَلَقَى جُنَّةً فِي كَفَيْنِ
ثُمَّ نَحْيَا فِي عَلِيٍّ بَعْدَنَا ، وَبِهِ نُبْعَثُ أَوْلَى الْبَعَثَيْنِ^(١)

ونعيت اليه والدته وهو بالاندلس، وهي بمصر، فتذكر المثني عندما نعيت اليه جدته وهو بعيد عنها . واران الرثاء فغلب عليه حب المعارضة، فخضع لارادته، مع ما هو عليه من الحزن والالم، فجاءت مرثيته متكلفة ظاهرة التقليد، تخرج عرجاً وراء قصيدة ابي الطيب . وقد صدرها بالشكوى والحكم المتبدلة حتى وصل الى

(١) علي : ابنه البكر .

قوله . وفيه التقليد البين :

لَكَ اللهُ مِنْ مَطْعُونَةٍ بِقَنَا النَّوَى ، شَهِيدَةَ حَرْبٍ ، لَمْ تُقَارِفْ لَهَا إِثْمًا
سَقَاها بِشِيرِي ، وَهِيَ تَبْكِي صَبَابَةً ، فَلَمْ يَقْرَ مَعْنَاهَا عَلَى صَوْبِهِ رَسْمًا^(١)
أَسْتُ جُرْحَهَا الْأَنْبَاءَ غَيْرَ رَفِيقَةٍ ، وَكَمْ نَزَعِ سَهْمًا ، فَكَانَ هُوَ السَّهْمًا
تَفَارُ عَلَى الْحُمَى الْفَضَائِلُ وَالْأَعْلَاءُ ، لِمَا قَبَلَتْ مِنْهَا ، وَمَا ضَمَّتِ الْحُمَى

ولم يغفل عن التبيح بنفسه حتى الافراط اسوة بابي الطيب :

أَتَيْتِ بِهِ لَمْ يَنْظِمِ الشِّعْرَ مِثْلُهُ ، وَجِئْتُ لِأَخْلَاقِ الْكِرَامِ بِهِ نَظْمًا
وَلَوْ نَهَضَتْ عَنْهُ السَّمَاءُ ، وَمَحَّضَتْ بِهِ الْأَرْضُ ، كَانَ الْمُرْنُ ، وَالشَّيْبُ ، وَالْكَرْمَا^(٢)

ولم يكن رثاؤه لجدته خيراً من رثائه لأمه ، ولا اقل تقليداً للمتنبى . واما رثاؤه لتوفيق ، فاوله حكم عامة ومغالاة بالرزق ، ثم وصف للميت ، ثم مدح وتهنئة بالامارة لابنه عباس .

ومراتي شوقي في الجملة تفجع على الميت ، بتعظيم الخسارة فيه ، واظهار مناقبه واعماله . واستطرد الى الحكم والمواعظ ، او الى اغراض في السياسة وال عمران . وربما اتخذ من حرفة الميت اداة للرثاء . كقوله في عثمان باشا غالب وكان عالماً بالنبات :

ضَجَّتْ لِمَضْرَعِ غَالِبٍ ، فِي الْأَرْضِ مَمْلَكَةُ النَّبَاتِ
أُمْتُ بَيْتِجَانٍ عَلَيَّ مِنْ الْجِدَادِ مُنْكَسَاتِ

ومن نساءه ان يتساءل الى الامرات ، فاما يسألهم عن الآخرة ، او عن الاولاد ، او عن الاشياء التي كانوا يتعاطونها في الحياة . واما يكلفهم القيام من قبورهم لينظروا الى ما استجد بعدهم من الامور السياسية وال عمرانية . قال في رياض باشا :

(١) يقول : سقاها البشر برجوعي من الاندلس ، صوباً هظلاً من السرور وهي تبكي شوقاً ، فلم يستطع رسم معناها اي جسمها الضيف ان يحتمل هذا المطر القوي . (٢) السماء : السحاب . يقول : لو ارتفع عنه السحاب متبخراً ، او لو تخضت به الارض لتلد شيئاً ، لكان للسحاب مضراً بكرمه ، وللارض ذهاباً بنفاته ، وكرماً بشعره اي خمرأ تسكر .

رَهِينَ الرَّمْسِ حَدِيثِي مَلِيًّا ، حَدِيثَ الْمَوْتِ تَبْدُ لِي الْعِظَاتُ
سَأَلْتُكَ : مَا الْمَيَّةُ ؟ أَيُّ كَأْسٍ ؟ وَكَيْفَ مَذَائِقُهَا ، وَمَنْ السُّقَاةُ ؟

وقال في الحسين بن علي ملك الحجاز :

قُمْ تَحَدَّثْ أَبَا عَلِيٍّ إِلَيْنَا ، كَيْفَ غَامَرْتَ فِي جِوَارِ الْأَرَاقِمِ^(١)

وقد يشبه المرثي بالشمس القافلة، متمنياً ان يكون يوشع ليردها عن مغيبها .

قال في سعد زغلول باشا :

شَيُّعُوا الشَّمْسَ وَمَالُوا بِضَحَاهَا ، وَأَنْخَى الشَّرْقُ عَلَيْهَا ، فَبَكَاهَا
لَيْتَنِي فِي الرِّكْبِ لَمَّا أَفَاتُ ، يُوشَعُ ، هَمَّتْ ، فَنَادَى ، فَتَنَاهَا

وكان له بالمغنين صلوات وثيقة لعنايتهم بتلحين شعره، والتغني فيه . فلم يمت
مغن محسن في محصر الا خصه برثية . فقد رثى عبده الحمولي ، وعبد الحي، والشيخ
سلامة حجازي، والشيخ سيد درويش . قال في عبده الحمولي :

سَاجِعُ الشَّرْقِ طَارَ عَنْ أَوْكَارِهِ ، وَتَوَلَّى فَنُ عَلَى آثَارِهِ

ومنها البيت المشهور :

يَسْمَعُ اللَّيْلُ مِنْهُ فِي الْفَجْرِ يَا لَيْلِي لُ فَيُضْغِي مُسْتَنْهَلًا فِي فِرَارِهِ

وقال في عبد الحي :

رُحْمَاكَ عَبْدَ الْحَيِّ أُمِّكَ شَيْخَةٌ ، قَعَدَتْ ، وَهَيْضَ لَهَا الْقَدَاةَ جَنَاحُ
كَبُرَتْ عَصَاهَا الْيَوْمَ ، فَهِيَ بِبِلَاعِصَا ، وَقَضَى فَتَاهَا الْأَجْرُدُ الْمِسْمَاحُ

ويجتمعا :

قُمْ غَنِّ وَلِدَانَ الْجِنَانِ وَحُورَهَا ، وَأَبْعَثْ صَدَاكَ ، فَكُلْنَا أَرْوَاحُ

وله مرثي في جماعة من الشعراء والكتاب المشهورين كاسماعيل صبري باشا،
وحافظ ابرهيم، وجرجي زيدان ، ومصطفى لطفي المنفلوطي، ويعقوب صرُوف،

(١) الاراقم : الحيات، والمراد الحلفاء الذين انضم اليهم الحسين في الحرب العامة .

ومحمد المويلاحي . وفي طبقة من زعماء السياسة والاجتماع في مصر : كمصطفى كامل ،
وسعد باشا زغلول ، وبطرس باشا غالي ، وثروت باشا ، ومصطفى باشا فهمي ، ورياض
باشا ، وقادم امين نصير المرأة .

وربما تناول برائيه أعضاء الشرق والغرب ، كرتائه لنجل امام اليمن ، وفوزي
الغزي الزعيم السوري ، والملك حسين بن علي ، والشاعر الموسيقي الايطالي فردي ،
وفيكاتور هيغو ، وتولستوي . واجمل رثائه ما بكى فيه على ممالك المسلمين البائدة ،
ومدنيهم المنكوبة ، فان عاطفة الدين تُشيع به روعة وجلالاً . فمن ذلك بكاؤه على
ادرنة ، وعلى دمشق ، وعلى الخلافة بعد ان محاهها الغازي مصطفى كمال .

الفخر

ليس لشوقي قصائد في الفخر قائمة برأسها ، وانما له ابيات متفرقة ، يفتخر فيها على
الغالب بشعره وسيورته ، مترسماً خطة ابي الطيب المتنبي . وربما افتخر بنسبه في
الترك ، وبكرم اخلاقه :

رُؤَاةُ قَصَائِدِي ، فَأَعْجَبَ لِشِعْرِي ، بِكُلِّ مَجَلَّةٍ ، يَرْوِيهِ خَلْقُ

.....

وَأَرْسَلْتُهَا فِي سَمَاءِ الْخِيَالِ ، تَجُرُّ عَلَى النُّجْمِ أَذْيَالَهَا

الحكمة والاضراق

لم يكن شوقي فيلسوفاً صاحب مذهب خاص يشيد به، ويدعو اليه . وانما كان شاعراً مثقفاً، مطلعاً على طرف صالح من الفلسفة الاسلامية . فكانت له اراء في الحياة والاجتماع، توكأ في اكثرها على الاقدمين . فقال مثلهم بوحدة النفس الكلية، وتنقل اجزائها في الذراري الى ان تفتي الاعيان، فتعود الى مقرها الازلي . وقد اشار الى هذا التنقل في رثائه لابييه : « انا من مات ومن مات انا . » وتحدث عن النفس في قصيدة اخرى، عارض بها سينية الرئيس ابن سينا، فقاده حب المعارضة الى ان يجاريه في رايه الافلاطوني . فقال بان النفس الجزئية اهبطت الى الجسم من عالم الارواح . وشبه النفس الكلية بالشمس، والنفوس الجزئية بالاشعة، تطلع على العامر والعامر . فاذا انطوت الحياة، ترجع النفوس الجزئية الى مصدرها الكلي كما ترجع الاشعة الى الشمس عندما ينطوي النهار :

يَا نَفْسُ وَبِثَلِّ الشَّمْسُ أَنْتِ : أَشِعَّةٌ فِي عَامِرٍ ، وَأَشِعَّةٌ فِي بَلْعٍ .
فَإِذَا طَوَى اللَّهُ النَّهَارَ تَرَاجَعَتْ ، شَيْئُ الْأَشِعَّةِ ، فَالْتَقَتْ فِي الْمَرْجِعِ .

على ان هذا المذهب لم يكف الشاعر مؤونة التطلع الى ما بعد الطبيعة، لاستشفاف تلك الاسرار المغلقة على ابناء هذه الحياة :

يَا صَاحِبَ الْعُصْرِ الْعَالِي الْأَخْبَرِ ، عَنْ عَالَمِ الْمَوْتِ يَرْوِيهِ الْأَلْبَاءُ |
أَمَّا الْحَيَاةُ ، فَأَمْرٌ قَدْ وَصَفْتَ لَنَا ، فَهَلْ لِمَا بَعْدُ ، تَمْثِيلٌ وَإِدْنَاءُ ؟

فاذا عزه الامر وقف حائرًا عاجزاً، كما وقف المثني والمعري قبله :

فِي الْمَوْتِ مَا أَعْيَا ، وَفِي أَسْبَابِهِ ، كُلُّ أَمْرٍ رَهْنٌ بِطَيِّ كِتَابِهِ

وقد يتحل رأي ابي العلاء في ان الروح هي الجانية على الجسم والمسبية

لفنائه :

فَإِنَّ الْحَيَاةَ تَقُلُّ الْحَدِيدَ، إِذَا لَبَسَتْهُ، وَتُبْلِي الْحَجْرَ^(١)

واطلق بعضهم على شوقي لقب شاعر الاخلاق؛ ولا ندري اكان هذا اللقب من اجل ما له من الشعر في التربية والتهديب الاجتماعي، ام كان من اجل استسائه بلفظة الاخلاق، وتردادها في منظوماته عشرات المرار، حتى صار بها الى الابتدال، وبدا تطفلها في معظم شعره . وحسبك منها قوله :

وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ، فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ، ذَهَبُوا

فهذا البيت من الامثال السائرة. فتح لشوقي معناه، ووفق فيه، ولكنه افسده، ووضع قدره بكثرة تكراره له :

وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ، فَإِنْ تَوَلَّتْ، مَضَوْا فِي إِثْرِهَا قُدَمَا

.....

كَذَا النَّاسُ بِالْأَخْلَاقِ يَبْقَى صَلَاحُهُمْ، وَيَذْهَبُ عَنْهُمْ أَمْرُهُمْ، حِينَ تَذْهَبُ،

.....

وَإِذَا مَا أَصَابَ بُنْيَانَ قَوْمٍ، وَهِيَ خُلُقُهُ، فَإِنَّهُ وَهِيَ أُسْرُ

.....

وَإِذَا أُصِيبَ الْقَوْمُ فِي أَخْلَاقِهِمْ، فَأَقِيمْ عَلَيْهِمْ مَأْتَمًا وَعَوِيلاً

.....

وَأَيْسَ بِعَاِمِرٍ بُنْيَانُ قَوْمٍ، إِذَا أَخْلَاقُهُمْ كَانَتْ خَرَابًا

وليست هذه الايات جميع ما ورد له في هذا المعنى، وانما هي بعض من كل، والذي اغفلناه اكثر من الذي اثبتناه . واما ما ورد من لفظ الاخلاق في معانٍ اخرى، فشيء لا يعد ولا يحصى .

(١) قال ابو العلاء :

ولو سكنت جبال الأرض رُوحًا، لما خالدت نضادًا، ولا إرابًا

نضادًا، كقطام : جبل بالعالية . إراب : من مياه البادية .

واقوال شوقي في التربية والاصلاح، والحض على العلم والعمل، وترك الصفات
الردیثة كثيرة. ومنها ما یجری مجرى الامثال :

تَرَكَ النَّفْسَ بِلاَ عِلْمٍ، وَلاَ اَدَبٍ، تَرَكَ الْمَرِيضَ بِلاَ طِبِّ، وَلاَ اَسْرَ

.....

مَا فِي الْحَيَاةِ، لِأَنَّ تَعَا تِبَّ، أَوْ تُحَايِبَ، مُتَّسِعٌ

.....

وَلَوْ زَادَ الْحَيَاةَ النَّاسُ سَعِيًّا، وَإِخْلَاصًا، لَزَادَتْهُمْ جَمَالًا

.....

إِنَّ الْعُرُورَ إِذَا تَمَلَّكَ أُمَّةٌ، كَالزَّهْرِ يُخْفِي الْمَوْتَ، وَهُوَ زَوَامٌ

.....

إِنَّ مَلَكَتِ النَّفْسَ، فَأَبْغِ رِضَاهَا، فَلَهَا ثَوْرَةٌ، وَفِيهَا مَضَاءٌ

الشعر التعليمي

كان شوقي في اول عهده بالشعر، يتحرى الاغراض العامة الطليقة، ويأنس بها اكثر من سواها . وقد راقه منها الشعر التعليمي للاطفال، من اناشيد وطنية ومدرسية، ومن اساطير على لسان الحيوان اشبه باساطير لافنتين . وكان يجتمع باحداث المصريين ويتلو عليهم من هذه الاساطير ليرى وقعها في نفوسهم . فانتظم له تسعة اناشيد منها ما لا يتجاوز البيتين، واحدى وخمسون خرافة . والظاهر انه كان يدوي ان يتوفر على هذه الاشياء، ويكثر منها مستعينا بصديقه خليل مطران^(١) فلما التمع نجمه في دار الامير، اعرض عنها وانصرف الى غيرها .

وهو في اناشيده يدعو الاحداث الى محبة الوطن، ويذكرهم بتاريخه واجاده . او يجعل لهم منها ادعية اشبه بصلوات تتلى في اوقات معلومة، كدعاء الصباح، ودعاء النوم، ودعاء الخطب، ودعاء اشتداد المرض، وما شا كل .

واما اساطيره ففيها نقد وتصوير للاخلاق، على سخر لطيف في بعضها، اوردها على لسان الحيوان، وربما اشترك فيها الانسان . واكثرها يجري في سفينة نوح، او بين سليمان بن داود والحيوانات . وموضوعاتها منها ما هو من اختراعه، ومنها ما استقاه من خرافات المتقدمين، كاسطورة اليامة والصيد، واسطورة القرد في السفينة . فالاولى تذكر بحكاية الضفدعة والبطين في كليلة ودمنة . والثانية اشبه شي بحكاية الراعي الكذوب والذئب، لاحد محربي الفرنسيين . وبعض هذه الاساطير مستقل في مغازيه، وبعضها الاخر مكرور متشابه المرامي .

ومغازيا الخلقية تتناول تأديب الملوك خاصة، والشعب عامة . واكثرها لا يختص بزمان ومكان، واقلها ما تصورت به حالة من احوال مصر او من احوال العصر . فحكاية ملك الغربان وندور الخادم امثلة حسنة الملك الذي يغفل عن صيانة ملكه

(١) ذكر ذلك في مقدمة ديوانه الاول .

من الطواريء . وحكاية الاسد ووزيره الحمار، امثلة اخرى للسلطان الذي لا يحسن اختيار رجاله . وحكاية ولي عهد الاسد وخطبة الحمار، تصور الاحق الذي يريد ان يتخلق بخلق ليس فيه، فيناله الاذى . وقصة القرد في السفينة، تطالعك بعاقبة الكذب على صاحبه . وقصة امة الارانب والفيل، تدعو الى الاتحاد على العدو لقهره، وفيها تمثيل بين مصر والاحتلال الانكليزي . واسطورة فأرة الغيط وفأرة البيت، تمثل شبان العصر الذين يحتقرون حرقة ابائهم طامعين في ارفع منها فينالهم الحسران والهلاك . واسطورة النملة الزاهدة، تصور اولئك المتصوفين الذين يتكلمون على غيرهم في تحصيل معاشهم .

وعلى الجملة، فهذه الحكايات تزين الاتحاد والتعاون، وتقبح الكسل والطيش والحيانة والخداع والعبودية . وتدعو الى حسن التربية، واختيار المؤدب والمعاون . وتظهر مغبة تعجيل الامر قبل اوانه، وآفة ضعف النظر في العواقب، ومضار الاهمال والغفلة وغير ذلك مما يرمي الى تهذيب النفس وارشادها .

وشعرها كسائر الشعر التعليمي يخلو في اكثره من الروعة الادبية، مكتفياً بمجرد الاخبار والعظة . ولولا لمحات من التصوير والاحساس في بعضه، لهبط في مجموعه عن مستوى الشعر الصحيح، ولم يبق له الا البحر والقافية . فمن صورته الجميلة :

أَلَمْ عَضُورٌ بِمَجْرَى صَافٍ ، قَدْ غَابَ تَحْتَ أَلْغَابِ فِي أَلْأَلْفِ (١)
يَسْتَقِي الثَّرَى ، مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي الثَّرَى ، خَشِيَةَ أَنْ يُسْمَعَ عَنْهُ ، أَوْ يُرَى

وَجَلَسَ أَلْهَرُّ بِجَنْبِ أَلْكَلبِ ، وَقَبَّلَ أَلْحُرُوفُ نَابَ أَلذِّبِ

سَمِعْتُ بِأَنَّ طَاوُوسًا ، أَتَى يَوْمًا سُلَيْمَانَ
يُجَرِّرُ دُونَ وَفْدِ الطَّيِّ رِ أَدْيَالًا وَأَرْدَانًا
وَيُظْهِرُ رِيشَهُ طَوْرًا ، وَيُخْفِي الرِّيشَ أَحْيَانًا

(١) الالفاف : الاشجار الملتفة واحدها الف .

ودونك الاحساس الشعري في الحمار والجل :

الحمار : لَا بُدَّ لِي مِنْ عَوْدَةٍ لِلْبَدِّ ، فَإِنِّي تَرَكْتُ فِيهِ مِقْوَدِي
الجل : فَقَالَ : سِرُّوا لِرَمِّ أَخَاكَ الْوَتْدَا ، فَإِنَّمَا خُلِفْتَ كَيْ تُوَيْدَا
والحمار في السفينة :

سَقَطَ الْحِمَارُ مِنَ السَّفِينَةِ فِي الدَّجَى ، فَبَكَى الرَّفَاقُ لِقَدْحِهِ ، وَتَرَحَّمُوا
حَتَّى إِذَا طَلَعَ النَّهَارُ أَتَتْ بِهِ مَوْجَةٌ تَتَقَدَّمُ
قَالَتْ : خُذُوهُ كَمَا أَتَانِي سَالِمًا ، لَمْ أَبْتَلُهُ لِأَنَّهُ لَا يُهْضَمُ
تحليل بعض الحكايات :

١ - اليامة والحياد : كانت ياممة باعلى شجرة آمنة مستترة ، فربها صياد ولم يرها . فلما هم بالانصراف ، برزت له الحمقاء وقالت : « يا ايها الانسان عم تبحث ؟ » فرماها ، فسقطت وهي تقول : « ملكت نفسي لو ملكت منطقي . »
٢ - القرد في السفينة : كان في سفينة نوح قرد تعود الكذب ، فاراد ان يترجح يوماً ، فاخذ يصيح زاعماً ان موجة تريد ابتلاعه . فارسل نوح اليه النور لتنقذه ، فوجدته سالماً . ثم صاح ثانية : « قد ثقبت مركبنا يا نوح^(١) ! » فارسل نوح من حضر ، فلم يروا شيئاً مما ذكر . وبينما كان يوماً يلعب ، قذفت به السفينة الى الماء ، فاخذ يصيح ، وينوح ويستغيث ، فلم يصدقه احد ، لاشتهار كذبه .

٣ - ملك الغربان وندور الخادم : كان للغربان ملك ، عرشه قائم في نخلة عظيمة ، فجاءه يوماً خادمه ندور ، وقال له : ان سوسة دبت في جدران القصر ، واثار عليه ان يبعث الغربان في اهلاكها . فضحك السلطان مستخفاً وقال :

أَنَا رَبُّ السُّوَكَةِ أَضَافِي الْجَنَاحِ ، أَنَا ذُو الْمِنْقَارِ ، غَلَّابُ الرِّيَّاحِ
أَنَا لَا أَنْظُرُ فِي هُدْيِ الْأُمُورِ ، أَنَا لَا أَبْصِرُ تَحْقِي يَا نَدُورُ
ثُمَّ لَمَّا كَانَ عَامٌ بَعْدَ عَامٍ ، قَامَ بَيْنَ الرِّيْحِ وَالنَّخْلِ خِصَامٌ

(١) أنت شوقي المركب مشاكلة للسفينة مع انه مذكور في الاصل .

وَإِذَا أَنْخَلْتُ أَقْوَى جِدْعُهَا ، فَبَدَا لِلدَّرِيحِ سَهْلًا قَلَمُهَا ،
 فَهَوَتْ لِلْأَرْضِ كَأَثَلِ الْكَبِيرِ ، وَهَوَى الدِّيَّانُ ، وَأَنْقَضَ السَّرِيرُ ،
 فَدَهَى السُّلْطَانَ ذَا الْحَطْبِ الْمَهُولِ ، وَدَعَا خَادِمَهُ الْعَالِي يَقُولُ :
 « يَا نَدُورُ الْخَيْرُ أَسِيفُ بِالضِّيَاحِ ، مَا تَرَى مَا فَعَلَتْ فِينَا الرِّيَاحُ !
 قَالَ : « يَا مَوْلَايَ لَا تَسْأَلْ نَدُورُ ، أَنَا لَا أَنْظُرُ فِي هَذِي الْأُمُورِ »

٤ - ولي عهد الاسد وخطبة الجمار : ولد للاسد ولي عهده ، فجاءت سبع
 الارض والسماء تهنئه ، وعقدت مجالس الافراح ، فتكلم الفيل والشعب والقرد ،
 فاحسنوا جميعاً . ثم رفع الجمار عقيدته ، اشرف عشيرته :

فَقَالَ : بِأَسْمِ خَالِقِ الشَّعِيرِ ، وَبَاعِثِ الْعَصَا إِلَى الْحَمِيرِ ،
 فَازْعَجَ الصَّوْتُ وَوَيَّ الْعَهْدِ ، فَمَاتَ مِنْ رِعْدَتِهِ فِي الْمَهْدِ ،
 فَجَمَلَ الْقَوْمُ عَلَى الْجِمَارِ ، بِجُمْلَةِ الْأَنْسَابِ وَالْأَنْظَارِ ،
 وَأَنْتَدِبَ الثُّعْلَبُ لِلتَّابِينَ^(١) ، فَقَالَ فِي التَّغْرِيبِ بِالْمَسْكِينِ :
 لَا جَمَلَ اللَّهُ لَهُ قَرَارًا ، عَاشَ حِمَارًا وَمَضَى حِمَارًا

٥ - امة الارانب والفيل : كان لامة الارانب وطن تعمره مطمئنة اليه ،
 مبتهجة به . فاختره الفيل طريقاً له ، يزرُق به اصحابه . وكان فيهم ارنب لبيب
 مجرب ، فدعاهم الى الاتحاد على دفع العدو « فالأتجادُ قُوَّةُ الضَّعَافِ . » فاجتمعوا
 للامر ، يتباحثون فيه ، فإشار بعضهم ان يحفروا هوة على طريق الفيل ، فيقع بها ،
 ويستريحوا من شره . فاستحسنوا رأيه ، وحفروا الهوة ، وهلك الفيل . فجاؤوا الى
 من اشار بحفرها يريدون تملكه عليهم ، فإبى وقال : ان صاحب الحق بالتاج والسريز ،
 من دعا معشر الارانب الى الاتحاد .

(١) اي لتأبين ولي العهد .

شوقي والتمثيل

حاول شوقي الفن التمثيلي وهو في فرنسا يطلب الحقوق . وكانت قصة علي بك الكبير باكورة مآسيه ، نظمها شعراً ثم اهلها ، واهمل فن التمثيل معها . ووآلى وجهه ، بعد رجوعه الى مصر ، شطر المدح والثناء وسواهما من الاغراض التي يعنى بها امثاله من شعراء البلاط عند العرب .

فلما تنكر له قصر الامارة ، بعد الحرب الكبرى ، وذهب ما كان له من أثر في نفسه وشعره ؛ عاوده الحنين الى التمثيل الذي افتتح به حياته الشعرية ، فأكب عليه يعالجه بنشاط الشباب ، وان ولى زمانه . واقباله على هذا الفن يشرح لنا سبب إيلافه دور السينما في اواخر حياته .

وما كانت سنة ١٩٢٩ م حتى بدأ يطبع مآسيه وينشرها . فأخرج مصرع كليوباترا ؛ ثم نظر في علي بك الكبير ، فلم يرض عنها ، فعمد الى اصلاحها سنة ١٩٣٠ بعد ان مضى على وضعها نحو ثلاثين سنة . واشتغل معها بتأليف مجنون ليلى ، وقبيز ، والسيدة هدى ، والبخيلة . وفي سنة ١٩٣١ شرع يؤلف اميرة الاندلس وعترة . وطبعت مآسيه كلها الا السيدة هدى والبخيلة .

مصرع كليوباترا

(١٩٢٩ م)

١ تاريخها

طبع شوقي هذه المأساة سنة ١٩٢٩ م وقدمها الى الامير فاروق ولي عهد الدولة المصرية، بابيات من الرجز، وذيلها بنظرات تحليلية، يرجح انها من صنعه . ومثلت في مصر عدة مرات فكان لها نصيب من النجاح لا بأس به .

٢ موضوعها

مصدر هذه المأساة تزيخ البطالسة في مصر . وموضوعها اواخر ايام كليوباترا، واستيلاء رومة على مملكتها في نحو السنة الثلاثين قبل الميلاد .

١ - الحوادث المتقدمة - تولت كليوباترا الملك بعد ابيها ، فنازعا اياه احد اخوتها، فناصرها يوليوس قيصر، ووطد لها السلطان . فصحبته الى رومة، ولبثت عنده حتى اغتيل سنة ٤٤ ق م . فعادت الى الاسكندرية . ثم اغوت انطونيوس احد القواد الذين انتهى اليهم الحكم في رومة، فوقع في هواها، وانكر رومة من اجلها، ولزمها لا يستطيع فراقها . فغضبت المشيخة الرومانية من عمله، وبعثت اليه اكتافيوس القائد الآخر، فجا باسطوله ليعاقبه ويستولي على مصر .

٢ - حوادث المأساة - اتحد اسطول انطونيوس واسطول كليوباترا على محاربة اكتافيوس، وحدثت بينهم واقعة اكثيوم البحرية، ففرت كليوباترا باسطولها في ايان المعصية، وفر في اثرها انطونيوس . ثم التحم القائدان في معركة برية على اسوار الاسكندرية، فجا انطونيوس بالخذلان . ورأت كليوباترا ان حبيبها لا قبل له بمجايتها، ففرغت الى اكتافيوس ترجو ايقاعه في اشراكها، فطلب منها ان تتخلي عن انطونيوس، فتواترت في قصرها، واشاعت انها ماتت، فكره انطونيوس الحياة بعدها،

وانتحر . ثم تبين لها ان القيصر الظافر يروم بها شراً، فابت عليها نفسها ان يقتلها عدوها، او يدخل بها رومة أسيرة ذليلة . فقربت من صدرها ثعباناً ساماً فنهشها وماتت .

٣ - الحوادث المخترعة - حافظ شوقي على سير الحوادث التاريخية كل المحافظة ولكنه صبغها بالوان جديدة جعلت كليوباترا ارفع نفساً، واعظم خلقاً . فهي لم تفر من وقعة اكيثوم جيناً او غدرأ بجيبيها، انا السياسة المصرية قضت عليها بالفرار . وهي لم تخف نفسها وتثع خبر موتها تواطوءاً مع اكتافيوس ، انا الطبيب اوبوس هو الذي خدع انطونيوس ونعاها اليه كذباً . وهي لم تحاول ان تنصي القيصر المنتصر، انا اتصلت به من اجل مفاوضات ظهر فيها خداعه وابطاؤها . وكذلك انطونيوس لم يفر في أثرها، ولكن شوقه اليها حمله على ان يترك مطاردة عدوه الى الغد بعد انتصاره عليه .

واضاف الى الحوادث التاريخية غرام حاي وهيلانة، وانتحار هذه مع مولاتها كليوباترا، ثم نجاتها بترياق الكاهن انوبيس .

٣ الفصل

تجري حوادث هذه المأساة بالاسكندرية، مرة في مكتبة قصر كليوباترا، واخرى في احدى غرفه، وحيناً في حجرة الولايم، وآخر داخل معبد الاسكندرية وخارجه . واخيراً في غرفة العرش .

الفصل الاول - انتصار القائد وغفلة العاشق - المنظر الاول : بينا كان امنا، مكتبة كليوباترا يتحدثون برجوع اسطولها من معركة اكيثوم تحت الظلام، اذا بهم يسمعون هتاف الشعب بانتصار الاسطول . ثم تدخل كليوباترا، فتسمع الهتاف فتنكر الامر، وتخبرهم انها تراجعت باسطولها عمداً ليتفانى اسطولا القائدين الرومانيين :

مَوْقِفٌ يُعْجِبُ أَلْعَلَّا كُنْتُ فِيهِ بِنْتُ مِصْرٍ ، وَكُنْتُ مَلَكَةً مِصْرٍ

المنظر الثاني : تلقى كليوباترا وصيفتها هيلانة، وامين مكتبها حاي مجتمعين

في غرفة من قصرها . وكانت تعلم ان حابي يبغضها، ولكنها ارادت ان تعامله بالحسنى من اجل جاريتها الامينة، فعقدت زواجهما . ثم يدخل انطونيوس ويبشرها بانه انتصر على خصمه، ألا ان شوقه اليها جعله يرجي مطاردته الى الغد، فتلومه على عمله :

تُرَكَّتَهُمْ لِعَدِيٍّ هُدَيْي مُجَازَفَةٌ ، عَدُوٌّ غُيُوبٌ ، وَأَسْرَارٌ ، وَأَقْدَارٌ !

فيسألها ان تقبل اللوم، وان تأمر بوليمة له ولقواده . حتى اذا انقضى الليل استأنفوا الحرب « محامير مجانين » .

الفصل الثاني - سو . سياسة كليوباترا - يجتمع المدعوون في حجرة الولايم، ويشربون ويطربون . فتثير الملكة سخط قواد انطونيوس، بتعصبها لمصر، وازدراثها رومة، حتى حملت العاشق الاعمى على ان يتبرأ من وطنه ارضاء لها .

الفصل الثالث - انتحار انطونيوس - يرى الكاهن انوبيس مناجيا ذاته داخل المعبد، ثم يرى انطونيوس في خارجه يندب حظه، ويأوم نفسه على ضعفه في الحب . واوروس غلامه الامين يعزبه، وقد خانتته جنوده وقواده، ووالت عليه عدوه . ويأتي اولمبوس الطبيب فينقل اليه خبر انتحار كايوباترا . فيجزع ويأس، ويستغفر رومة لانه عقها من اجل حبه . ويستغفر كليوباترا لانه ظن فيها الخيانة والعدو . ثم يطلب من اوروس ان يقتله، ليتخلص من حياته الشقية . فيأبى الفلام ان يريق دم مولاه، ويؤثر الانتحار على تكلاف ما لا يستطيع، ويتنحى بعده انطونيوس .

وتدخل كليوباترا المعبد، فتسأل انوبيس عن حية سمها سريع الفتك، خفيف الالم، لا يشوه الجمال . وتطلب منه ان يحفظها لها، حتى اذا امسى تاج مصر دريئة الخطر، بعث بها اليها في سلة من التين .

ويعر جنديان رومانيان خارج المعبد، فيبصران انطونيوس صريعا فيحملانه الى داخله . فتخف اليه كليوباترا تناديه، فيستفيق من انغمائه، ويعلم ان اولمبوس خدعه . ثم يلفظ روحه، وتبكيه كليوباترا . ويدخل اكتافيوس، فيودعه ويقبل رأسه بعد ان يتحقق موته .

الفصل الرابع - مصرع كليوباترا - : كليوباترا في قصرها تنجس نفسها، وتذكر مراقبة اكتافيوس لها خشاة ان تهرب او تلتجر. لانه يزوم ان يدخل بها رومة زينة لانتصاره. ويأتي حايي حاملاً سلاً من التين، فتعلم ان الكاهن ابي طلبها عندما رأى الخطر يحدق بعرشها. فتودع ما حولها حتى الزنبقة في الاصيص وداء مؤثراً، ويفني لها مغنيا اياس نشيد الموت . ثم يأتي قائد روماني برسالة من سيده، يسألها الذهاب معه الى رومة، ويعدها بان يبقيها في ملكها، وتكون رومة الوصية عليه . فتغرب الى الرسول ان يزورها القيصر في المساء لتفضي اليه بسر كتمته عن الصحاب والامناء . فيخرج الرسول . وتودع هي ولدها قيصرون ووصيفتها، ثم تناول الافعى، فتضعها على صدرها، فتعضها، فتموت . وتفعل شرميون فعلها، فتفضي في اثرها . وتتقدي بها هيلانة فيدركها انوبيس بترياقه فينقدها، ويذهب بها حايي الى طيبة ليعيشا معاً . وتنتهي المساة بوداع اكتافيوس لكليوباترا، وتهديد انوبيس لرومة .

٤ الجو المهرى

لم يغفل شوقي ان يخلق جوً اسجرياً تعبق به مأساته المصرية . فما وقوف العراف حبراً يطالع الاكف ويكشف المستقبل، الا صورة عن كهانة المصريين القدماء . ولا الافاعي وتربيتها، وسومها وترياقاتها والاكثار من التحدث عنها والنشيه بها، الا شيء يذكر كبعصر وثعابينها وحواتها، وبما جاء في التاريخ القديم عنها .

٥ الافلاك والصفات

كليوباترا : اجاد شوقي وادق في تصوير كليوباترا واظهار شخصيتها من نواح شتى فأرانا اياها :

أ مصرية - تغار على مصر وتتعصب لها، حتى اعماها التعصب، فاساءت السياسة، واحنقت القواد الرومانيين عليها وعلى عشيقها انطونيوس، مع شدة حاجتها الى هؤلاء الاعوان . وحبها لمصر يفوق حبها لانطونيوس فما ترى حرجاً في الهرب من المعركة وترك حبيبها يتحطم اسطوله واسطول اكتافيوس، لتضعف رومة وتسود مصر .

٢ ملكة - تحافظ على العرش، وتجاهد في صيانته وتموت من اجله . وراعية تعنى باصلاح بلادها، وتعطف على رعيتها وتحسن اليهم .

٣ سياسية - لم يكن انطونيوس حبيبا لكليوباترا من اجل الحب وحده، وانما كان اداة لاذعاف رومة وتقوية مصر . فقد شطرت به اسطول الرومانيين، وجعلت احد الشطرين في يدها لتحطم الآخر . بل حاولت تحطيمها معا في انهزامها من معركة اكثيوم ليخلوها الجور، فتسود البحر :

قُلْتُ رُومًا تَصَدَّعَتْ فَتَرَى شَطْرًا رَأَى مِنَ الْقَوْمِ فِي عَدَاوَةِ شَطْرٍ
وَقَبِيئَتْ أَنْ رُومًا إِذَا زَا أَتْ عَنِ الْبَحْرِ، لَمْ يَسُدِّ فِيهِ غَيْرِي

ولكن سياستها اخفقت برجوع انطونيوس عن مطاردة العدو . ثم باحناقتها القواد الرومانيين حتى ارسدوا الخيانة لها ولسيدهم . ثم بعضيان اسطولها، ورفضه ان يمضي لنجدة انطونيوس :

أَبِي أَعْلَمْتَ أَنَّ الْجَيْشَ وَلى، وَأَنَّ بَوَارِجِي أَبَتْ الْمُضِيًّا

والسبب الاول يعود على غفلة القائد العاشق . والثاني على سوء تصرفها . والثالث على فساد تديبرها ؛ لان فرارها باسطولها من معركة اكثيوم، جعل نصر انطونيوس مرهوناً الى الغد، وجعل بوارجها تأبى المضي مرة ثانية .

٤ ربة بيت - تعطف على اولادها، وتشملهم بجنان الام الروثوم، حتى لتكاد تشتهي الذل لاكتافيوس من اجلهم، لو رضي المجد، ولو سمح النبل . ولا يقتصر حنانها على اولادها بل يشمل ما في بيتها من خدم وجوار؛ فاذا هي ترعاهم وتحسن اليهم، وتغفر للمسي . منهم، وتعاملهم معاملة ذوي الصهر والقربي . فلا غرو ان يجبوها حب العباداة، وتنتحر وصيفتها بانتحارها .

٥ حسناء - وحسنها باد في حديث الناس عنها، وفي حديثها عن نفسها . حتى انها لما ارادت الانتحار حرصت على جمالها ان يزيله الموت . فقالت لانوبيس :

ولكن أبي هل يُصان الجمال ؟
وهل يُطفأ اللون ؟

وهل يُبطلُ الموتُ سحرَ الجفونِ ؟

٦ عاشقة - احبت الابطال فبسطت سلطانها عليهم، وشاقتها العبقريّة في الرجال فتعشقتها . وجبها لانطونيوس يزينه الوفاء اذا لم تعرض له سياستها الوطنية . فقد تحأت عن قيصرها في المعركة لانها تريده ضعيفاً في سلطانه لا يحشى منه على مصر . ولكنها بادلته الحب الصادق والتاعت عليه ساعة موته، وباسمه هتفت وهي تجود بالروح :

أَلَسَانِي حُلَّةٌ تُهَيَّبُ أَنْطُونِيُو سَنِيَّةُ

٧ صفات اخرى - تحب اللذة، والاهو والعبث، تحب القراءة والشعر، ذكية، رائعة البيان، ابية عزيزة النفس .

انطونيوس : عاشق ضعيف الارادة، صادق المودة، اعماه الحب فانساه واجبه، وانساه رومة فانكرها مرضاة لحييته، فاسخط قواده . واغفله عن البصر في العواقب فتك مطاردة العدو الى الغد، فكان فيه خذلانه . وحمله على الفرار كالجبناء، حتى اذا علم انها انتحرت، قابل الموت غير خائف؛ لانه طلب الحياة من اجلها، ومن اجلها انتحر يائساً . ولم يشأ ان يعاتب كليوباترا على خذلها اياه في المعركة بل غفر لها فرارها . وهذا العاشق الموله شجاع باسل، وقائد عظيم تشهد له بذلك كليوباترا :

أَلْيَوْمَ تَعْلَمُ رُومًا أَنَّ فَارِسَهَا ، جَيْشٌ بِمُفْرَدِهِ ، فِي الرُّوعِ ، جَرَّارٌ

واوروس :

رَأَيْتُكَ ، وَالْحَرْبُ تَبْلُو الْكُفَاةَ ، فَأَشْهَدُ كُنْتَ إِلَهَ الْوَعَى

وهو ابن رومة الابر، لولا الحب الذي انساه اياها . على انه عاد اليها يستغفرها ساعة موته :

رُومًا حَنَانُكَ ، وَأَغْفِرِي لِقَتَالِكِ . . .

اشخاص آخرون : اكتافيوس قائد روماني شجاع حزم .

انوبيس : كاهن مصري، عالم بالافاعي وسومها . يحب مصر ويكره رومة .

ويعطف على كليوباترا، ولكنه يرى لها الانتحار، لتلايهان تاج مصر .

هيلانة وشرميون : وصيفتان اميتتان للملكة انتحرتا معها .
 حابي : احد ابناء المكتبة، احب هيلانة، وابغض الملكة . ثم احبها عندما
 عطفت عليه وازوجته بمن يحبها .
 اولبوس : طبيب روماني في بلاط كليوباترا تقم على انطونيوس لانكاره
 رومة؛ وتبالكه بين يدي ملكة مصر . فنعاه اليه كذبا، وقد رآه في اشد حالة من
 الاضطراب النفسي، فدفعه بذلك الى الانتحار .
 اوروس : غلام انطونيوس وصفيته، آثر الانتحار قبل سيده .
 انشو : مضحك الملكة له مواقف سخر ونكتة لا بأس بها .
 حبرا : عراف مصري . اياس : مغني الملكة . غانيز : ساقياها . يولا : شاعر .

٥ مزارعها

أما محاسنها - مصرع كليوباترا، هي اجود ماآسى شوقي، وابعها فنا، وادقها
 تصويراً ووصفاً، وتحليلاً . وعقدتها القصصية موفقة كل التوفيق، فان شوقي اضفى
 عليها من العوامل الفنية، والمفاجآت المستحكمة المترابطة، ما صرف الذهن عن
 حلها التاريخي المنتظر . فانت تشعر بتولد هذه العقدة في الفصل الاول حين ترك
 انطونيوس المعركة دون ان يبلغ نهايتها . ثم تشعر باستحكامها في الفصل الثاني عندما
 تغلو كليوباترا بعصبيتها لمصر، فتطعن على رومة، وتحمل عشيقها المولاه على التبرئ
 منها، لا تبالي ان تعيظ الرومانيين وتسخطهم؛ فخرجوا من عندها وهم يضمرون الغدر
 بسيدهم لاستخذائه اليها . فنسمع اولبوس يقول وهو منصرف من الولاية :

أوروس! أنطونيوا حصابكأ غدا، روما ألبية لم تتم عن نأرها

وفي الفصل الثالث تظهر نتيجة المعركة بانهزام انطونيوس لان قواده وجنوده
 مكروا به من نعمتهم عليه، وانضوا الى اكتافيوس . ولكن العقدة لم تنحل هنا
 لان مصير كليوباترا وتاج مصر بقي مترجرا . واذا بالمؤان يفاجئك بزيارة الملكة
 للكهن، واتفاقها واياه على ان يبعث اليها بالافى السامة حين يصبح العرش في خطر .
 فيحدث هذا الاتفاق تشوقاً الى معرفة النتيجة لان مصير كليوباترا هو المقصود من

المأساة . وفي الفصل الرابع تنحل العقدة الخلامه طبيعيا بعد تجوى طوياسة قد يشفع بطولها هول الموقف وخطره .

وفيه من المشاهد الرائعة ما يخلق بالذكر كاتوليمة وما حدث في خلافا من حب وبغض وهو وسخر (ف ٢) وانتحار انطونيوس (ف ٣) وتجوى كليوباترا قبل مصرعها (ف ٤) .

ووفق شوقي في شعارها توفيقا حسنا، فان فيها من القوائد والمقطعات الجميلة شيئا غير قليل . وحسبك منها : « انا انطونيوس، وانطونيوس انا » (ص ٤٣) و « زنبقة في الآنية » (ص ٨٩) ، و « اليوم اقصر باطني، وضلاي » (ص ٩٩) . وتأتى له في نهاية كل فصل منها بيت بارع يترك في النفس والسماع دويًا . فالقائد الروماني يهمس في نهاية الفصل الاول عندما رأى سيده انطونيوس يريد اللجوء :

أَلَا إِنَّهُ لَيْلٌ لَهُ مَا وَرَاءَهُ ، غَرَامُكَ حَيٌّ فِيهِ ، وَأَلْمَجْدُ مَيِّتٌ

وكليوباترا تودع حبيبها في ختام الفصل الثاني ، وهو خارج للقاء اكتافيوس :

يَا لَيْتُ سِرٌّ ، يَا نَسْرُ طِرٌّ ، عُدْ ظَافِرًا ، أَوْ لَا تَعُدْ

واكتافيوس يختم الفصل الثالث بوداع انطونيوس :

أَقْبِلْ مَا قَبْلَ الْغَارِ مِنْكَ وَأَهْتَفْ : أَنْطُونِيُوسُ أَوْدَاعُ

وابلغها ما جاء في ختام المأساة اذ يقول انوبيس مهدداً الرومانيين :

قَسَمًا مَا فَتَحْتُمْ مِصْرَ لَكِنْ ، قَدْ فَتَحْتُمْ بِهَا لِرُومَةَ قَبْرًا

٢ مساوئها . كان شوقي في مصرع كليوباترا اقل مساوي منه في غيرها .

فليست له تلك السقطات الفاضحة التي تعودناها منه في مآسيه الاخرى ، وان تكن فصولها لم تخل من طفيليات الحوادث التي يستغني صاحبنا عنها . فخير حاجي وهيلانة تافه غث من بدئه الى نهايته، يفسد وحدة العمل، ويخرج بالمأساة عن الموضوع اذ لا يت اليها الا بسبب ضعيف . وكذلك كان المشهد الذي جاء في عرض القصة عن عشق الشيخ زينون امين المكتبة، لكليوباترا، وبعث حاجي به (ف ١ منظر ١) .

مجنون ليلي

(١٩٣١ م)

١ تاريخها

نشر شوقي هذه المأساة سنة ١٩٣١، وقدمها بابيات من الشعر للامير فاروق ولي عهد مصر، وذيلها بنظرات تحليلية، ومثلت لأول مرة في القاهرة فكان لها بعض النجاح .

٢ موضوعها

استمد الشاعر حوادث قصته من اخبار المجنون في كتاب الاغاني . وموضوعها حب قيس ليلي، وجنونه، وموته . والمجنون شاعر بدوي من بني عامر، قيل انه عاش في زمن بني امية، وشك بعضهم في وجوده .

١ - الحوادث التاريخية - احب قيس بن الملوّح ابنة عمه ليلي العامرية، وتغزل بها . ثم خطبها الى ابيها فردء خائباً لاشتهار حبه لها وقوله فيها . ومنعه عن زيارتها، فلم يتنع، ولا انقطع عن التشبيب بها، فاستعدى عليه السلطان، فأهدر دمه . ثم ازوجها رجلاً من ثقيف او من عُقيل يقال له ورد فجنّ قيس جنونه، وهام على وجهه في البراري يعاشر الوحوش، وينشد الاشعار، ويذرف العبرات، ويترق ثيابه، ويعمى عليه، حتى مات .

٢ - الحوادث المخترعة - خائف شوقي التاريخ في بعض الحوادث وتصرف فيها على هواه . فمنها ما لا معنى له كجعله عبد الرحمن بن عوف والي الصدقات يشفع لقيس عند ليلي وابيها . مع ان التاريخ يذكر ان عبد الرحمن ابى ان يتولى هذه الوساطة؛ وقد تولاها بعده في السنة التالية خلفه نوّقل بن مساحق .

ومنها ما زين المأساة وعظم شأنها كرفعه ليلي الى مستوى البطولة، اذ جعلها ترفض قيساً عندما خيّرَها ابوها فيه . فابت إلا ان تحفظ على الشرف الموروث، والعادات البدوية . ورضيت ان تتزوج الفتى الثقيفي وهي لا تحبه . مع انها في التاريخ اكرهت اكرهاً على هذا الزواج، وهددت من اجله بالتشيل . ولم يكن زوجها عند شوقي اقل بطولة وبذلاً منها . فانه لما تبين حبها لقيس، وشدة كلفها به آلى على نفسه ان يصاحبها مصاحبة الشقيق لشقيقته، فلبثت في كنفه عذراء، كما كانت في بيت ابيها . ولكنها وقت له، وحافظت على شرفه، فردت قيساً كاسف البال، لما ارادها على الفرار معه .

ومنها ما اتخذ وسيلة لختام مأساته كجعله ليلي تموت قبل قيس، مع ان قيساً هو الذي مات قبلها .

واضاف الى هذه الحوادث خبر الجن، وهو من مخترعاته .

٣ الفصل

مكان المأساة بادية نجد، تنتقل من حي بني عامر الى طريق القوافل بين نجد ويثرب، الى قطعة من الصحراء، الى قرية من قرى الجن، الى حي بني ثقيف بالطائف . وتنتهي في مقابر بني عامر .

الفصل الاول - المهدي يطرد قيساً - بينما كان فتيات بني عامر وفتياتهم يتسامرون في اوائل الليل، اذا بقيس بن ذريح الشاعر، يقبل عليهم، ويكلم ليلي في امر المجنون، فتأبى ان تدوس عادات العرب، وتتذمر على مجنونها لانه ذكر ليلة القيل في شعره، وما هي الا لقاء وتحية وابتسامة .

ثم ينقضي السمر، ويظهر المجنون، يطلب ناراً من بيت ليلي، وما وكده الا رؤيتها . فتخرج اليه بالنار، فيحادثها ويلهو عن نفسه . فتسعى النار الى كفه وهو لا يابه لها، وتحرقه فيقع مغمى عليه . فتنادي ليلي والدها، فيأتي اليه ويسعفه، فيصحو . ويؤنبه، ويمرّم عليه دخول داره .

الفصل الثاني - المجنون الهائم - يهيم المجنون على وجهه في طريق اللقوافل قريب من الحي، وقد اهدر السلطان دمه . وراويته زياد يصحبه، وامه تتبعه الحارثية بطعام وصفه العراف ليتداوى به من جنته . ويعبث به اولاد صغار فيهم نجسهم ، ثم يغمى عليه . واذا بابن عوف جامع الصدقات، يقف به، ويناديه فما يستفيق . ويمر ركب الحسين بن علي ، فتضج من تحته البادية، وقيس في اغنامه . ثم تمر قافلة تحموا باسم ايلي فيستفيق قيس على ذكر اسمها . ويعده ابن عوف ان يتحمل به على عمه، فيفرح، ويتهيج .

الفصل الثالث - خيبة ابن عوف - يأتي ابن عوف وقيس الى حي ايلي، فيتسلح الاهلون للفتك بالعاشق حفاظا على شرفهم . فيلاطفهم ابن عوف، ويسكن نائرتهم، ويستلينهم على قيس . ويكاد يظفر بجماعته لو لم يقف فيهم منازل بين معرات الشاعر، وافتضاح فتاة الحي بشعره . فيعاودهم السخط على المجنون ويهمون بقتله . فينبري بشر للدفاع عنه، فيظهر للحي ان منازلهم يحسد قيسا، وانه حض على قتله ليحظى بايلي من بعده . فتحدث ضجة في القوم، ويرسلون الى منازل نظرات احتقار، ويجره زياد الى الخارج ليؤدبه . فيتبعه الناس الا ابن عوف والمهدي والد ليلي ، فانهما يدخلان الحبا . وتأتي ايلي من حجابها، فيقص عليها ابوها خبر ابن عوف، ووساطته لقيس، ويضع الامر بيدها . فتعلن الرفض القاطع صونا للشرف، ورعاية للتقاييد . وتبدي رغبتها في الزواج بورد الثقفي الذي جاء يحطبا منذ حين . فيرجع ابن عوف خائبا حزينا .

الفصل الرابع - زوجة عذراء امينة - المنظر الاول : عاد قيس الى هيامه بعد اخفاق ابن عوف، وزواج ليلي بورد . فضل الطريق، وقاده التسيار الى قرية من قرى الجن . فابصرته طائفة منهم وفيهم شيطانه الاموي، فاقبلوا يحتفون به، ودأوه على الطريق .

المنظر الثاني : يأتي قيس حي بني ثقيف، ويرى ورداً زوج ايلي، فيسأله عنها . فاذا هي لا تزال عذراء، لان ورداً تهيب جها الصادق لقيس، ودفعته شهامته الى ان

يساكنها مساكنة الاخ لاخته . ثم تدخل ليلي، فيتركها ورد منفردين، فيتشاكبان مرارة الفراق، ويرغب اليها قيس ان تذهب واياه ليعيشا معاً، فتأبى ان تجيب سؤله، محافظة على شرف زوجها، ويخرج قيس ساخطاً .

الفصل الخامس - مصرع الحب - ماتت ليلي وجدأ، ودفنت في قبور بني عامر . ووقف الناس يعزون اباهها، ويمرون بزوجها ورد صامتة ناظرة لانه سلبها من تحبه . الا ان والدها المهدي، ينوه بفضل ورد، وحسن معاملته لابنته . وينفض الجمع، فيدخل الغريض المغني، وابن سعيد الشاعر، ورجلان آخران، فيصرون القبر الجديد الذي ضم جثمان ليلي، فيأخذ الشاعر يتحدث الى الميت المدفون فيه، ويذكره ايام الحياة الفانية، ويغني الغريض انشودة الموت، ثم يتوارون ذاهبين الى بني عامر . ويدخل قيس وزيد، فيتلقاهما بشر، ويخبر قيساً بموت ليلي، فيغشى عليه حيناً ثم يصحو، فيقترب من قبرها، فيكب باكياً منشداً . ويأتي شيطانه الاموي، فيطرده قيس لان الشعر الذي اوحاه اليه هو الذي جنى عليه وعلى ليلي . ويحيي ابن ذريح خاشعاً، باكياً على قبر ليلي، معزياً قيساً . ويسمع من جانب القبر هاتف باسم قيس وليلى، فيلبيه المجنون، ويحتضر، ويموت .

٤ اللون العربي

تصطبغ هذه المأساة بلون عربي ناصع، صادق التصوير، تشمل فيه حياة البادية، وحب البدو، وعاداتهم وعقائدهم وسياستهم . فاما حياة البادية، فانها وحشة جافية، لا ترى فيها غير موقد النار وحالب الشاة . ولا تسمع غير راغية تجيبها تاغية (ف ١ ص ٤٥) وهموم الحياة فيها محدودة، واهلها يحفون الى صيد الطبا، والاسد:

وَفِي كُلِّ نَاحِيَةٍ شَاعِرٌ، يُغَنِّي بِلَيْلَاهُ أَوْ رَاوِيَهُ

(ف ١ ص ٦) وطعامهم الرطب والشوا. واللبن (ف ٣ ص ٦٧) .

واما جهنم، فعذري يقتل صاحبه (ف ١ ص ٦) . وقد يكتفي المحبان اذا اجتمعا، بالنظرة والتحية (ف ١ ص ١٤)، واذا جاوزاهما، فالى حديث عف:

وشكوى (ف ١ ص ٢٢)

واما عاداتهم، فهي مبثوثة في نواح شتى، تطالعك بصور متعددة عن هؤلاء الاعراب الجفاة، فهم أباة مفرطون في ابائهم، لا يزوجون من يشب ببنائهم، ويشتهر به هن :

وَمِنْ سُنَّةِ أَلْيَدِ نَفْضِ الْأَكْبِ مِنْ الْعَاشِقِينَ إِذَا سَبُّوا

ويستعدون عليه السلطان اذا الح في الزيادة والتشبيب، فيهدر السلطان دمه .
وفي ذلك يقول قيس :

قُلِّ لِلْخَلِيفَةِ يَا أَبْنَ عَوْفٍ فِي غَدٍ : مَنَذَا أَبَاحَ لَهُ دَمَ الْعَشَاقِ ؟

وينقم عليه الحي باجمعه، فاذا راوه مقبلًا ثاروا لقتله لان عار الفرد يعم القبيلة، والقبيلة باجمعه يلزمها الدفاع عن الفتاة التي شهت .

ومن عاداتهم الشفاعة للعشاق المنبوذين، فالحسين بن علي تشفع لقيس بن ذريح عند ابي لبني، وابن عوف تحمل بالمجنون على والد ليلي . واذا حل بهم الثقيل اوقدوا له نار الطرد :

تَرَلْتُ قَلَمَ أَكْرَمٍ فَهَلْ أَنْتَ مُشْعِي، وَقَوْمَكَ نَارَ الطَّرْدِ حِينَ أَمِيلُ ؟

واذا ضل احدهم الطريق صفق بيديه، ولبس ثوبه مقلوبًا لينبه اليه من يراه فيهديه :

لَقَدْ ضَلَّ الطَّرِيقَ أَمَا تَرَاهُ ، يُصَفِّقُ بِالْيَمِينِ وَبِالشِّمَالِ
وَقَدْ قَلَبَ الشِّيَابَ عَلَيْهِ نَهْجًا عَلَى عَادَاتِهِمْ عِنْدَ الضَّلَالِ

ويختارون الفتاة في امر زواجها اذا كانت فطنة رشيدة، فاخنساء خيرا ابوها في دريد بن الصمة، وليلى خيرا ابوها في قيس .

واما عقائدهم فما تقل في المأساة عن عاداتهم، فهم يؤمنون بالعرافين ويلجأون اليهم في الشدائد . واذا خدرت رجل احدهم دعا باسم من يجب ليزول الخدر كما دعت ليلي باسم قيس (ف ١ ص ٦) ويتشاءمون اذا خلجت العين اليسرى . قال قيس :

خُلِجْتُ قَبْلَ نَلْتِي عَيْنِي أَلَيْدُ مَرَى، وَرَبِيعَ الْفُؤَادِ رَوْعَةَ طَانِرُ

ويكبرون في اذن المعنى عليه ليستفيق :

قَيْسُ لَا بَأْسَ عَلَيْكَ كَبُرُوا فِي أُذُنَيْهِ

ويعتقدون ان لكل شاعر تبعاً من الجن، يوحى اليه . وان الجن بنوا تدمر، وان سليمان الحكيم غضب عليهم، وحبسهم في القلعة والقاهم في البحار (ف، منظر ١) .
واما احالة السياسية، فان شوقي يطلعنا في لمحات صغيرة على العدا. المستحکم بين العلويين والامويين، وضرب بني امية على ايدي المتشيعين وتيقظهم الشديد في مراقبتهم، حتى بات هؤلاء، يعصمون بالثقية (ف ١ ص ٢-٣)

٥ الافرغ والصفات

قيس - لم يبتدع شوقي شخصية قيس ابتداءً، شأنه في شخصية كليوباترا، وانما كان متوكلًا في اظهارها على صاحب الاغاني . فما ذكر ابو الفرج نعتًا او حالة لقيس، الا نظمه شوقي شعراً واثبتته في مأساته . فقيس مجنون اذا ذكرت له ليلى، تاب من خبله وتحدث كأنه اعقل الناس :

إِذَا سَمِعْتُ اسْمَ لَيْلَى ثَبْتُ مِنْ حَبْلِي، وَتَابَ مَا صَرَعْتُ مِنْي الْعَنَاقِيدُ

ويغنى عليه - وما اكثر اغماؤه - فلا يستفيق الا على النداء باسمها . وربما خيل اليه ذلك تخيلاً :

لَيْلَى اَلْعَلْبِيَّ مَجْنُونٌ يُحَيِّلُ لِي ؟ لَا اَلْحَيُّ نَادُوا عَلَيَّ لَيْلَى ، وَلَا نُودُوا

ويجيم على وجهه مصاحباً الضياء والوحش حتى انست به وعظفت عليه . ويطأ التراب حافياً، ممزق الثياب، اصفر اللون، هزيراً . وكان جميل الصورة، وابن سيد الحي :

وَقَيْسُ، يَا اَيْلَى ، وَإِنْ لَمْ تَجْهَلِي ، زَيْنُ السَّبَابِ ، وَابْنُ سَيِّدِ الْحَمَى

ليلى - ترك شوقي لنفسه الحرية في تصوير هذه الفتاة فابداها لنا محبة لقيس . مفخرة به كما يروي التاريخ عنها . ولكنه جعلها مع ذلك محافظة على التقاليد البدوية ، تضحى بجبها من اجل شرفها :

تَصُونُ الْقَدِيمَ وَتَرَعَى الرَّمِيمَ ، وَتُغْطِي الْأَقْلِيدَ ، مَا تُرْجِبُ

وتخلص الوفاء. لزوجها على حبها لقيس، فما ترضى ان تخونه، وتهجر داره. وجعلها البدوية المفاخرة بالبادية، التياهة على الحضرة، الاموية التي ليست بمغزل عن سياسة الاحزاب، مع سكنها البادية، واشتغال قلبها بالحب. الفطنة الرشيدة يعجب بها والدها ويشق بها، ويترك لها الحرية في اختيار زوجها. ويعجب بها بعلمها ويشق بها، ولا يخشى عليها الانفراد مع من تهواه، فيخلى لها المكان.

المهدي - ابو ليلى، سيد من عامر، طيب القلب، لا يحمل حقداً على قيس، ولا يريد به شراً، يخنو عليه حنو النسب على نسيه. بيد انه عربي شريف، تحكمت فيه التقاليد البدوية، فلم يجد منها مناصاً.

ورد - زوج ليلى، احبها بشعر قيس، فشقي بهذا الحب، ولم يلق بالزواج سعادة، لانه رجل شريف، رأى ان قلب ليلى مشغول بسواه، فتورع ان يروح هذا القلب.

بشر - يخرج شوقي لهذا الشخص صورة فيها سخر لطيف، فيرينا فيه الجبن والخوف والادعاء، والحب لقيس. ينتحل شعر المجنون وصيده، وليس له يد فيهما. ويهاجم منازل يريد تأديبه مناصرة للمجنون، ولكنه لا يصنع شيئاً غير التهديد من بعيد.

منازل - غريم قيس في حب ليلى، يحسده عليها، ويسعى في الدس له ليفتك الحلي به. وفيه خبث وجبن، وفصاحة ولسن.

زياد - راوية قيس وصديقه، يدافع عنه.

٦ منزلها

أ محاسنها - وفق شوقي في بعض المشاهد والمفاجآت توفيقاً لا بأس به، مثال ذلك موقف منازل خطيباً في بني عامر يحضهم على قيس، وقد خاف ان تقبل فيه شفاعته ابن عوف. فكان اشبه بانطونيوس عندما اراد ان يمرض الشعب الروماني على

بروتوس قاتل يوليوس قيصر . وكان العامريون قد لانوا لقيس بعض اللين ، فخشي منازل سوء المعبة ان بادر بالطن عليه ، فجهر بدحه واثني على شعره الذي تتلقفه الرواة ، حتى انتهى الى مبتغاه ، وهو ان هذا الشعر السيار كان سبب اقتضاح ليلى ، ولو كان شعر غيره لما تحدث به الناس (ف ٣ ص ٥٢) .

ومشهد آخر لا يعدو عنه الجمال ، وفيه يصور شوقي تضارب العوامل النفسانية في صدر ليلى عندما خيّر لها ابوها في قيس ، فتنازعا عاملا الحب والشرف . ثم اسرع العقل في التغلب على العاطفة فرفضت قيساً . وما ان خلت بنفسها حتى عاودها الضعف ، فتحصرت ولامت نفسها اشد اللوم (ف ٣ ص ٧٢) .

وشعر هذه المأساة يرتفع في مواطن عدّة كتصوير البادية ومقابلتها بالحضر (ف ١ ص ٤ - ٦) . ودالية المجنون عندما استفاق من اغمائه على صوت الهاتف باسم صاحبه . فان فيها كثيراً من روح قيس ، واسلوبه ، وتكراره اسم ليلى (ف ٢ ص ٤٣) . ونونيته الحسنة : تَعَالَى نَعْسُ يَا لَيْلٍ فِي ظِلِّ قَهْرَةٍ (ف ٤ ص ٩٨) . وكان الحتام بيتاً جميلاً له وقع قوي في النفس ، فان المجنون سمع وهو يوت صوتاً من القبر ينادي :

الصوت : قيسُ، ليلى !

فقال :

قيس : . . . رنةٌ في أُذُنِي ، رَدَدَتْ : قَيْسُ وَلَيْلَى أَلْقَوَاتِ
نَحْنُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنْ لَمْ تَرَنَا ، لَمْ تَمُتْ لَيْلَى ، وَلَا الْمَجْنُونُ مَاتَ

٢ مساوئها - عني شوقي باظهار اللون البدوي عناية تذكر فنجح في واضع كثيرة ، ولكنه لم ينبج من التعثر في بعضها . كتعريف ليلى بقيس بن ذريح لسامى وهند ، ومصافحتها اياه . فهذا التعريف فرنجي الطريقة ، لم يعهده العرب ولا المسامون من بعد (ف ١ ص ١) . وكذلك نعت قيس بالأديب ، مع ان هذه اللفظة لم تكن معروفة بهذا المعنى ، في صدر الاسلام ، وانما هي من وضع العباسيين .

وهناك اشخاص عديدون لا قيمة لادوارهم في المأساة كدور قيس بن ذريح ،

ودور الغريخ واصحابه، ودور الاموي وقرية الجن . فكلهم متطفلون يفسدون على القصة تساوتها وارتباطها، حشرهم شوقي حشراً ليملاً فراغ الفصول بالحوادث . والعقدة غير بارعة الاحكام والحل لا طراد سيرها التاريخي، وسيطرة الحوادث التافهة عليها ، وقلة خطر الدسائس، وضعف المفاجآت . فان دسيمة منازل ما ولدت حتى ماتت . وشعرنا بانتهاؤ المساة عند ما أبت ليلى ان تذهب مع قيس ، واذا بالمؤلف يبددها ليميت العاشقين (ف ، ٤ منظر ٢) . ولم يكن في نقل بشر خبر موت ليلى الى المجنون ما يثير النفس لضعف الاداء والمناقلة . فهذه المساة رديئة الفن المسرحي في الجملة، واسوأ ما فيها تطفل الحوادث واحتشادها .

قبيز

(١٩٣١ م)

« مقدمة الى الامير فاروق، مذيابة بنظرات تحليلية، مثلت على مسرح رمسيس في السنة نفسها . »

١ موضوعها

استقى شوقي موضوعه من تاريخ مصر القديم، في القرن السادس قبل المسيح . ومداره ان قبيز ملك الفرس ارسل يخطب نفريت بنت امازيس فرعون مصر . فابت الاميرة ان تترك موطنها الى بلاد غربية . وكان من المحتم ان يثير رفض نفريت غضب قبيز فيغزو مصر . فحفر حب الوطن اميرة مصرية اخرى الى تقديم نفسها لقبيز باسم نفريت، وهي الاميرة نتاس بنت أبرياس فرعون مصر السابق (ف ١) . وكان في الجيش المصري قائد يوناني، اسمه فانيس، قد خان مصر والتحق بالجيش الفارسي . فأخبر قبيز بحقيقة زوجه ، وانها نتاس لا نفريت ، فغضب الملك، وعول على غزو مصر واخضاعها (ف ٢)

وكان امازيس قد مات ، وتملك بعده ابنه بساماتيك . فيغزو قبيز مصر ، ويفتحها، ويخضع بساماتيك ويأخذ عليه العهود . وتنتحر نفريت تكفيرا عن ذنبها الى مصر . ويعلم قبيز ان بساماتيك نقض العهد، واخذ يؤلب القرى والمدائن ويدعوهم الى الثورة، فيأتي به، ويهدده، ويأمر بسجنه . وتدخل عليه زوجه نتاس تستطفه في مصر، فيطردها . فتلقت الى فانيس وتقول له متهمكة :

مَوْلَاكَ كَمْ تَخْدَعُهُ ، مَوْلَاكَ كَمْ تَسْخَرُ بِهِ !

فيثور قبيز، ويقتل القائد اليوناني . ثم يقتل احد قواده لانه اشار عليه بالرفق؛ ويقتل بعده العجل أليس معبود المصريين . ثم يستيقظ ضميره ، وتبدو له اشباح قتلاه

وفيهم اخوه واخته، فيطبق عليه الجنون، فينتحر . ويسدل الستار على اربع جثث صريعة .

٢ منزلها

١ محاسنها - اعطانا شوقي صورة صادقة تنطق بعصية نتاس لمصر، فان وطنيتها مأموسة في جميع اجزاء المأساة . وكذلك احسن وصف حالة مصر قبل الفتح الفارسي، وتقلب العنصر الغريب على الجيش المصري، ولاسيا العنصر اليوناني، وضعف الروح الحربي في نفوس المصريين، وانغماسهم في الترف واللهو . ووفق في تمثيل جنون قبيز وشجاعته ووحشيته .

٢ عيوبها - في هذه المأساة عيوب كثيرة، فان العرض في الفصل الاول، استوعب خمسين صفحة، ومجموع صفحات القصة مائة وخمس وعشرون . وهو مقسوم الى ثلاثة مناظر شغلها المؤلف باشياء يستغنى عنها كشكوى نفريت لابيها في المنظر الاول . وولاية الوفد الفارسي وما تحللها من سحر واحلام، في المنظر الثالث . فان الشكوى باردة، حقيرة الاثر . والولاية متطفلة لا عمل لها الا ان تقطع سير العمل القصصي، وان بدا فيها اللون المحلي قويا .

والفصل الثالث جعل منظرين، اولهما لا يزيد على صفحة واحدة، حيث تبدو نفريت على ضفاف النيل، تذكر بايات سخيفة انانيتها، وما جرت على مصر من الويل والحرب، وتلقي بنفسها الى النيل . وكان الاولى بالمؤلف ان يحذف هذا المنظر البارد، لانه اشار اليه في المنظر الثاني .

وفي القصة شخصان شأنهما خطير، وليس لهما عمل يذكر . احدهما نفريت هذه، والثاني تاسو حبيها وجيب نتاس . واذا كان المؤلف اضطر الى اظهار نفريت لتأثير رفضها في محور المأساة، فما شأن تاسو وما تأثيره؟ فقد جعل الاميرتين تتهاكمان على حبه، ولم يخلق له عملاً جديراً بهذا الحب . والأقبح ان وجوده شوه جمال التضحية، وهبط بسموها . فان نتاس تعترف وهي في بلاد الفرس، انها هجرت وطنها من

اجل تسو الذي هجرها ؛ مع ان المأساة قائمة على رمز التضحية الوطنية :

وَمَنْ هَجَرْتُ وَطَنِي ، لِأَجَلِهِ حِينَ هَجَرْتُ

والعقدة غير متينة الاحكام، فانها تشتت وتندحل، دون ان تبعث في النفوس خوفاً او تشوقاً . فقد مهد لها المؤلف في الفصل الاول بزواج نتاس بدلاً من نفريت . وجاء فانيس بلاد فارس في الفصل الثاني، فاشياً سر هذا الزواج، فعرف قبيز الحقيقة، وعرفت نتاس افتضاح امرها، ومضى كل هذا بسرعة الخاطر، ووثباته ؛ فضعف شأن الدسيسة، وضاع اثر المفاجأة . وفي الفصل الثالث تظهر مصر مفتوحة، وقبيز مالك عليها فلا يبقى من تلك العقدة الرخوة الا ان يبيع قبيز، ويفرش المسرح بالضحايا، ثم ينتحر .

علي بك الكبير

او دولة المماليك

(١٩٣٢ م)

« قدمها المؤلف الى مؤتمر الموسيقى الشرقية في القاهرة في ١٤ اذار ١٩٣٢ .
« ومثلتها فرقة فاطمة رشدي على مسرح الكورسال في الشهر نفسه، والسنة نفسها .
« وذيلتها جريدة البلاغ المصرية بنظرات تحليلية . »

١ موضوعها

جرت حوادث هذه المأساة حوالي سنة ١٧٧٠ م . مكانها الفسطاط والصالحية وعكا . وموضوعها مستمد من تاريخ مصر يوم كانت ولاية عثمانية، والسلطان فيها للمماليك ، يتولون مشيخة البلد، واليهم يرجع الامر والنهي . وكان شيخ البلد يومئذ علي بك الكبير، فطمع في الاستقلال بصر، فثار على الدولة العثمانية وهي مشتغلة بحاربة روسية . وكاد يظفر بامنيته، لو لم ينجنه اقرب الناس اليه؛ صهره محمد ابو الذهب، ومملوكه مراد بك . فالتجأ الى ضاهر العمر صاحب عكا، فاعانه هذا على استرجاع ملكه، وامده بالعسكر، ولكن نجمه كان قد اقل فاخفق في مسعاه، واسر وقتل . وحافظ شوقي على الاحداث التاريخية كل المحافظة الا انه زاد عليها خبر الجارية أمال وزواج علي بك منها ، وتعشق مراد بك لها ، دون ان يعلم انها شقيقته، وخيانتة مولاه من اجلها . والحقيقة ان مراد بك كان يهوى نفيسة امرأة علي بك، وخانه من اجلها، ولكنها لم تكن شقيقته كما جعلها شوقي في قصته .

٢ منزلتها

أما لها - في المأساة تصوير بليغ لدولة المماليك، واستبدادهم وغدرهم، ثم

لتمرد الجارية أمال على الرق عندما عرضها أبوه للبيع وأراد علي بك أن يشتريها ، حتى إذا رأى منها هذا التمرد أعجب به ، وتزوجها حرة . وفيها صور شتى لشجاعة علي بك وحزمه وإقدامه ، وكرم أخلاقه ، وعطفه على الفقير .

٢ ما عليها - تقوم العقدة القصصية على موضوعين أحدهما الموضوع التاريخي وهو ثورة علي بك وأخفاقه ، والآخر الموضوع الأدبي ، وهو حب مراد لأمال ، وحبها له ، وجهلها انهما شقيقان . ولا ينبغي ما في هذا الازدواج من ضعف الفن لأن موضوع المأساة في الأصل علي بك الكبير ، فعليه وحده كان ينبغي أن تبنى العقدة ، وتتسلسل منها الحوادث والمفاجآت إلى أن تنحل . وأما حب أمال ومراد فهو موضوع آخر يصلح لمأساة مستقلة فامتزجه بثورة علي بك لا مسوغ له البتة .

وأظهر المؤلف أمال يظهر الزوجة العفيفة التي تحافظ على شرف بعلمها ، فلم تحنه مع حبها لمراد . غير أنه لم يوقعها في أخطار جسيمة وأشراك ودسائس لتثير الروع والاعجاب في النفوس . وكان التعارف بينها وبين أخيها بارداً لا يبعث الحرارة في الصدر ، فإن والدهما مصطفى الخامس عندما أنذره الموت ، رأى من الخير أن يتعارفا ليكف الأخ عن التصدي لأخته . ولكن شوقي لم يفلح في إرسال هذا الانقلاب على جلال شأنه ، فجاء غثاً متثاقلاً . وسبب ذلك أن مراداً سبق والده إلى التعريف ، فنفى عن الموقف جماله الطبيعي (ف ٣ ص ١١٢) .

ويفرغ المسرح في الفصل الثالث حين يخرج مراد وأمال بجثة والدهما ، ويدخل بعدهما علي بك مجروحاً . وفراغ المسرح دون إشارة من الخارجين تدل على مجيء أشخاص آخرين من العيوب التمثيلية عند أصحاب الفن . وعلى الجملة فعيوب هذه المأساة أكثر من فضائلها .

اميرة الاندلس

(١٩٣٢ م)

« تم طبعها في اول تشرين الثاني سنة ١٩٣٢ م »

١ موضوعها

هذه قطعة من تاريخ الاندلس في زمن ملوك الطوائف ولدت حوادثها ونمت في اشيلية عاصمة العباديين بالاندلس . وانتهت في اغمات بلد على مقربة من مراكش بالمغرب الاقصى . وموضوعها ان الاميرة بثينة بنت المعتمد بن عباد صاحب اشيلية، زارت قرطبة بثياب غلام، قرأت فتى في السوق يشتري كتباً، فحادثته وحادثها، على انها فتى مثله، وافترقا وقلبا مشغول بهوا . وخطبها سير بن ابي بكر وزير يوسف ابن تاشفين ، امير المرابطين . فردت يده، ومجثت عن فتاهها حتى عرفته فاذا هو حسون بن ابي الحسن التاجر الاشيلي، فزارته في داره متنكرة بالزي الغلامي الذي عرفها فيه . فرحب بها، وفيما هو يروي خبر مقتل اخيها الظافر في قرطبة، اغمي عليها وانسدل شعرها، فتابين حقيقة امرها، وتعشقا كما تعشقتهم .

ثم غزا يوسف بن تاشفين الاندلس ، وازال عنها ملوك الطوائف واعتقل المعتمد ابن عباد وأسرتهم، وارسلهم الى اغمات . الا بثينة، فقد سبها مغربي، فعرف ابو الحسن التاجر مقرها، فاشتراها، وجاء بها الى ابنه حسون . فابت ان تتوجه الا برضى ابيها وامها، فسار بها الى اغمات حيث تم الزواج .

٢ مآزرها

قد يصح على هذه المسرحية ان نسميها مناظر تشيلية ، لما فيها من المشاهد والفصول المستقلة المتقاطعة . واما ان نسميها مأساة بالمعنى الفني المعروف، فهذا تجوز

عظيم لا مسوغ له . واي مأساة تدعى ؟ وليس فيها عقدة معروفة ، ولا قصة متسلسلة الحوادث ، موحدة العمل . وانما هي اخبار مبثوثة لا يكاد يجمع بينها جامع . اخبار ابن عباد على اختلاف حوادثها ، ونواحيها ، جمعها شوقي من التاريخ على علاتها ، ووسمها بسمه المآسي بالرغم من انف الفن . فكان الاختلاط والاضطراب وضعف التأليف اعظم ميزاتهما .

ولا تحاول ان تتوسع في تحليلها ونقدها ، لانها لا تستحق هذه العناية ، وانما تعرض ما فيها من تراكم الحوادث وتقاطعها ليكون المطلع على بيئة منها . فالفصل الاول يشتمل على ثلاثة مناظر لا يحتاج موضوع القصة الى سوى الاول منها . اما الثاني ففيه وليمة الوفد الاسباني ، ومقتل ابن شاليب وزير الفنس ، فلا معنى لاقحامه في المأساة . والمنظر الثالث منقطع عن الاول والثاني بتزهة نهريه خارجة عن الموضوع . اما الفصل الثاني فخارج عن الموضوع برمته ، فما سرقة كنوز طليطلة ونكبة ابي الحسن التاجر من قوام المأساة ، بل كلاهما يستغنى عنه .

والفصل الخامس يحتوي ثلاثة مناظر ، احدها بالاندلس وفيه سبي بثينة ونجاتها ، والآخران في اغمات . فلو اكتفى شوقي بالآخرين لكان اولى . لان بثينة روت لايها خبر سببها ، فلا حاجة الى ذكره قبلاً ، لولا شغف المؤلف بالاكثار من الحوادث المختلفة ليملاً بها الفصول .

وهذه المسرحية نثرية ، واضحة الانشاء ، سهلة العبارة ، خالية من التكلف ، الذي تعمده شوقي في اكثر نثره .

عنترَة

(١٩٣٢ م)

« تم طبعها في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٢ »

١ موضوعها

وقعت حوادث هذه المساة في اواخر العصر الجاهلي ، في احياء بني عبس وعامر ،
بيادية نجد . وموضوعها مستقى من سيرة عنترَة بن شدّاد العبسي ، وما كان من حبه
لعيلة بنت عمه مالك ، وكلفها به لشجاعته وفصاحته ، وشهامة نفسه ؛ مع انه عبد
اسود انكره ابوه ، وابي عمه تزويجها به .

فاتفق مرة ان غزي الحلي ، وسيات النساء ، ونهبت الاموال . فاستغاث شداد
بابنه ، والحقه بنسبه ، فكرر ، واستنقذ السبايا والنعم ، وهزم الاعداء . ولكن والد
عبلة لبث مكابراً لا يرضى به صهراً ، ولا يرد يد ابنته عن طالب ، رجاة ان يتخلص
منه ، جاعلاً رأسه صداقها . وعنترَة يفسد عليه خططه ، وينزل بأخطاب الويل والحرب ،
حتى تزوجها بالرغم منه .

وهذه الحوادث اقتطفها المؤلف من مواضع شتى في السيرة ، وغير في الاسماء
وبدّل ، وزاد من عنده ، حب ناجية لصخر العامري خطيب عبلة ، وزواجهما بجيلة
مفتعلة . وذلك ان عشرين فارساً من بني عبس ، كلفوا حراسة عبلة ، في طريقها الى
بني عامر ، ليتزوجها صخر ، فتصدى لهم عنترَة ، وانقذها ، بعد ان مكّن سيفه منهم
فقتل بعضهم ، وفر الباقون . وكانت ناجية ، وهي فتاة من عبس ، تحب صخراً ،
فخلعت عليها عبلة خمارها ووشياها ، واركتها هودجها ، وارسلها عنترَة الى بني عامر
مع بعض اصحابه ، فدخلت خباء صخر وهو يظنها عبلة .

وفيا بنو عامر يولون ولائم العرس ، هبط عليهم عنترَة ، فدعروا ، وتطايروا من

امامه . وكانت عبلة معه، فقضى العبيسون عن ابيها، بزواجها من عنزة . وقضى
عنزة على صخر بان يتزوج ناجية، فاذعن مستخدياً، وقامت الافراح .

٢ منزلها

ليست هذه المأساة، نجير مآسي شوقي، ولا بشرهن ، فهي بارعة في تحليل
الاشخاص والعادات، الا ما كان من دعوة عبلة الى الوحدة العربية ، ومكافحة
الاستبداد الاجنبي . مشحونة كغيرها بالحوادث الطفيلية، ضعيفة الارتباط ، مبتدلة
المبارزات . بيد انها لا تخلو من المشاهد الرائقة كتحرير عنزة، ودفاع عبلة عن حبها
متمردة على ابيها واخويها، ودعوتها العرب الى الاتحاد . ثم المفاجأة التي كان بها
حسن الختام .

نظرة عامة

في مآسي شوقي

شوقي والتاريخ

بني شوقي مآسيه على حوادث التاريخ ، وادخل في بعضها الاساطير واخرافات « مجنون ليلى . قبيز . عنتره . » غير انه كان يراعي الجانب القصصي احيانا ، فيغير في الاحداث التاريخية ويبدل ، ويقدم ويؤخر . الا ان الاختراع ضعيف في الجملة ، فالتاريخ هو المسيطر على العقد والمفاجآت المسرحية . ويلام شوقي انه لم يتورع من تشويه الحقيقة التاريخية في بعض المواضع . فقد جعل عبلة « عنتره » تدعو الى الوحدة العربية وخلع نير الاعاجم . مع ان الجاهلي لم تخطر في باله هذه الاشياء ، ولم يتجاوز القبيلة بعصبيته . وجعل ابن عوف يشفع لقيس ، مع ان الذي شفع له نوفل بن مساحق « مجنون ليلى » وليس من داع قصصي يسوغ هذا التغيير .

ومآسيه على لونين من التاريخ احدهما مصري « كليوباترا ، قبيز ، علي بك الكبير » والآخر عربي « مجنون ليلى ، اميرة الاندلس ، عنتره . »

شوقي وفوانين ارسطو

لم يتقيد شوقي بوحدتي المكان والزمان بل كان ينتقل حراً من موضع الى آخر ، وربما استغرق هذا الانتقال شهراً او اقل من شهر ، او اكثر . ولئن ابيح للكاتب المسرحي ان يتمرد على ارسطو في هاتين الوحدتين ، لم يبيح له ان يفتنت على وحدة العمل كما فعل شوقي في مآسيه .

الدهل

عني شوقي بالاكثار من الحوادث في فصول مآسيه ، فاذا هي عنده أظهر من

تصوير الحياة وتضارب العواطف والاهواء . وفاتها الارتباط والتساق ، فاضفت
العقدة، وفسدت العمل ، وهبطت بالفن التمثيلي هبوطاً مشثوماً لا حد له . فأنى
تئينتها تجد معها المعرفة والضرر ، ولولاها لكانت سقطات شوقي هينة يسيرة ، ولما
نعيت عليه مآسيه . واليك البيان :

١ يتطفل على الموضوع خبر دخيل يرافقه ولا يترج به « مصرع كليوباترا » .
٢ تتوزع العقدة بين خبرين لا يتحدان اتحاداً قوياً ، فيبدو عليها الضعف
والاسترخاء . « علي بك الكبير » .

٣ يُحشر في العرض حوادث غريبة عن العمل ، لا علاقة لها بما يأتي بعدها « مصرع
كليوباترا ، اميرة الاندلس » .

٤ يعترض الفصول اشخاص طفيليون لا قيمة لادوارهم ، وحوادث خارجة عن
الموضوع ، لا عمل لها الا ان تقطع العمل : « مجنون ليلى ، قبيز ، عنتره ، اميرة الاندلس » .
٥ تستأنف المأساة بجزء جديد بعد انحلال العقدة « مجنون ليلى » .

فاتفق الحوادث المختلفة على العمل ، اودى بوحدته ، وحال دون العقدة ، فقطع
اوصالها ، وصد الجاذبية عنها ، فلم يتسلسل تيارها في الفصول .
واذا اضفنا ضعف المفاجآت المختلفة ، وخنوع اكثرها للتاريخ ، وسيرها في ركابه ،
تئينت جلياً ضالة تأثير العقدة في النفوس .

ونهاية مآسي شوقي فواجع ونكبات ، وقتلى وصرعى ، ما عدا عنتره واميرة
الاندلس .

الافراد

وفق شوقي في تصوير اخلاق اشخاصه وعاداتهم ، توفيقاً يحمده عليه ، ولاسيا في
مصرع كليوباترا ، ومجنون ليلى ، وقبيز ، وعلي بك الكبير . فأرانا الحب والبغض ،
والشجاعة والجن ، والوفاء والخيانة ، والظلم والحلم ، والشرف والوطنية ، وجمال
العواطف وقبحها . الا ان اشخاصه ليسوا باشخاص الانسانية ، يرافقون الاجيال
والاحقاب ، وانما هم يميون ويموتون في عصورهم .

الحب

يحتذي شوقي على مثال كورنه في اظهار الحب وتصويره، فهو مقيد بالعقل ابداءً، خاضع للواجب . فكليوباترا لم تتخرج من خذل حبيبتها مراعاة للسياسة المصرية . وليلى رفضت قيسا محافظة على التقاليد البدوية . وورد خنق عاطفته ملبيا داعي الشهامة والمروءة « مجنون ليلى » . وأمال حبست نفسها عن مراد وفاء لزوجها « علي بك الكبير » . وعبلة ابت ان ترف الى عنقرة دون رضى ابيها . وبثينة لم تتزوج حسونا الا بعد ان استسلمت الى ارادة والدها « اميرة الاندلس » . على ان هذا الحب لا يبدو عظيماً يخضوعه للواجب الا في مجنون ليلى ، ويعود ذلك على ضعف اثر التضحية، اما لحقارة العقبات التي تحيط بها، « علي بك الكبير » . واما لقلة خطرهما، « كليوباترا » . او لحسن نقيجتها، « عنقرة، اميرة الاندلس » .

والحب في مآسي شوقي لا تتصور فيه الغيرة، مع ما لها من القوة في توجيهه وإلهابه . وهو خالٍ من الظرف والنعومة والدلال . وخالٍ من تصوير اللوعة والحزن، وتفاعل العواطف في حالة البعد والحرمان .

الوطنيات

تتشمل مآسي شوقي على مغازٍ خلقية نبيلة، كالتضحية في سبيل الوطن « كليوباترا، قبيز » . وفي سبيل الشرف « مجنون ليلى، علي بك الكبير » . وكالسعي الى الوحدة القومية، والاستقلال، وخلع نير الغريب « عنقرة، علي بك الكبير » . فكانه يمثل في ذلك حالة مصر خصوصا، والشرق الاسلامي عموماً .

وفيها الثورة على الرق، وتقييح الظلم والغدر « علي بك الكبير » . وفيها وخز الضمير، والم النفس النادمة « قبيز » . وفيها مغبة الاثم، وعقاب الجريمة « كليوباترا، قبيز » .

وفيها تصوير بليغ للشجاعة والمروءة والوفاء والحلم، وعزة النفس، وعلو الهمة،

وسراها من السجايا الحسنة . وفيها كثير من المواعظ وآداب النفس ، التي طالما شغف بها شوقي وبتها في شتى قصائده .

الشعر

غلب النوع الغنائي على شوقي حتى في مآسيه، فاصطبغ به اشخاصه فاذا هم غنائيون مثله، يحتفلون بالقصائد الوجدانية الموسيقية، اكثر من احتفالهم بفن التمثيل . وقد ارتفع شوقي في كثير من هذه القصائد، فكانت له المقطعات الجميلة، والابيات المقلدة، والوثبات الرائعة، والايجاز المحكم في تأدية المعنى .

وشعره يرافق المواقف العاطفية، فيلين في موضع اللين، ويشدد في موضع الشدة، فاجتمعت له الرقة والجزالة، والنعومة والصلابة . وتطفو عليه المعاني، والصور والتشابه البدوية، في قصص البادية « عنزة، مجنون ليلي » . وهو على تقلب احواله رائق الديباجة، واضح الغرض، بعيد من الغريب المستوحش .

ولشوقي الفضل الذي لا يجحد في اخضاع الشعر للتمثيل، بعد عصيانه على متقدميه . فقد حرره من رق الخليل، فخالف في الانواع . فكانت له القصائد، والمقطعات، والتوشیحات، والمسّمّطات، والمزدوجات . وخالف في الاوزان فكان ينتقل من بحر الى آخر في المشهد الواحد . وخالف في القوافي فكان يثب من روي الى روي متى شاء . فاتسع له مجال القول، وانطلق عنده عنان الفكر والخيال .

ما أدرك عليه

كان شوقي كثير المعارضة للمتقدمين، راوية لأشعارهم، فقادته ذلك الى التوكؤ على معانيهم سواء في معارضاته او في سائر اقواله . فكثرت عنده المعاني المطروقة، والصور المقلدة، تحتشد حولها وجوه واجيال من طوائف الشعراء . وقد يحاول اخفاء سرقة في اخراج المعنى عن اصله فما يستقيم له الامر كقوله يرثي الملك حسيناً الهاشمي :

لَكَ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ مَا تَمَّ، قَامَ فِيهَا أَبُو الْمَلَائِكِ هَاشِمٌ

فهذا المعنى مأخوذ من قول ابن النبيه :

مَاتَتْ فِي الْأَرْضِ لِكِنَّهَا عُرْسٌ عَلَى السَّبْعِ الطَّبَاقِ الشِّدَادُ

وقول ابن النبيه اجود واصح . فقد جعل الارض في ماتم لان الميت فارقتها . وجعل السماء في عرس لان الميت حلها . اما شوقي فاراد ان يوكد من المعنى شيئاً جديداً لم يقله سابقه، فجعل الارض والسماء في ماتم على السواء . وهذا لا يصح الا اذا كان طريق الميت الى النار، رحم الله الحسين .

ويدرك عليه في هذا البيت قوله : قام فيها، والصواب قام بها . يقال قام بالامر لا قام فيه . وقوله : ابو الملائك والصواب ابو الملوك او ابو الاملاك . ونُقِبَ هاشم ابا الاملاك لان منه خرج ملوك العباسيين والطالبين . واما الملائك فجمع ملك اي الروح السماوي . وغلط شاعرنا في جعله هاشماً يقوم بماتم الحسين في السماء لان هاشماً مات جاهلياً، ولم يدرك الاسلام، فليس له ولاية عند الله ، فترتفع منزلته في الجنة، فيتولى مثل هذه الحفلات .

والعثرات اللغوية كثيرة في شعر شوقي نجتزئ منها بقدر قليل قال :

وَأَحْمَرًا مِنْ خَفَرِيهِمَا خَدَاكَ

والصواب، من خفرهما اذ ليس لكل من خديها خفر يختلف عن خفر الآخر .

وقال :

أَنَا مَنْ بَدَّلَ بِالْكَتَبِ الصِّحَابًا ، لَمْ أَجِدْ لِي وَافِيًا إِلَّا الْكِتَابَا

ووجه الكلام : انا من بدل الكتب بالصحاب . وقال في قبيز :

أَسْفَا عَلَى الْفِتْيَانِ أَيْنَ حَمَاسُهُمْ ، قَتَلَ النَّعِيمُ حَمِيَّةَ الْفِتْيَانِ

وانما يقال الحماسة لا الحماس ، والحماس شجر . وقال في علي بك الكبير :

بَعْضُ التِّجَارِ الْجَوَالِبِ

والجوالب لا يستعمل الامع النساء، او غير العاقل . وقال في كليوباترا :

أَرَّ الْبُهْتَانُ فِيهِ ، وَأَنْطَلَى الزُّورُ عَلَيْهِ

فانطلى الزور عليه من كلام العامة . وقال فيها :

فَلَمَّا أَصْبَحَ الصُّبْحُ أَنْتَبَهْنَا نَرَى الْأَسْطُولَ أَزِينًا مَا تَرَاءَى

يقال : اصبح فلان : دخل في الصباح . ولا يقال اصبح الصبح . وقال :

بَطَلَ الْمَرْقِ قَدْ بَكَتَكَ الْمَعَالِي ، وَرَثَاكَ الْوَقِيُّ وَالْأَخْصَامُ

والخصم لا يجمع على اخصام .

ويؤخذ عليه اكثره من استعماله في الاشارة شأن المتنبي وهي ضعيفة في الشعر .

ولم يسلم من الغلو المستكره كقوله يصف قذائف الاتراك :

قَذَائِفُ تُخَشَى مُهْجَةُ الشَّمْسِ كُلَّمَا عَلَّتْ مُضْعِدَاتُ ، أَنَّهُمَا لَا تُصَوِّبُ

وله معان بادية السخف والزراية كقوله في رثاء محمد علي زعيم الهنود المسلمين :

وَقَبَاؤُهُ نَهَجُ الْهُنُودِ فَهَلْ تَرَى دَفَنُوا الرَّعِيمَ مُكَفَّنًا بِمَبَايَةِ

وربما خرج على اصول العروض وقوانينه ، فألحق العيوب المستكرهه بقوافيه

كثائته في لبنان، فانها مشوبة بسناد الردف . او استباح الاوزان فكسرها كقوله :

مَنْ نَسِيَ السَّلْفَ وَخِدْمَتَهُ ، لَمْ يَذْكُرْ فِي غَدِ الْخَلْفَا

فقد اورد القبض اي حذف الحرف الخامس ، فجاء تفعيل الجزئين الاولين فاعل ،

فاعل . والقبض لم يسمع في هذا البحر .

السلوب

لا تخطى أسلوب شوقي اذا تتبعته في تعابيرها، والفاظه وصوره وانتقالاته، على ما في شعره من رسوم ووجوه لشعراء مختلفين. فأسلوبه بادي الشخصية وان تكاثرت عناصره الغريبة، وشخصيته بينة الطابع، وان تكن في جملتها مستعارة. فلشوقي الديباجة المشرقة، والرنة الموسيقية، والاستهلالات البارعة، والالفاظ البراقة الصخابة البليغة الوقع في النفوس. والتشابه المترفقة الناعمة، يستمدّها من الطبيعة الباسمة، والقصور الضاحكة، ومن وسوسة الحلى والجواهر، ومن الحياة الزاهية المبتهجة التي يشعر بها كل الشعور: « كأن أسما البشرية او العيد . »

ويفرط في ذكر عيسى ومريم والملائكة والانبيا، والصحابة وعظام التاريخ، والاسلام والمسلمين، والتوراة والانجيل والقرآن، والصليب والهلال، والجنة والخلد، والحور والولدان، والشمس ويوشع، والاخلاق، والعبقرية، والرفيف والررفرف، والضجيج، والبناء، والحائط والشراع، والجناح.

ويكثر في كلامه من الاستفهام:

رَبَّاعُ الْخُلْدِ وَيَحْكُ مَا دَهَاها؟ أَحَقُّ أَنَّها دَرَسَتْ أَحَقُّ؟

وربما انقطع عن الخبر ليثب الى الاستفهام تعمداً:

رَفَعُوا لَوْلَبَها فَأَنْدَفَعَتْ، هَلْ رَأَيْتَ الطَّيْرَ قَدْ زَفَّ وَحَامًا^(١)

ويجفل شعره بالاشارات الى الحوادث التاريخية المشهورة، وخصوصاً ما يتعلق منها بالاديان، وبتاريخ الاسلام. ولا يخلو من غموض، اما لالتباس ضمائره، او لقصر الفاظه عن اداء معانيه، او لبعده استعاراته وكنائياته، او لتعسفه في ابراز فكرته. فهو من هذا القبيل يشبه المتنبي وابتاعه.

(١) لولبها: الضمير يعود على الطيارة. زف الطائر: رمى بنفسه او بسط جناحيه

وقصائده متعددة الأغراض، وان دل عنوانها على غرض واحد . فقد يمدح ، او يرثي، او يصف طيارة، فيدخل في مدحه وراثته ووصفه، السياسة والتاريخ، والاجتماع والنصائح، والوطنيات والدينيات، وغير ذلك مما يحدث عنه كيمياء عجيبة التركيب، تخرجها شاعرية غريبة الوثبات، مكهربة التوليد، ملونة الانتاج .

مزلته

مسحت ربة الشعر احمد شوقي بزيت العبقريه، ونضحته بماء الخلود، ثم القته الى الشرق شاعراً ضنت بامثاله قروناً طوالاً . وحرصت على تنشئته، فاتاحت له ثقافة حسنة رفعت مستوى تفكيره، وذلك له اسفاراً عديدة، تعهدت بالغذاء موفور خياله . الا ان الهمة القدر خانتها فيه، وعكست آمالها من حيث حققت آماله . فما ان انتفض جناحاه، وزف للطيران في افق الوحي الطليق، حتى لوحت اليه بقفص من ذهب، فاغرته به، وخطفت ابصاره بلعانه . فعشا الى ضيائه لا يبصر ما عداه، وارضى السجن الموصد على الفضاء الفسيح، والتزّي في القضان على التحليق في الافلاك . فطوى جناحيه وهما على اشد ما يكون حاجة الى الانطلاق . واذا به في قصر الامير لا يرى من الشعر غير المدح والثناء . وما يشبه المدح والثناء . فجنى عليه البلاط ما جنى من قبل، على المتنبي والبحري وابي تمام . وصرفه كما صرفهم الى شعر الحفلات والمآتم . فكان شاعر الامير وامير الشعراء، والشاعر المترف المنعم، وكان ايضاً شاعر العبقريه المسجونة، وشاعر التقليد والمحاكاة .

وشاء القدر ان ينفى عن مصر، ثم عاد اليها لا ليتصل بالقصر، وقد انقطعت ما بينهما الاسباب، وانما لينشد تلك الحرية التي اضعها في شبابه، وليتصل بالشعب ويلبس جراحاته بعد ان كان لا يتبينها الا عن بعد . فاجتمع له في الوطنيات، والدفاع عن مصر والاسلام والشرق شي . يحمد عليه .

وكانه اراد ان يستعيز بما خسره وهو في البلاط، فنشط الى الاغراض التي باسرها في صباه، فنظم اساطير القرون، ونظم القصص التمثيلية . فكانت اواخر سنه اخصب ايامه، واشرفها انتاجاً . وانه وان لم يبلغ بالتمثيل غاية الفن والاتقان، لقد فتح طريقه للشعراء، وذلك لهم البحور والقوافي . وكان كالفرس الكريم يجيد الاحضار مها يطل عليه المجال . وقلما وفت الشاعرية لصاحبها كما وفت له في شيخوخته .

ولو تُقيمت لها الحرية في الشباب كما تُقيمت لها في المشيب لجاءت بالعجب العجائب .
ولأدنى صاحبها رسالة عبقريته بمخادفها .

وطارت لشوقي شهرة في حياته، لم يطر مثلها الا لافذاذ الشعراء المتقدمين . فان منزلته عند الامير جعلته قبلة الانظار ، وحديث المحافل . فكان اسمه يتردد على الافواه ويجول في الحواضر . وقصائده، لا تنشر في الصحف الا متوجة بتقدمات الثناء والاطراء . ولم يكن النقد الادبي قد نهض يومئذ، فكانت كل قصيدة له عصما، وكل نفثة من نفثاته سحر البيان . فكثرت رواة شعره، والمعجبون به، وقل من نظر الى انتاجه، فراه دون ما يرجى من شاعر مثله .

فلما تناهى شوقي عن عابدين، وعاد من الشعب، كان النقد قد تقدم تقدماً محسوساً، فانبرى الادباء في مصر ولبنان وسورية واميركة، يروزون اقواله، ويتلمسون مواطن الضعف فيه ، وينعون عليه تقليده، فتصدى لهم جماعة من نصرائه ينقضون اقوالهم، ويذودون عنه، ويبالغون في تفضيله . حتى عقد بعضهم الجوائز لمن يعارضه ويبيده^(١) . فاحتدم الجدل في ما له وما عليه، واتسع مجال القول على خصومه ومريديه، فكان خلافهم فيه سبياً قوياً لتوطيد شهرته، كما وطد الخلاف من قبل شهرة المتنبي والبحثري والبي تمام . اضيف الى ذلك مبايعته على ايمارة الشعر في حفلة حافلة بالشعراء والادباء . وطبع اثاره طبعاً عاماً متقناً، وطبعاً مدرسياً خاصاً، مما سهل لها سبل الانتشار . ثم حفلة تأيينه بعد موته، وما كتب عنه من المقالات والدراسات . ولا ينبغي ان نجهد فضل المغنين، ولا سيما عبد الوهاب المصري فانه اطار اشعاره التي غنى فيها، فسارت في الحواضر والبوادي، ورددتها قوالب الحاكي، وتغنى بها المغنون، وحفظها النساء والاولاد والرجال .

(١) عقد نجوم المركزل منشور جريدة الهدى النيويوركية جائزة قيمتها مائة دولار، لمن يعارض شوقي في اربع قصائد مختارة، ويفضله فيها . وخص من نقاده صاحب هذا الكتاب، وايليا ابي ماضي، ومحبوباً الشرتوني . ثم اضيف الى الجائزة عشرون دولاراً تبرع بها احد المهاجرين من لبنان . ولكن لم يتقدم احد من هؤلاء الثلاثة للمعارضة، لان الناقد غير الشاعر ولان القصائد المختارة قيلت في اغراض مخصوصة، مضى عليها الزمان .

ولكن الشهرة وحدها لا تخلد صاحبها طويلاً إلا تدعم بعناصر الخلود الحقّة، وشوقي شاعر توافرت لديه عناصر العبقرية، فله الخيال الخصب المديد، وقوة الوصف والتصوير، ودقة الشعور بشباب الحياة وبهجتها. والوثبات العجيبة المحلقة، واللمحات السريعة الخاطفة. وأدب النفس الانسانية، واتساع عاطفتها واحساسها. وبراعة المعنى الطريف، وعمق مدلوله. وجمال اللفظ الانيق وهلهته، كأنما ركب من نغم الآلات. وله الشعر الرائع في الوطن والاسلام، والتاريخ والاجتماع، والحكم، والامثال الجارية على السن الناس. وهو شاعر عصره يمثله بسياساته، وفتنه، واحزابه، وفوضى مجتمعه واخلاقه.

ولئن غلب القديم على شعره بتأثير حياته، فما ينكر جديد في شتى اوصافه، واجتماعياته وقصصه التمثيلية، واساطير الماضين وسواها. فهو بحق واسطة عقد الاوائل والاواخر. وحسبه منزلة انه رفع قدر مصر في الشعر، ولم تكن قبله تعد شاعراً منها في طبقة الفحول. فكان نابغتها الاوحد وامير الشعراء وشاعر الشرق والاسلام.

الكتاب المحدثون

عصر الانبعاث

مبزة النثر

كانت لغة النثر في صدر الانبعاث كلغة الشعر، ضعيفة التركيب، متثاقلة الاداء، مصروفة الى الصناعة اللفظية. وكان الغموض يرافقها على الغالب، ولا سيما في الترجمات، لاستمساكهم بالالفاظ، دون المعاني. ثم بدأت ترتفع وتنجلي ديباجتها بعد منتصف القرن الماضي، وظهرت نهضتها في مقامات الشيخ ناصيف اليازجي، ثم في ترسل اديب اسحق^(١).

الا ان جمهرة الكتاب لبثوا يتربصون طريقة القاضي الفاضل والحريري في السجع والتزيين. بيد انهم حاولوا اطراحها في بعض اغراضهم، ومنهم من تجنبها أصلاً او قصرها على الترسل وانواعه.

ولما نشأ كتاب القرن العشرين اقلعوا عنها جملة الى المرسل المطبوع. واقتصر المتكاف المسجوع على طائفة من الشيوخ حملوا معهم اسلوب القرن الماضي. ثم على طائفة اخرى من الجامدين الذين لا خطر لهم في النهضة.

وكيف دار الامر فالنثر كان اسرع تطوراً من الشعر، واعجل تفلتاً من اغلال التكلف والتقليد. لان الكتاب ادركوا روح العصر وحاجة ابنائه، فجاروا حياتهم في سيرها، وانطلقوا الى الامام. في حين كان الشعراء لا ينفكون عن التلفت الى الورا.

(١) منشي بليغ ولد في دمشق سنة ١٨٥٦ م (١٢٧٣ هـ) وتويع في بيروت. وطارت له شهرة في مصر. جمعت نخبه اقواله واشعاره في كتاب اسمه الدرر. توفي في بيروت سنة ١٨٨٥ م (١٣٠٣ هـ).

ويعود الفضل في تقدم النثر، وتحوره الى اسباب عدة: منها انتشار الثقافة الغربية، وظهور النقد الادبي الحديث . ومنها مزاولة الصحافة، والترجمة ، واطلاع الكتاب على صحف الاعاجم، ومصنفاتهم، واساليبهم . ومنها نشر المخطوطات العربية القديمة لبلقاء الكتاب المطبوعين كابن المقفع، وابن خلدون، والامام علي، وابن عبد ربه ، وابي الفرج الاصفهاني، والجاحظ . فقد اقبل عليها الادباء وتدارسوها، فراقبهم اساليبها . ورأوا فيها ما يسد بلغتهم، ويعينهم على اداء افكارهم، في مختلف الانحاء . فتلذوا لها، وجفوا الطرق المتكلفة التي يضيع العمر في تمنيق الفاظها وتزيينها . وليس يوسعها ان تقضي حاجة العصر بما فيه من آداب وعلوم وفنون .

واختلطت هذه الاساليب بعضها ببعض من كثرة الانسحاب عليها ، ومازجتها الاساليب الدخيلة امتزاجاً مختلف بين القوة والضعف؛ فنشأ عنها طرق حديثة متعددة اشهرها ثلاث : طريقة الشيخ ابراهيم اليازجي، وطريقة مصطفى لطفي المنفلوطي، وطريقة جبران خليل جبران^(١) .

واشتد تأثير الثقافة الغربية بعد الحرب العامة ، فجنحت طرق الكتاب في كثرتها الى اساليب الفرنجة، فاصطبغت بالوانها اصطبغاً يتناسوا في فنون التعبير، او بعض وجوه التركيب . وظهر الضعف على طائفة منها لان اصحابها قل حظهم من البلاغة العربية، فطمت عليهم العجمة، وانحدرت ببيانهم اشأم النحدر .

وافادت اللغة الفاظاً جديدة، قضت بها الحضارة والمخترعات والعلوم . فمنها ما نقل بلفظه الاعجمي وعُرب . ومنها ما وضعت له اصطلاحات من صلب اللغة . ومنها ما بقي حائراً بين لفظه الدخيل ووضع عربي جعل له، ولم يأخذ به جمهرة المنشئين . وشاعت الفاظ اقليمية ، حملتها الجرائد والكتب ، فالتبست من طول الاستعمال بالفصح المأنوس .

(١) طريقة جبران قوامها تصوير خيالي جامع ، والفاظ ملونة بلورة ، وجمل شعرية مقطعة، فيها شبه بأسلوب التوراة . وكان لترجمة التوراة اثر ظاهر في نثر بعض الكتاب المسيحيين، ومنهم جبران .

ومال الكتاب الى شيء من الاسهاب في تعابيرهم . وآثر بعضهم المساواة بين اللفظ والمعنى، الا المصريين فانهم على الاجمال تورطوا في التطويل والتكرار . وسرت عدواهم الى نفر من حملة الاقلام في سورية ولبنان . ويمتاز النثر الحديث بوضوحه، وسلاسة قياده لاقتبال الابحاث المختلفة، مهما كانت عميقة متشعبة الاغراض . ولم يتفق للغة مثل هذا الوضوح ولا تلك المرونة في عصر من العصور .

اغراض

اتسعت اغراض النثر الى انواع العلوم والفنون على اختلافها . فشملت الترسل والخطابة، والصحافة والقصص والتمثيل، والابحاث العلمية والاجتماعية والادبية بما فيها من نقد وتحليل . فبلغ بها النثر غاية بعيدة، وسد ثلثة كبيرة في الادب العربي القديم .

الترسل

لقي الترسل حظوة كبرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بعد ان ارتفعت لغة الكتاب . فاعتمدوا عليه في الاخوانيات والوصف والمقامات، ومقدمات الكتب . ولم يرضوا به على الصحف السياسية، والابحاث العلمية . والتزموا فيه على الغالب، السجع ومزاوجة الالفاظ ومجانستها، وتحليلتها بالصور البيانية، والانواع البديعية، وتجميلها بالاستشهادات، والتلميحات، والاشارات .

وجاروا المتقدمين في اكثر ابتداءات رسائلهم واختتاماتها، وادخلوا الادعية، والقاب التعظيم وعبارات التفخيم . ولم يربأوا بانفسهم عن التزلف وخفض الجانب، ولاسيا في كتبهم الى اصحاب المراتب والمناصب؛ وعلى الاخص اذا كان هنالك حاجة يستنجزونها، او عتبي يلتمسونها :

« كتابي الى السيد السند، »

« كتابنا ايد الله الامير، »

« الى اعتاب ولي النعمة . »

على ان الترسل لم يلبث ان نبذ هذا التكلف المقيت بعد ان سادت الثقافة الغربية، وتحررت اساليب النثر . فاقصرت الرسائل على ذكر الحاجات ، واقتصدت في التحيات والادعية . وانصرفت مقدمات الكتب الى نوع من الدرس والتحليل بدلاً من السجع ووصف العبارات الفارغة . واكتسب الوصف دقة وشمولاً واستغنى عن مترادفات الالفاظ والتعابير التي لا شأن لها الا ان تظهر ناحية واحدة من الموصوف . واهمل فن المقامات ولم يبق له ذكر يذكر . فاصبح الترسل على الاجمال يضع اللفظ والمعنى في ميزان واحد، ويجعل كل جملة تختص بمعناها، بعد ان كانت القيمة فيه لصناعة الالفاظ، ولتقليب الجمل على المعنى الواحد .

ومن مشاهير المترسلين الشيخ ناصيف اليازجي وولده ابراهيم، واديب اسحق، والشيخ محمد عبده، وابراهيم المويلحي، والشيخ علي يوسف، والسيد مصطفى لطفي المنفلوطي . ونجترى هنا بالكلام على اثنين منهم هما اليازجي الابن، والمنفلوطي .

الشيخ ابراهيم اليازجي

١٨٤٧ - ١٩٠٦ م و ١٢٦٤ - ١٣٢٤ هـ

مبا

هو الشيخ ابراهيم ابن الشيخ ناصيف اليازجي، نصراني من طائفة الروم الملكيين . ولد في بيروت، وترعرع في بيت ركن العلم اليه، فألفه صغيراً . وتوسم فيه والده مخايل النجابة، فتعهد بعنايته، ولقنه اوليات اللغة وفنونها، وحب اليه آدابها . فاقبل عليها يتزيد منها بالدرس والمطالعة، حتى تفقه اسرارها واستجلى حقيقتها ومجازها، واستكانت اليه شوارد الفاظها . فاصبح فيها علماً من الاعلام، وحجة غير مدافع .

ونظم الشعر صبيّاً، ولكن لم ينصرف اليه، وانما كان يروض نفسه عليه في السوانح . بيد انه تفرغ للنثر، وزاوله باعتناء، حتى برع فيه، وعدّ من كبار المنشئين . ومال الى الصحافة، فكان اول عهده بها في جريدة النجاح^(١) اذ تولى انشاءها سنة ١٨٧٢ . ولكن لم يطل بها امره لان دخلها لم يكفِ خرجها . فتركها في السنة نفسها، وذهب الى مدرسة اليسوعيين في غزير . وكانوا يريدون ترجمة التوراة، فدعوه اليهم، واناطوا به تهذيب عبارتها . فاشتغل بها نحو تسع سنوات، منها في غزير ومنها في بيروت . فاخرجها بلغة انيقة، بليغة التعبير، ولاسيا العهد العتيق لانهم اطلقوا يده في تنقيحه اكثر من العهد الجديد .

(١) النجاح : جريدة سياسية علمية تجارية . كانت تصدر على عهد الشيخ مرة في الاسبوع، بمشرين صفحة . وكان يديرها يومئذ في بيروت صاحبها يوسف الشلفون ، ورزق الله خضرا .

وكان وهو في بيروت يعلم البيان وآداب اللغة في المدرسة البطريركية . ثم راجعه الحنين الى الصحافة، فاختار العلمية على السياسية ، واصدر مجلة الطبيب سنة ١٨٨٤ يشاركه فيها الدكتور بشارة ززل، والدكتور خليل سعادة . وكان يكتب فيها أماليه اللغوية فطار له ذكر باللغة ، بعد ان عرف ببلاغة الانشاء . واقفلت الطبيب بعد سنة من صدورهما، لقلة الاقبال على المباحث العلمية .

وكانت الصحافة قد تحولت الى مصر لانطلاق حرية القلم فيها، فيمم الشيخ شطرها سنة ١٨٩٣ في مجلة اللبنانيين المهاجرين . وفي سنة ١٨٩٧ انشأ بها مجلة البيان مع زميله الدكتور ززل . ثم حجباها بعد سنة، وانفصلا . واصدر الشيخ بعدها مجلة الضياء سنة ١٨٩٨، وظل يتعهدا بقلمه البليغ مدة ثماني سنوات حتى مات . وكانت وفاته بالسرطان اصابه في الكبد، ومات عزباً .

وفي سنة ١٩١٣ نقل رفاتة الى بيروت فدفن فيها . وصنع له اللبنانيون في البرازيل تمثالاً من الشبه، وارسلوه الى بيروت . فبنيت قاعدته في محلة باب يعقوب . ورفع الستار عنه سنة ١٩٢٤ في حفلة حافلة شهدها ممثلو الحكومة الوطنية، والسلطة الفرنسية المنتدبة .

صفاء واهلوف

وصفه جرجي زيدان في مجلة الهلال قال ما ملخصه : كان ربعة القامة، نحيف البنية، عصبي المزاج، حاد البصر، ذكي الفؤاد، سريع الخاطر، حلو المفاكحة، شديد الحرص على كرامته، عفيف النفس، ظاهر الانفة حتى الترفع . ضاق عيشه، ولم يرض اصطناع التملق ليرتق .

وكان صادقاً في اقواله واعماله ، لا يخلف ولا يخلف ، اميناً في ما ينقله من الاقوال، ينسب الفضل الى صاحبه . وبالضد، اذا صحح مقالة لاحد، سكت عنها، ولكن اسلوبه يتم عليه .

وكان باراً لأبيه، احسن اليه بعد موته، وزاده شهرة باتمام كتبه، وشرحها .

علومه ومواهبه

كان الشيخ يعرف من اللغات الاجنبية ، الفرنسية ، ويلم بالعبرية والسريانية . وكان بارعاً في الرياضيات وعلم الفلك ، وله مشاركة في العلوم الطبيعية والفقهاء الحنفي . وكثيراً ما جرت المباحثات بينه وبين علماء الفلك الفرنسيين . واشتغل بمحل المشكلة الرياضية المشهورة ، وهي قسمة الدائرة الى سبعة اقسام ، وتوصل الى نتيجة تقرب من الصواب ، وبعث بها الى المجمع العلمي الفرنسي . وهو من اعضاء الجمعية الفلكية في باريس ، وانفوس ، والسلفادور . وكان ماهراً في صناعاتي الحفر والتصوير اليدوي ، جميل الخط ، قاعدته فارسية .

آثاره

ليس لليازجي من الآثار ما يعادل شهرته العلمية ، ويعود ذلك على بطئه في العمل ، ثم على تنوقه في عبارته ، وعنايته بتدخلها وتحكيكها . فانه لم يكن ينشر مقالة الا بعد ان يراجعها مرات ، ويتحرى صحة مفرداتها ومركبها ، ويغير فيها ويبدل . ولعل خوفه من النقد كان يدفعه الى زيادة التدقيق ، لعلمه ان له خصوصاً يتربصون به ليتبعوا سقطاته . ولا بد ان مناظرته للشدياق في الذود عن والده علمته ان يحتمل هذا الاحتياط^(١) . ومع ذلك فأثاره التي تركها ما بين تأليف وشرح وتصحيح تدل على مبلغ علمه وفضله .

(١) تصدى احمد فارس الشدياق لنقد الشيخ ناصيف اليازجي بعد وفاته سنة ١٨٧١ . فانبرى الشيخ ابراهيم يدافع عن ابيه في مجلة الجنان ، وينتقد الفاظاً وردت في مقدمة سر الليل ل احمد فارس . وكان الشيخ يومئذ في الرابعة والعشرين ، والشدياق في السبعين ، وله شهرة طائفة ، وكعب عال في اللغة . فلم يستطع الشيخ ان يبزه ، ولكنه وقف في الدفاع عن ابيه موقفاً نبيلاً .

فاما مؤلفاته، فمنها في النثر مجموعة رسائل بخطه طبعت على الحجر وضمت الى ديوانه . ثم ما كتبه في الطب والبيان والضياء من المباحث اللغوية والعلمية والادبية . ثم تعاليق على محيط المحيط للبيهقي وشرحها في مصر الدكتور سليم شعون، وجبران النحاس . ثم نجعة الراءد في المترادف والمتوارد ، جرى فيه مجرى الالفاظ الكتابية ، على اعتبار المعنى في التنسيق . ولكنه جعل مدار الكلام على الانسان، وما يتعلق به من الصفات والافعال، وما يكتنفه من الاشياء، ويعرض له من الشؤون . ووصف ما يجده في مزاولة الامور، وما ينتظم به مجتمعه من احكام السياسة والقضاء . وقسمه الى اثني عشر باباً، كل باب يتفرع منه فصول . مثال ذلك الباب الاول : في الخلق وذكر احوال الفطرة وما يتصل بها . وفصوله تبحث في الخلق، وقوة البنية وضعفها، وحسن المنظر وقبحه، والسمن والهزال، والطول والقصر، والاطوار والاسنان، والحواس وفعالها وما يتعلق بها . الا انه مات قبل ان يتس، والذي ظهر منه ثمانية ابواب طبعت في جزئين .

ومنها في الشعر ديوان مكتوب بخط يده، طبعه على الحجر حبيب اليازجي ابن اخيه خليل ، وضم اليه مجموعة الرسائل . وشعره متين محكم، ولكن اكثر اغراضه يجري على الطريقة التقليدية من مدح يتقدمه غزل بدوي، ورتاء اشبه بالمدح، وتواريخ شعرية في التهنيات وفي ما يكتب على الضرائح . وله قصائد اجتماعية وطنية، في دعوة العرب الى ترك التخاذل الطائفي وحضهم على الثورة، وخلع نير الاتراك . وقصيدة يصف بها الزهرة وصفاً علمياً .

واما شروحه، فاشهرها شرح ديوان المتنبي . وكان والده قد بدأ به في حواشٍ علقها عليه، فاتم الابن وذيله بنقد لغوي لشعر ابي الطيب .

واما تصحيحاته، فاعظمها تنقيح عبارة التوراة . ثم تهذيب تاريخ بابل واشور لجميل المدور . وتصحيح كتب والده في الصرف والنحو، واختصارها .

وقيل انه حاول ان يؤلف معجماً في المأنوس من كلام العرب الاوائل ، فحالت الحوائل دون تأليفه .

ومن آثاره اصطلاحات وضعها للمعاني الفنية الحديثة، وفي الضياء شي . كثير منها . وقاعدة للحروف المطبعية ، حفرها بيده ، شاعت في مصر وبيروت واميركة .

ميزته

لم يرتفع الشيخ بنظمه كما ارتفع بنثره . فما نعه في طبقة الشعراء المقدمين ، وانا يسير في طلائع بلغاء الكتاب ، ويستوي على عرش ايمة اللغة الحاذقين . وله في الكتابة اسلوب معروف ، ولاسيا حين يعالج النقد اللغوي ، فان طابعه الخاص لا يقتصر على الطريقة الانشائية وحدها ، بل يتعداها الى شخصيته المتهمكة اللاذعة ، الباسطة سلطانها على من تنتقده ، المتحكمة به تحكم القوي بالضعيف . وسنحاول ان نظهر هذا الطابع في اسلوب الشيخ مما تناولناه من آثاره المتفرقة في مجلاته وخصوصاً الضياء ، التي ظهر فيها نضجه وسمو انشائه .

ابحاثه واغراضه

تناول الشيخ في ترسله ابحاثاً مختلفة . منها الرسائل ، واغراضها شكر وتهنئة ، وعتاب واعتذار ، وتعزية . ومنها المباحث اللغوية ، كأماليه في اللغة ، واللغة والعصر في فلسفة نشوء الالفاظ . والمجاز وانواعه . ونقد لغة الجرائد ومخالط المولدين ، والعرب الاولين ، والمعاجم اللغوية وشعر المعاصرين . وكتب الاب لويس شيخو ولاسيا مجاني الادب . ونقد على شعر المتنبي بين فيه اسباب غموضه وخفاء معانيه ، واطهر ما به من الحسنات والسينات . وعاب على شارحيه خلطهم واضطرابهم في تفسيره . وصحح اوهامهم واقال عثراتهم .

ومنها المباحث الادبية ، كما في كلامه على الشعر وتعريفه ، ونقد معانيه والفاظه . ومنها المباحث الاجتماعية ، كتنقده للجرائد وابانة مواطن الضعف في ابحاثها السياسية

والاجتماعية، وما تحمل من الضرر في نثرها بذور التعصب بين الطوائف . ومنها المباحث الفلكية والطبيعية، كقالاته في الزهرة، والقمر، والتنجم، والجبال، والرياح، والبصريّات، وهلم جرّاً .

الطوبى الانسانى

للشيخ انشاء متين بليغ، رائق الديباجة، واضح المعاني، بعيد عن الصيغ الشاذة والتراكيب الجافية . بريء من الغموض والالتباس حتى في ادق مباحثه اللغوية والعلمية . وربما حلاه بالاستشهادات من شعر وآيات وامثال .

وجملته خطائية انشائية في الغالب، مثزّنة العبارة، رصينة محكمة . يميل بها الى الاسهاب من غير تطويل، ويعاقبها على المعنى الواحد دون اسراف .

ولفظه محكم مختار، خالٍ من الغريب المستوحش، مصوغ من معدن واحد، غير متقلقل ولا متنافر . وله تعابير مخصوصة لا يفتأ يرددها إما في ربط الجمل وشدها، وإما في الخروج والانتقال . فهي اشبه بدعائم يعتمد عليها، ومفاتيح يتصرف فيها . فمنها : لا جرم، وبين، وبل، وفضلاً عن، وزد على ذلك، وبديهي، وليت شعري، وأيم الله، وبالتالي . فهذه الالفاظ واشباهها لها حظوة كبيرة في انشائه .

واسلوبه، يبعثه احياناً مسجماً، وحياناً مرسلأ . فاما المسجّع فيأتي به في رسائله، ومقدمات كتبه . وربما جاد به على مقالاته الصحفية، متوجاً بجثا من الجاثه، ككاتوج مقالة الزهرة . فقد استهلها استهلالاً شعرياً، فسجع وتحيل، حتى اذا بلغ امنيته، عاد الى البحث العلمي في انشاء مرسل لا سجع به ولا خيال .

وفي هذا النوع من ترسله تكثرت الفنون البيانية والبديعية ولا سيما التشبيه والاستعارة ومراعاة النظير كقوله : « وخفت اليه طلائع الاجابة من كل وادٍ حتى اصبح مضارعاً لسوابق الافكار، وسوابح الاحلام . »

والكلام هنا على القطر المصري، انه دعا الادباء اليه فلبّته جموعهم . فلما قال : « طلائع الاجابة »، جعل الاجابة جيشاً على سبيل الاستعارة . ورشحها ليزيدها قوة

فكان القطر المصري لها ميداناً . وراعى النظر فجعل بها السوابق والسوايح من الخيول . وجردها فكانت خيول الافكار والعقول . وادخل عليها التشبيه الاضافي : سوابق الافكار وسوايح الاحلام .

والتشبيه الاضافي كثير في ترسل الشيخ اذا نطق ، وكذلك التشبيه التمثيلي الذي يأتي بصورة المحاكاة . كقوله : « الحمد لله الذي جعل العلم ضياءً للبصائر ، كما جعل النور ضياءً للنواظر . . . يُقَابُ احوال الارض ، كما يُقَابُ الدرهم بين الأنامل . » واليازجي شديد الحرص على اظهار الحقائق اللفظية . وحرصه هذا ، حمله على الاحتفال بالترشيح ليلبس الالفاظ المستعارة ، والمشبه بها ، الاثواب التي حيكمت لها ، فيعطيه قوة على قوتها ، ولا سبيل الى ذلك بغير الترشيح . فلما استعار الجيش للإجابة ، جعل القطر له ميداناً ، لان الجيش لا بد له من ميدان تصول فيه خيوله وتجول . ومثل هذا قوله في العلم : « وزخر في كل وادٍ تياره . » فقد جعل العلم كالنهر الفياض بصورة الاستعارة . ثم رشحها فجعل لها تياراً يزخر في كل واد .

وجاءت استعاراته وتشابيهه بل شتى تعابيره في الجملة ، قوالب جميلة نحتتها ايدي الاقدمين ، فأخذها عنهم واحسن انتقاءها ، وتأليفها ، وافرغ فيها صورته ومعانيه . وسبب ذلك سعة اطلاعه على مذاهب الكلام عند العرب ، وتصنيفه نجمة الرائد في المترادف والمتراد .

واما انشاؤه المرسل ، فنقل فيه الصور البيانية والبديعية ، والقوالب الموروثة ، ولكن لا يعدوه اللفظ الا نيق وحسن اختياره . وهو افيض طبعاً وأمرن جانباً ، وأسلس قياداً من المسجوع . ويزداد قوة ومضاءً بظهور شخصية صاحبه في مواطن الانتقاد ، فيصطبغ بالوان من السلطة المتحكمة ، والاعتداد المكين بالنفس ، والتهكم الحاد ، والقرص والتأنيب . فمن ذلك قوله في لغة الجرائد :

« يقولون : زُفَ فلان على فلانة - هكذا معدبى بعلى - فيعكسون الاستعمال ، لانه يقال زف العروس الى بعلها ، اي اهداها اليه . ولا يقال زف الرجل الى المرأة . الا ان يكون هذا من مقتضيات هذا العصر الذي استنوقت جلاله ، واصبح

ونسأوه رجاله . حتى رأينا الرجل يأخذ العهر ، ورأينا المرأة تتطالُ الى النهي
والامر . »

وجه للنقد، والتنطس في سقطات الادباء، والإيدلاء بالرأي، والمباهاة بالمعرفة،
حملة على الاستطراد في كلامه . فبينما هو يتكلم على لغة الجرائد اذا به ينتقل بصلة
الفظ المشترك الى نقد الكتاب والشعراء المتقدمين كقوله :

« ترى اكثر كُذَّابينا اليوم يقولون : لا ينجفى بأن الامر كذا، ويسرني بأن
يكون زيد كذا، وهلمَّ جرأ . مع انهم لو استعملوا المصدر في ذلك كله ، لم
يكن لهذه الباء محلّ عندهم . ومن الغريب ان ممن استدرج بهذا عنزة العبسي في
معلقته المشهورة حيث يقول :

وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَدُرْ فِي الْعَرَبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي ضَنْمِ

وقول من قال ان الباء تُراد على مفعولٍ خشي ليس بشي . . لانه لو استعمل
الاسم هنا لم يُقل خشيت بالموت . وانكر ما جاء من مواضع زيادتها قول ابن
حجّة الحموي، رواه لنفسه في خزانة الادب :

مَنْعَةٌ لَفَاءً ، مَهْضُومَةٌ الْعَشَاءُ ، تَكَادُ بِأَنْ تَنْقَدَّ مِنْ رِقَّةِ الْحَضِرِ

فزادها في خبر كاد، وهو من المواضع التي لا تدخلها أن إلا شذوذاً، فضلاً
عن إشكال دخولها في هذا الباب من اصله . فما عثم ان زاد هذه الطينة بأة
بدخول الباء . « اه

واليك مثالين آخرين من اسلوبه احدهما من المسجوع، والثاني من المرسل .
قال يصف الزهرة :

« هي مَلَكُ جُنْدِ الدُّجَى ، بِلِ قَائِدُ مَصَّكِرِ الأَنْوَارِ . بِلِ إِلهةَ الْجَمَالِ اسْتَوَتْ
عَلَى عَرْشِ مِنَ النُّضَارِ . إِذَا بَرَزَتْ فِي ثَوْبِ بَهَائِهَا فَانْكَهَرَتْ لَهَا الشَّمْسُ مِنَ الْحَسَدِ .
بِلِ غَشِيَتْهَا حَمْرَةُ الْحَجَلِ بَعْدَ مَا عَلَتْهَا صُفْرَةُ الْكَمَدِ . فَأَقْبَلَ الْهَلَالُ وَقَدِ انْحَنَى بَيْنَ
يَدَيْهَا وَسَجَدَ . وَأَطَافَتْ بِهَا حُورُ الْكُوكَبِ . كَأَنَّهنَّ أَتْرَابُ كُورِ عِبِ . فَوَقَفْنَ

لخدمتها متضائلات أمام عظمة جلالها . وقد أرخين شعورهن من حولها فشبهن^(١) من جمالها . فما كادت تتجلى لمن حيناً حتى توارت عنهن بالحجاب . وسرن في أثرها متابعات حتى برقعهن الصبح بأبيض الجلباب .
 وإذا رأيتها بارزة في طليعة الكواكب . وقد تجلت في فللكها حين لا يبدو طالع ولا غارب . فاستأت من الهلال سيفاً استقبلت به نحو الظلماء . ثم نادى في جيشها فإذا به قد طبق نواحي السماء . فبرز الرامي^(٢) . فأوتر قوسه وانتصب للنضال . ووضع الجبار^(٣) يده على سيفه ونادى يا للئزال . وأشرع السباك^(٤) رمحه فخفق فؤاد العذراء^(٥) . واطلق المربخ^(٦) سهمه فاذا هو مخرج بالدماء . وتتابع سائر الجيش بسلاحه فلا ترى الا وميضاً وبريقاً . وأسنة قد غاصت في كبد الدجنة فمزقتها تمزيقاً . فما أقبل جيش الصباح الا والأفق محضوب بدم الدجى . وقد بلغ سيئه الرئي بل جاوز الرئي . « اه

وينتقل الى البحث العلمي فيترك السجع والخيال الشعري :
 « لا جرم انه اذا كان بعد الشمس والقمر نجم حري بالعبادة فأحرى النجوم .
 بذلك الزهرة لما أنها اعظم الكواكب نوراً الخ . . . » اه
 وقال في تعريف الشعر وهو من انشائه المرسل :

« إنَّ النَّثْرَ هُوَ الْقَالَِبُ الطَّيْعِيُّ لِلْكَلَامِ الْمَوْضُوعِ لِلإِبَانَةِ عَنِ الْمَعْنَى الَّتِي تَشْتَمِلُ فِي النَّفْسِ . يَتَخاطَبُ بِهِ الْعَالَمُ وَالْجَاهِلُ ، وَالذَّكِيُّ وَالْبَلِيدُ ، وَالْكَاتِبُ وَالْأُمِّيُّ . فَوْجَبَ أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ تَتَفَاهَمُهُ هَذِهِ الطَّبَقَاتُ كُلُّهَا . وَيَعْبَرُ بِهِ عَنِ الْمَقاصدِ بَأَيِّنِ الصُّورِ وَأَوْضَحِهَا . وَذَلِكَ يَقْضِي ، وَلَا جَرَمَ ، أَنْ يُسْتَعْمَلَ لِكُلِّ مَعْنَى اللَّفْظِ الْمَوْضُوعُ لَهُ . بِحَيْثُ يُنْتَقَلُ مِنَ اللَّفْظِ إِلَى الْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ وَاسْطَةِ . وَبِخِلَافِهِ الشَّعْرُ فَإِنَّهُ مِنْ

(١) شبهن من جمالها : اي زدن منه ، وذلك اضالة انوارهن بلاضافة اليها . والاشياء تكشف باضدادها . (٢) من البروج الاثني عشر . (٣) الجبار : برج في السماء ويعرف بالعذراء والسنبلة والجوزاء . (٤) السباك : ويعرف بالرامح : كوكب نير في جهة الشمال امامه كوكب صغير يقال له زاية السباك ورمحه . (٥) العذراء : الجوزاء . (٦) المربخ : من السيارات السبع معروف بالحدة والحرب .

الكلام الذي يُقصد به ما وراء مدلول اللفظ من مُناغاة النفس، ومناجاة الوجدان فتورى فيه المقاصد تحت الصور الخيالية . وتبرز المعاني تحت ثوب من المجاز او الكناية ونحوهما . ولذلك اخص بمخاطبات البلغاء وطبقات الكتاب والمتأدبين . ونحي فيه منحنى البلاغة في المعنى ، والتأنق في الالفاظ والاساليب . وأكثر فيه من التفنن بالانواع البديعة مما يجمع بعض اطراف المعنى الى بعض بما يربطها من تناسب او تضاد او غير ذلك بحيث تتألف منه صور كاملة على حد ما يفعل المصور في تصوير الاشباح ، والمقتفي في تأليف النغم . والمقصود من كل ذلك الاستيلاء على قوى النفس واللباس المعاني المتأدية اليها من طريق الحس او العقل، ثوباً من الخيالات بعد تلوينه باللون الذي يريدُه الشاعر تبعاً لقرضه .

وبين أن هذا الذي ذكرناه من تأثير الشعر غير خاص بالكلام المنظوم . ولكن كل ما تضمن شيئاً من الاغراض المذكورة وأثر في النفس تأثيراً عديداً شعراً . وقد قدماً أن غالب شعر الأقدمين^(١) لم يكن على وزن ولا قافية . وإنما كان الشعر عندهم يمتاز عن النثر بشرف معانيه ، وجزالة الفاظه ، ونوع اسلوبه « اه .

مزلته

علمنا ان آثار اليازجي لا توازي شهرته العلمية، ومزلته في اللغة وآدابها . فكيف طارت له هذه الشهرة، واستوت تلك المزلته على قلة انتاجه ووشل مصنفاته؟ هذا ما نحاول البحث فيه لتستجلي تلك الشخصية القوية التي أمت الكتاب واللغويين في اواخر القرن التاسع عشر، واوائل العشرين . وذهب لها صيت لم يذهب مثله الا للقليل من معاصريها . وبلغت من ثقة الخاصة بمقدرتها اللغوية، مبلغاً يمتد الى حد بعيد، حتى عدت حجة مكيئة لا تقزع . ووضع صاحبها في طبقة اشياخ اللغة المتقدمين، وربما فضلوه على كثير منهم .

(١) يريد هنا شعر الاقدمين ، الشعر الوارد في بعض اسفار التوراة والنبوات .

بدأت شهرة اليازجي يهب ريحها، ولما يؤل رخص الانامل، طري العود . فقد كانت مقارنته لاحمد فارس الشدياق أشبه بمقارعة بديع الزمان الهمداني لابي بكر الخوارزمي . فلفتت إليه الانظار، وتحدث به الناس، وعطف عليه النصارى . ثم كانت اتجاهه اللغوية والعلمية، فنقد المعاجم وبين ما فيها من سقط ونقص وخلل . وصب على الكتاب والشعراء، غارة منتشرة اصابت الاخضر واليابس من المتقدمين والمحدثين، ولم تغف عنه وعن ابيه . وظهرت في نقده قوة الحجج، وبراعة الاستنتاج والتعليل . فتهيبه الادباء، واقرؤا له بالفضل والتقدم . ولم يزل من خصوم وحساد يناصبونه، ويزيدون في شهرته، وامتداد ذكره . وكذلك مباحثه العلمية جعلته موضع الاعجاب والاحترام عند اهل زمانه . وذلك لاتصاله بعلماء اوربة، واعتداد هؤلاء بأرائه واقواله . وكان تأثيره في النهضة قوياً، لانه في نقده لغة الجرائد نبه الكتاب على مغالطهم، وحملهم على التماس الالفاظ الفصيحة، والتراكيب الصحيحة في كتاباتهم . ورأوا في نجمة الرائد معيناً حافلاً، يستسقونه على ظمأ، فيجود لهم بشتى الالفاظ، والتعابير المترادفة، فيستعينون بها حين يتنذل كلامهم من كثرة الاستعمال، وتضييق مذاهبه في وجوههم . وكان انشاؤه البليغ نموذجاً لكثير منهم يترسمونه ويطبعون على غراره . وافاد اللغة بالمصطلحات التي استحدثها للمعاني الجديدة، وبالحروف التي وضعها للطباعة والنشر . فشهد الناس بفضله، وبايعوه بالامامة، وخذلوا ذكره، فكان اول اديب عربي نصب له تمثال في حاضرة .

المنفلوطي

١٨٧٦ - ١٩٢٤ م و ١٢٩٣ - ١٣٤٣ هـ

حياته

هو مصطفى بن محمد لُطفي المنفلُوطي . ولد في منفلُوط من صعيد مصر، واليه انتسب . وكان في الحادية عشرة عندما حفظ القرآن . فبعث الى القاهرة ، وادخل الازهر، فمكث فيه عشر سنوات، يدرس علوم الدين واللغة . إلا انه كان ميالاً الى الادب ، وليس في الازهر منه ما يروي الغليل . فكان يفترص السوانح ، لينظر في الكتب الادبية، مع ان قانون الجامع لا يسمح بها . فكان شيوخه اذا ظفروا بكتاب منها في يده، عنفوه، وعاقبوه، وهو لا يرده عنها تعنيف ولا عقاب .

وكان افضل الكتب عنده، العقد الفريد، والاغاني، وزهر الآداب ، ودواوين المتنبي والبحتري والبي تآم والشريف الرضي . وافضل الكتاب ، عبد الحميد ، وابن المقفع، وابن خلدون في مقدمته، وابن الاثير اذا لم يسجع .

ولما ترك الازهر انضم الى حلقة الشيخ محمد عبده ، ولزمه فافاد من معارفه في الادب والاخلاق والحكمة والطبيعي . وبعد وفاة الشيخ الامام (١٩٠٥م) عاد الى منفلوط ، ومكث بها برهة سنتين، يرسل المؤيد باسبوعياته . ثم رجع الى القاهرة، وناب عن التاليف والكتابة في الصحف حتى مات .

وكان محازباً لسعد زغلول باشا ، فبره سعد بمناصب الحكومة . ومات وهو رئيس لفرقة من كتاب مجلس الشيوخ ، ومشاهرتة لا تقل عن خمسين جنيهاً .

اغترق وصفاته

كان رضي الطبع ، هادي البوادر ، رزيناً متوقراً ، على شيء من الانقباض .
 وكان رقيق الفؤاد يتألم للمآسي البشرية ، ويعطف على البائسين ، ويبرأهم : اتصل اليه
 يده . وربما شكوا اليه صديق خلّة ، او تبينها في وجهه ، وعلم انه يكتبها منه حياء ،
 فما يتأخر عن مساعدته ؛ وقد يقسم ما في محفظته من الدراهم بينه وبينه .
 وكان له زوج ، فاصابها رمد اضعف بصرها ، فلم يدخر وسعاً في تسليتها والحدب
 عليها ، حتى انه كان يكلفها اعمالاً لا يقوم بها الا المبصرون ليوهمها انه لا ينكر عليها
 من نظرها شيئاً .
 وكان مصرياً يكره الاحتلال الانكليزي ، ووفدياً يجازب سعد زغلول ،
 وشرقياً يعقت المدنية الغربية ، ومسلماً يتعصب لدينه ، ويدافع بحماسة عن الاسلام
 والمسلمين .

آثاره

ترك المنفلوطي آثاراً غير قليلة بين موضوع و مترجم : منها النظرات ثلاثة اجزاء ،
 وهي اسبوعياته التي كان يكتبها في المؤيد ، وفيها ما هو منقول ليس من وضعه .
 ومنها العبرات جزء واحد ، وهي مجموعة اقاصيص ، بعضها مترجم عن الفرنسية ،
 واجمله الضحية ، او ذات الكاميليا لدياس الصغير .
 ومنها قصص اخرى نقلها على حدة ، وهي الشاعر او سيرانو دي برجواك لادمون
 رُستان . وفي سبيل التاج لفرنسوا كويه . ومجدولين او تحت ظلال الزيزفون لالفنس
 كار . والفضيلة او پول وفرجينى ابرزدان دي سان پير .
 وكان يجهل الفرنسية ، فكانت هذه القصص تنقل اليه بلغة غير مهذبة ،

فيلخصها، ويتصرف فيها على هواه، ويؤلف الاصل، فيجعل التمثيلية منها غير تمثيلية، كما اصاب قصتي الشاعر وفي سبيل التاج .

وله في الشعر شي . قليل، اغراضه مختلفة، متفرق في الصحف . وله مختارات المنفلوطي، مجموعة شعرية اختارها لطلاب المدارس، ولم يُطبع منها الا جزء واحد مع انها تبلغ ثلاثة اجزاء .

ميزته

لا نحاول ان نستخرج ميزة المنفلوطي من شعره، فانه ضعيف لا يعتد به . ولا من قصصه وفصوله المنقولة، فانها لا تمت اليه بغير الالفاظ والتراكيب . وان يكن غير فيها وبدل، فليس في تغييره وتبديله زيادة على الاصل او اختراع جديد وانما هو مسخ وتلخيص . ونحن نزيد ان يكون الكلام فيه شاملاً خياله وتفكيره وتعبيره وهذا لا يتأتى لنا الا اذا درسنا مباحثه، واقاصيصه التي هي من وضعه ليكون حكماً عليه اصح واعدل .

اغراضه وفوائده

تشتمل مباحث المنفلوطي على فصول ورسائل وكلمات متعددة الاغراض، فمنها الاجتماعية، ومنها الاسلامية، ومنها الادبية، ومنها التراثية . وكلها مجتمعة في كتابه النظرات . ومنها القصصية وهذه بعضها ينضم الى المقالات الاجتماعية في النظرات، وبعضها الآخر يستقل في العبرات .

الاجتماع

عني الكاتب عناية خاصة بالمباحث الاجتماعية، يريد بها اصلاح الاخلاق، وتطهير المجتمع من المفسد . وأغري بتمثيل البؤس والشقاء والدعارة، وذكر الانتحار والمنتحرين . والتحدث عن سقوط الفتيان والفتيات، والخيانات الزوجية، والفضائح العيلية . فتكاد لا تقرأ فصلاً في النظرات الا وقعت فيه على خبر عاشق انتحر من يأسه . او طلاب ارادوا الموت لسقوطهم في الامتحانات . او فاسق لقي في جزاء فسقه موتاً شنيعاً . او زوجة خانت زوجها، فساء مصيرها . او زوج اغار امرأته بسوء سيرته، واهمل تربية ولده باشتغاله عنه، فلاقى مغبة اثمه بنشوز قرينته، وفساد ولده . او فتاة خدعها فتى عن نفسها، واغراها بصاحبته بعد ما وعدّها بالزواج، ثم تركها : « وفي صدرها هم يضطرم، وفي احشائها جنين يضطرب . » او غير ذلك مما يفصل نقائص المترفين، واستهتارهم بالمعاصي، وادمانهم الخمر والميسر، وجورهم على الفقير البائس، والضعيف الجاهل، بحيث يُتمثل المجتمع الانساني اقبح تمثيل .

والمنفلوطي في اجتماعياته يحنو على المرأة، ويشفق على ضعفها، وينهى على الرجل قسوته، وظلمه لها، ويدعوها الى معاملتها بالحسنى . ويقترح الطلاق اذا جاء عن ملل وحب للتجديد . ويروي على حسن المساكنة قصة رجل^(١) رمدت زوجته، فضعف بصرها، فازداد عليها عطفاً، وبها تسكناً . وكان يدخل السرور الى قلبها بان يعتب عليها في امور لا يؤاخذ بها الا المبصرون؛ يريد ان يوهمها انه لا ينكر من امرها شيئاً .

واذا سقطت المرأة وساءت سيرتها لا يقسو عليها بل يحاول ان يجد لها العذر بايقاع الذنب على صاحبها؛ اما لانه اكرهها على السقوط، او لانه خدعها ومنأها بالوعود . ولكنه يرى ضرورة حجابها لانه في نظره صيان لعفافها .

(١) الرجل هو المنفلوطي نفسه، والمرأة زوجته .

وهو شديد الكره للمدنية الغربية، وما جاءت به الى الشرق من اخلاق وعادات، لا ينفك يحمل عليها، ويشوه محاسنها، ولا ينظر منها الا ناحية العيوب والردائل . فالشور، والفواحش، وامراض الاخلاق والابدان، وتجارة الاعراض، وانتهاك الحرمات، كلها بضاعة اجنبية، اصدرها الغرب الى الشرق . ولولا المدنية الغربية لسلم الشرق من هذه الآفات . فخير له ان يتعد عنها كل الابتعاد، ولا يقتبس منها الا العلوم والفنون . بل خير له ان يبقى جاهلاً من ان يغوص في لججها، ويقذفه تيارها . وغير خفي ما في هذه الآراء من مجازفات لا يسلم بها العقل الصحيح، ولا يرتضيها العلم . لان هذه الآفات حليفة المدنيات في كل زمان، لا ينفرد بها مصر عن آخر . وقد كان لها الشرق ملعباً فسيحاً في حضارته القديمة، قبل ان تتولد المدنية الغربية الحديثة . ولكن المنفلوطي يستمد ابجائه وآراءه من اخبار الصحف اليومية وتعليقاتها، ومن احاديث الناس وتعليقاتهم . فلا غرو ان يكون صدى لما يسمع من سخطهم على المدنية الغربية، واسناد جميع المفاسد والمصائب اليها . وان يردد اقوالهم في الانتحار والمنتحرين، والتهتك والحجاب، والحمر والميسر، والغني والفقير والضعيف والقوي، فيصيب مرة ويخطئ مراراً .

وانه، وان اراد الاصلاح الاجتماعي، بهذه المباحث، لقد تورط في بعض الاغراض تورطاً يلام عليه، بحيث اصبحت الغاية لا تبرر الوسيلة . فاكثاره من ذكر الانتحار، وسقوط الفتيات والفتيان، والحياتات الزوجية، وتصوير المجتمع باقبح الصور، مضر بالاخلاق اكثر مما هو مذهب لها . فان الفتى الذي يقرأ نظراته لا يرى في اهل زمانه الا شروراً وخبائث، فيتشاءم بهم وينقم على الانسانية، او يصبح وفي نفسه استسهال للعاصي، واندفاع الى طلب الملاذ . وكثيراً ما تخلو نظراته من العبرة المتوخاة فما تجد فيها غير سرد الحوادث الشائنة، وربما ظهرت الموعظة، ولكن اثر اللذة النفسية غالب عليها . فقالة « الزهرة الذابلة » تدفع الفتى الذي اصابه الصمم الكامل الى اليأس والانتحار . مع ان هذا الفتى لجأ الى الكاتب مستغيثاً به ليسمع كلمة تعزية تشجعه على احتمال مصابه، فلا سمعه وصدده بأساً وقنوطاً . وكذلك « مدرسة الغرام » فيها من الافراط في ذكر اللذة، ما تتضاءل دونه كل موعظة .

وهكذا « الملاعب الهزلية » فانها اجدر بان تكون للهو لا للنصيحة لما فيها من الشواهد المجونية المضحكة . وامثال هذه الاشياء كثير .

على اننا نظلم الكاتب اذا لم نذكر بعض ما له من الفصول الحسان ، « كالوفاء » في المحافظة على الزوج اذا اصيبت بعاهة او بلاء . و « يوم العيد » في باب الاحسان . و « عبرة الدهر » وفيه خبر رجل خان امرأته ، واهمل تربية ابنه ، فلقى مغبة عمله في سقوط امرأته ، وفساد اخلاق ابنه . و « البعوض » في تشبيه اذاه باذى الانسان . و « البائسات » في ذكر المرأة المصرية ، وترويجها صغيرة للتخلص منها ، وما تلاقي في زواجهما من الشقاء .

واجتماعياته في الغالب لا تتعدى البيئة المصرية ، والرجل المسلم والمرأة المسلمة . فغايبته التي يرمي اليها ، هي اصلاح المجتمع المصري الاسلامي خاصة . واليك بعض ما جاء في « البائسات » :

« زرتُ منذ ايام حاكم بلدة في منزله . فرأيتُ بين يديه فتاة في الثانية عشرة من عمرها بائسةٌ عليلةٌ ، تشكو ألمًا في عنقها ، وجرحًا في ذراعها ، وهما في نفسها . وتُديرُ في الحاضرين عيونًا حائرة مضطربة ، كأنها هي مركبةٌ على زئبقٍ رجراج . فسألتُ : ما شأنها ؟ فعلمتُ أنَّ اهلها زوجها وهي في هذه السنِّ ، وعلى هذه السداجة ، من رجلٍ وحشي الخلق والخلق ، فامتنعت عليه ، فضرها هذا الضرب الذي رأينا آثاره في جسمها ، ففرت منه الى منزلِ اهلها فتَمِموا منها هذا اليباء الذي سمَّوه بِلادة ، وغفلة . واعادوها الى منزل زوجها كما يعاد المجرم الفار من سجنه اليه مرةً اخرى . وهنالك عاد زوجها الى عادته معها ، فعادت هي الى فرارها ، فعاد اهلها الى قسوتهم وجبروتهم . فلما اعياها الامر خرجت الى الطريق العامة ، هائمةً على وجهها ، لا تعرف لها مذهبًا ولا مُستقرًا حتى رُفع امرُها الى ذلك الحاكم ، فأمر باستدعائها ، وآواها الى منزله ليخلصها من ذلك الموقف الذي كانت فيه بين ذراعَي وجبهة الاسد^(١) .

(١) كذا ، ووجه الكلام : ذراعي الاسد وجبهته .

ان المرأة المصرية شقية باتسة، ولا سبب لشقتها وبؤسها الا جهاتها وضمف مداركها .

متى بلغت الفتاة سن الزواج سواء اكان على تقدير الطبيعة او على تقدير اولئك الجهلاء، استثقل اهلها ظلها، وبرموها بها، وحاسبوها على المضغة والجرعة، والقومة والقعدة . وراوا انها عالة^(١) عليهم، وان لا حق لها في العيش في منزل لا يستفيد من عملها شيئاً، وودوا لو طاع عليهم وجه الخاطب، اي خطيب كان يحمل في جبينه آية البشرى باخلاق منها .

فان كانت ذات جمال او مال فقد استوثقت لنفسها وأمنت الامم الهجر، وفجائع التخليق، والافهي تقاسي كل صباح ومساء، في الحصول على الحسن المجلوب، والجمال المصنوع، آلاماً جثمانية تطفى نور شيباتها، وتذبل زهرة حياتها . وتلاقي في سبيل مصانعة الزوج ومداراته والبكاء في موضع الابتسام إن ابتسم، والابتسام في موضع البكاء إن بكى، ما يجعل أخلاقها فضاء مملوءاً بالكذب والكيد، والخبث والرياء . وهي فوق ذلك تنتظر من فر زوجها في كل ساعة كلمة الطلاق، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الإعدام . «

(١) العالة : جمع عيال، وهو زوجة الرجل واولاده الذين ينفق عليهم . وجمع عائل وهو الفقير . فاستعمالها هنا للمفرد غلط .

الاسلاميات

وهذه المباحث من حقها ان تُدرج في باب الاجتماع لأنها منه . وانما جعلنا لها هذا الباب لتأثرها القوي بالدين، واصطباغها بالعاطفة الاسلامية صبغة يُخضع دونها العقل والتفكير، وتتأجج عليها الغيرة المتهمة بالتعصب للاسلام والمسلمين . وقد وقف بها الكاتب مواقف مختلفة ، فمن خطيب عسكري يدعو المسلمين في طرابلس الغرب الى جهاد الايطاليين ، ويحضهم على الصبر واستهانة الموت ، ويطعن على عدوهم المتحصن باساطيله ومعاقله . ومن نادب متفجع على الطرابلسيين، يذرف الدمع على ابطالهم في نكبتهم، ويدعو المسلمين الى اغائتهم . ومن محامٍ ديني يعلم ان اللورد كرومر جنف على الاسلام، وزعم انه لا يصلح للمدينة، فيغضب، وتثور عصيته، ويحمل على الدين المسيحي حملة منكرة، ويطعن فيه طعناً قبيحاً غير مكثف بالرد على مزاعم اللورد ، بما دلّ على ضيق صدره في مواقف الجدل . ومن مصلح، غيور على الدين ، يرى ما دخل عليه من امور ليست منه ، فافسده ، فيذرف «دمعة على الاسلام» الذي خالطه الشرك، وهو دين التوحيد؛ ويدعو زعماء الاصلاح الى تطهيره من الشوائب ، ويذكر المسلمين بماضي عزمهم ، واجداد ملوكهم وعظمائهم . فمن قوله في ذلك :

« نَبِّئْنِي عَنِ الْاِسْلَامِ اَيْنَ مُسْتَقَرُّهُ وَمَكَانُهُ، وَاَيْنَ مَسَلَكُهُ وَمُضْطَرُّهُ ؟ وَفِي اَيِّ مَوْطِنٍ مِنَ الْمَوْاطِنِ حَلٌّ ، وَمَعْهَدٍ مِنَ الْمَعَاهِدِ نَزَلُ ؟

اِنِّي الْخَانَاتِ وَالْمَوَاقِرِ الَّتِي يَغْصُ بِهَا الْفَضَاءُ ، وَتَنْتُ مِنْهَا الْاَرْضُ وَالسَّمَاءُ وَالَّتِي يَنْتَهَكُ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ حُرْمَاتِ دِينِهِمْ بِلَا خَبَلٍ وَلَا حِيَاءٍ كَمَا هُمْ يَشْرَبُونَ الْمَاءَ الزُّلَالِ ؟

ام في حوانيتِ الباعةِ حيثُ الغشُّ الفاضحُ، والغبنُ الفاحشُ مُزْخَرَفًا بِالاقْوَالِ الْكَاذِبَةِ، وَالْاِيْمَانِ الْبَاطِلَةِ ؟

ام في مجالس الاحكام حيث للدينار الاحمر السلطان الاكبر على سلطان العدل وسلطان الذمة، وسلطان الشرائع؟ اللهم الا ما كان من تلك الالواح المكتوب فيها «العدل أساس الملك» او «إذا حكمت بين الناس ان تحكموا بالعدل» .

ام في المساجد حيث يعتقد المصلون أنه لو كان بين الصلاة والصلاة مائة عام، وكانت تلك الاعوام مملوءة بالآثام والجرائم، والمفاسد والمظالم، لكفّت تلك الحركات التي يسئونها صلوات، ومحسبونها حسنات لعُقران السينات؟

ام في مجالس المتصوفة حيث الالعب الجمنازية^(١) والحركات البهلوانية^(٢) والسرقات باسم العادات، وانتهاك الحرمات بعنوان البركات؟

إن اراد المصاحون لأنفسهم نجاحاً، وللإسلام صلاحاً، فليبدأوا عملاً بتهديب العقائد الدينية، وتربية النشء الحديث تربية إسلامية لإتربية مادية . أي انهم يدخلون إلى الاصلاح من باب الدين لا من باب الفلسفة . الخ

الادب

حاول المنفلوطي الابحاث الادبية في جملة اغراضه، فكتب في ادوار الشعر العربي، وفي تعريف الشعر، وفي نقد حافظ وشوقي، والبكاء على الادب الحديث، وفي نقد النجاة وجمودهم، والكتاب وغموض بيانهم . وغير ذلك من الفصول الادبية المختلفة، فكانت اجتهاده على الاجمال، قليلة العمق تفتقر الى ثقافة ادبية صحيحة، ودقة نظر، وبراعة في التحليل الا انها لا تخلو من قوة وايلام في النقد والتجريح، على صدق في الشعور، واخلاص في العقيدة . واحسن ما كتب في الادب مجثه في تعريف الشعر، وحملته على النجاة، وكلامه على البيان وغموض الكتاب . قال في تعريف الشعر:

(١) لعله اراد الجمنازية معربة عن Gymnase وهو مكان الالعب الرياضية .

(٢) البهلوانية : نسبة الى البهلوان وهو الذي يمشي على الحبل، فارسية معربة .

« ما كلُّ موزون شعراً ، ولا كلُّ ناظمٍ شاعراً ، فالوزن ملكةٌ تعلقُ بالأنفس ، من طولٍ ترديد المنظوم والتغني به ، مُقطعاً تقطيعاً يوازنُ تفاعيأه . فهو نعمةٌ موسيقية ، ولحنٌ خاصٌ من ألحان الغناء ، يتمثل في قول الملك الضليل : « قفانبك من ذكري حبيبٍ ومثزلٍ . » كما يتمثل في قول الخليل : « فَعوْلُنْ مفا عِلُنْ فَعوْلُنْ مفا عِلُنْ » ويتراءى في اوتار الحلقِ الناطقِ كما يتراءى في اوتار العود الصامت .

اما الشعر فامرٌ وراء الانعام والاوزان ، وما النظمُ بالاضافة اليه إلا كالحلي في جيد الغانية الحسنة ، او الوشي في ثوب الديباج المُعلم . فكما إن الغانية لا يجزئها عطلٌ جيدها ، والديباج لا يُزري به أنه غيرُ مُعلم ، كذلك الشعرُ لا يذهب بحسنه ورؤائه أنه غير منظوم ولا موزون .

ذلك هو الفرقُ بين الشعر والنظم ، وها انت ترى ألا صلةً بينهما غيرَ تلك الصلةِ الاصطلاحية التي لا منشأ لها سوى ما اعتاده الناسُ من أنهم ينظّمون ما يشعرون به . وتلك الصلةُ هي التي خلطت بينهما وعمت^(١) على كثير من الناس أمرهما . وهي التي أدخلت النظمين في عداد الشعراء ، وألقت عليهم جميعاً رداءً واحداً لا يُستطاعُ معه التمييزُ بينهما الا للقليل من الناقدین . »

الرثاء

وكان هذا النوع من اغراض الكاتب في مقالاته ، فرثى بعض الاشخاص من ذوي المكانة الادبية والسياسية كالشيخ علي يوسف وجرجي زيدان ومصطفى كامل . وليس في ذلك كله غناء ، ألا رثاءه لولده « الدفين الصغير » ورثاءه لشبابه « الاربعون . » واجمل ما في « الدفين الصغير » وصف ندمه على اعطائه الدواء المرّ وهو يخبّط بين برائن الموت ، مبغوم لا يطيق الافصاح :

« سَأنام يا بُنيَّ بعد قليلٍ على فراشٍ مثل فراشك ، وسيعالجُ مني المقدارُ ما عالج

(١) عمّت من عمى : أخفى المعنى .

منك . وأحسبُ أن آخراً ما سيقى في ذاكرتي في تلك الساعة من شؤون الحياة وأطوارها، وخطوبها وأحداثها، هو الندمُ العظيمُ الذي لا يزالُ اكابدُ ألمه على تلك الجرعِ المريرة التي كنت أجربُك إياها بيدي وأنت تجود بنفسك، فيريدُ وجهك، وتخلجُ اعضاءك وتدمعُ عينك . ومالك يدُ فتستطيعُ أن تمُدَّها إليَّ لتدفعني عنك، ولا لسانُ فتستطيعُ أن تشكو إليَّ مرارة ما تذوق .»

القصة

تحتلُّ القصة ارحب صدر في آثار المنفلوطي، فهي ممتزجة باجتماعياته، منتظمة اقاصيل في العبرات، مستقلة في كتب خاصة . ومنها ما هو مترجم، ومنها ما هو موضوع . وسواء ترجم او وضع لا يأنس الا بالقصص الكثيرة الباكية، قصص البائسين من العشاق، والمحزونين الذين نكبتهم الارزاء . قصص اولها عذاب وشقاء، وآخرها بأس فموت او انتحار .

بكى المنفلوطي في اجتماعياته، ولم ترقأ له دمة في قصصه . وكان البكاء قد اصبح زياً من ازياء الادب الحديث، ترسم فيه الكتاب والشعراء مذهب الطبيعيين من ادباء الفرنجة . وشغفوا به، اذ رأوه يتلاءم مع روح الشرق، في حرمانه الحريية، ومكابدته الاذى والضم، وفي انحلال اخلاقه، وانتشار الخلاعة والفساد في امصاره . فالمنفلوطي في بكائه لم يخرج عن سنَّة ابناء عصره، الا انه افراط في ذرف دموعه، وبالغ في نحيبه وتشاومه، وتورط في اختيار موضوعاته الاجتماعية، وقصصه الغرامية، فاذا به كيفما جنته، رسول الموت، ونذير الشقاء .

بيد انه على عنايته بالقصة وضماً وترجمة، لم تهينهُ الطبيعة لان يكون قصاصاً بارع الفن، فضعف تأثيره في النفوس، الا ما كان من قصصه المنقولة . وهي على جمالها في الاصل، خسرت بالترجمة غير قليل من فنها وسحرها، لانها كانت تصل الى الكاتب على ذمة الناقل، فيتصرف فيها ويلخصها كما يشاء .

ونقص الفن عند صاحبنا ناتج عن ضعف الثقافة أولاً . ثم عن ضعف العناصر القصصية : كسعة الخيال، ودقة النظر في مراقبة الأشياء وحسن تصويرها، وتحليل العواطف والأهواء، وبث الحياة والحركة في الأشخاص، وصدق اللون المحلي، وبراعة المفاجآت والانتقالات، وقوة الجاذبية التي تعمر القارئ في تسلسلها من بدء القصة الى ختامها .

فثقافة المنفلوطي ازهرية محدودة، ان اتسعت فالى قراءة الصحف والمجلات وبعض الكتب العربية القديمة . وخياله ضيق لا ينطلق في افق علوي فسيح، فلم تجاوز قصته سرد الخبر، كما وعته الحافظة، على شي . من التفنن في التعابير والتشابه . ولم تجاوز اعطاء النصائح، والقاء المواعظ المملّة، كما ناجى بها الذهن وارتضاها المنطق .

ولئن وصف بعض الاشياء المادية واحسن وصفها، وتشبيهها، ليعجز ان يتنبه لدقائق الأمور ويصورها، وان يتصل بالنفس الانسانية، ويفوص على كنوزها ويستجلي اسرارها، ويمزج شواعرها بشواعر قرائه ، ويعطيها حياة من حياتهم وحركة من حركتهم . ولم يظلمه محمود تيمور حين قال : ان اشخاص قصته اشباح لا ارواح . وقصصه الموضوع على الاطلاق، ناصلة اللون المحلي لا ينميها مصر من الامصار، بعاداته، ولا بازيائه، ولا بطبيعته اقليميه .

والمفاجآت باردة في الجملة، ولاسيا المواقف التي تحتاج الى تمثيل العواطف، والبودر النفسية، فانها مقضوبة مفضوبة، كأنما جذبت على الرغم منها جذباً . وانت تشعر عندها، بانقباض وخيبة وغيظ، شأن الذي يقع على غنيمة مشتهاة، ففلت من يده . مثال ذلك موقف المرأة المتهمة امام القاضي الذي خدعها، وسلب عفافها . فقد كانت واعظة منطقية اكثر مما هي عاطفية نائرة، ذلك بان الكاتب شق عليه تصوير نفسيته، فجعلها تتكلم بنفسيته :

« جاء يوم الفصل في أمرها، فسيقت الى المحكمة، وفي يدها فتاتها، وقد بلغت السابعة من عمرها . فاخذ القاضي ينظر في القضايا، ويحكم فيها بما يشاء حتى اتى دور الفتاة . فما وقفت بين يديه، ووقع بصرها عليه، حتى سُدرت عن نفسها، وألم بها من الحيرة والدهشة ما كاد يذهب برُشدّها . ذلك انها عرفتّه، وعرفت ان ذلك الفتى

الذي كان سبب شقائها، وعلة بلانها . فنظرت اليه نظرة شزراء ، ثم صرخت في وجهه صرخةً دويى بها المكان دويياً وقالت :

رويدك يا مولانا القاضي، ليس لك ان تكون قاضياً في قضيتي، فكلانا سارق، وكلانا خائن، والخائن لا يقضي على الخائن، والمص لا يصلح ان يكون قاضياً بين اللصوص .

فمَجِبَ القاضي والحاضرون لهذا المنظر الغريب، وغضب لهذه الجرأة العجيبة . وهم ان يدعوا الشرطي، لاجراجها، فحسرت قناعها عن وجهها ، فنظر اليها نظرة ألم فيها بكل شيء، فشعر بالردة تمشى في اعضائه . وسكن في كرسية سكون المحضّر في سرير الموت . وعادت الفتاة الى اتمام حديثها فقالت :

انا سارقة المال، وانت سارق العرض ، والعرض اثن من المال . فانت اكبر مني جنابةً، واعظمُ جرماً .

ان الرجل الذي سرقتُ ماله يستطيع ان يعزي نفسه عنه باسترداد او الاعتياض منه . اما الفتاة التي سرقت عرضها، فلا عزاء لها، لان العرض الذاهب لا يعود . « اه وغير خفي ما لهذه المواعظ الباردة من اثر سيى في مثل هذه المواقف الحارة . ولم يكن في انتقاله اكثر توفيقاً منه في مفاجآته، فان كثيراً منها يبدو عليه التطفل والتعمل، لانه لم يهد له تمهيداً طبيعياً ينقذه من التكلف .

واما الجاذبية التي يرفعك بها الكاتب البارع الى افق سحري، فلا حظ لها البتة عند المنفلوطي . وانما هو يسير بك سيراً عادياً، في منبسط من الارض، فيسليك مرة ويضجرك اخرى، ولكنه لا يستولي على شواعرك ولا يستهويك .

واذا انت تركته لا يعلق بنفسك من اشخاصه وحوادثهم شيء . فقصصه في مجموعها، ضئيلة الاثر، لم يكتب لها النجاح ، ساذجة التاليف، فيها شبه باخبار العشاق عند العرب : حب، فيأس، فشهقة، فانتفاضة، فوفاة . ولولا الذي نقله عن الفرنسية كالضحية، ومجدولين، والفضيلة، لما بقي له شيء يذكر .

الملوب الإنشائي

لم يتمكن أسلوب الأزهرين من نثر المنفلوطي، فيعتمد على الصناعة اللفظية وما ينبغي لها من تسجيع وتجنيس، ونكت بديعية . ذلك بان الكاتب لم يتشقف ثقافة ازهرية خالصة، وإنما تلمذ بنفسه لبلغاء الكتاب المطبوعين، فأثرت فيه أساليبهم، فانطبع انشاؤه عليها، ولم ينجح الى التكلف المستهجن حتى في رسائله . ثم لا جرم ان القصص التي نقلها عن الفرنسية، قد احدثت في أسلوبه الروايات الجديدة، وكان لها يد فعالة في توجيه انشائه وتلبيته .

بيد انه بقي له شيء من تراث الأزهر، يحتفظ به في كتابته، وهو الافراط في استعمال المترادفات، ومعاينة الجمل على المعنى الواحد، والاسهاب المديد الذي تفيض معه الالفاظ كالوابل المنهمر . وأوتي ديباجة مشرقة، ونعنة موسيقية، فكان في اسهابه وترادفه، كمن يتظرف في مزاجحة لفظه، ويستطرب بوقع نبراته :

« دارت الايام دورتها، وباعت الفتاة جميع ما تملك يدها، وما يحمل بدنها، وما اشتمل عليه غرفتها، من حلى، وثياب، وأثاث . . . اهـ »

« فلم يزل يسخها، ويروضها حتى هدا روعها، وعاد اليها رُشدها . وعلمت أنها ليست بين يدي الرجل الذي تحافه . فنظرت اليه نظرة هادئة، ساكنة، لو أنها اتصلت بلسان ناطق وفم لحدثت عما وراءها من لواجج الاحزان، وافانين الاشجان . » اهـ
وله براعة في اصطناع التشابيه المحسوسة والكنايات والاستعارات والاشارات، فيعطيك بها صوراً حسنة الاشياء المادية التي يريد نعتها . ومما يجدر ذكره انه كان يجتنب جهده القوالب الموروثة المتداوله، فما نجد منها في كتابته الا نورا يسيراً . وربما اتخذ تشابيهه وصوره من الفنون العصرية المستحدثة كقوله :

« وكنا مولعين بالتقليد، وآمكم به، لا نكاد نعرف لانفسنا صورة خاصة ترتكز عليها اعمالنا في الحياة . بل كانت تمرُّ بنا جميع الصور على اختلاف انواعها والوانها، فنلتقطها بأسرع مما يلتقط « الغلام » صورَه . كأن فضاء حياتنا معملٌ

لتجاريب الحياة واختباراتها . « اه .

ومن تشابيهه الجميلة :

« لم تستطع يدُ الموت ان تمحو كل آثار جماله . بل بقيت منه بعد الموت بقيةً
كذلك البقية من الرائحة العطرة التي يستنشقها الانسان في الزهرة الذابلة . « اه .

ومن تشابيهه مع حسن التعليل :

« فأبغضت الكاذبين بغض الأرض للدم . «

ومن اشاراته التمثيلية :

« وقد وضعت رأسها بين ركبتيها اتقاءً للبرد الذي كان يعبث بها عبث النكباء
بالعود . وليس في يدها ما تتقيه به إلا أسألُ تترأى مزقها فوق جسمها العاري
كانها السياط فوق اجسام المستعبدين في عهد الاستبداد . « اه

ومن كذاياته :

« فرأيت حوله مجتمعا حافلا تصطك فيه الاقدام بالاقدام، وتترج فيه الانفاس
بالانفاس . « اه

وربما ضرب الامثال القصيرة لايضاح فكرته كقوله :

« فانا اسير بينهم سائر رجل بدأ يتقطع مرحلة لا بد له ان يفرغ منها في ساعة
معيّنة . ثم علم أن على يمين الطريق التي يسلكها روضة تعتنق اغصانها وتشتجر
افنانها . وان على يساره غابا ترأر أسوده، وتعوي ذئابه، وتفتح افاعيه وصلاله . فضى
قدما لا يلتفت يمينه مخافة ان يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره . ولا يسرة
مخافة ان يهيج بنظرته فضول تلك السباع الملقية، والصلال الناشرة، فتعرض
طريقه . « اه

وكثيراً ما يستشهد بالشعر، ابياتاً كاملة، او انصاف ابيات . وقد يملله فيجعله

نثراً كقوله يناجي القمر :

« ها أنا ذا يُنخِلُ الي اني ارى صورته^(١) في مرآتك . وكأني اراه يبكي

من اجلي كما ابكي من اجله، فازداد شوقاً اليه، وحزننا عليه . فأبقَ في مكانك
طويلاً، تطلُّ وُقُتُنَا، ويدُمُّ اجتماعنا^(١) . « اه

وله تعابير محبوبة عنده لا يفتأ يعود إليها في كل ساحة :
« الفينة بعد الفينة . اخدع نفسي عن نفسي . بين جنبيها نار تضطرم ، وجنين
يضطرب . في ليلة من ليالي الشتاء، حالكة الجلباب، غدافية الإهاب . »
ومن خصائصه ردّ الجمل على نفسها للمشاركة في العمل : « واخدعه عن نفسي،
ويخدعني عن نفسه . لا يلوي على احد، ولا يلوي عليه احد . »

وله استعمالات غير مستحبة : منها ضعيفة نائية : « فان شيئاً من ذلك لم يكن^(٢) » .
ومنها مصرية عامية : « مفاليك فلاكة . » ومنها اتخذت لغير معناها : « مُتَمَدِّين
بمعنى مُتَمَدِّن » . ومنها ما يقتضب بها الكلام اقتضاباً ولاسيا في المواقف العاطفية،
والمواقف التي تحتاج الى تفصيل ، او تحليل نفسي . ويكون اقتضابه على الاخص
بقوله : « فألم بكل شيء . . ففهمت كل شيء . . » وقد اكثر من هذا الاستعمال في
كتابه، مع قلة توفيقه به، حتى تبعض : مثال ذلك كلامه على المرأة التي اراد زوجها
ان يبلو امانتها، فاتفق مع احد تلاميذه عليها، ثم تماوت . وتعارض التلميذ ، فهامت
به المرأة، فزعم لها ان لا سبيل الى شفائه الا بان يطعم دماغ ميت ليومه . فجات
بفأس لتفلق رأس زوجها، وتستخرج دماغه . فلما دنت من السرير فتح عينية . فاليك
كيف يقتضب الكلام عندما يصل الى وصف تأثير هذه المفاجأة في نفس المرأة، وما
كان من امرها في هذا الموقف الرهيب :

« ورفعت الفأس لتضرب بها رأس زوجها الذي عاهدته ألا تتزوج من بعده . »

(١) قال الشاعر :

إلى الطائرِ النَّسْرِ أَنْظُرِي كُلَّ لَيْلَةٍ ، فَإِنِّي إِلَيْهِ بِالْعَشِيَّةِ نَاطِرُ (*)
عَسَى يَلْتَقِي طَرْفِي وَطَرْفَكَ عِنْدَهُ فَتَشْكُو إِلَيْهِ مَا تَجُنُّ الضَّائِرُ

(*) الطائر النسرا او النسرا الطائر : كوكب . (٢) درج كتاب مصر المعاصرون على
هذا الاستعمال المستهجن . وانسحب على اذياهم بعض صحافي سورية ولبنان . ووجه الضعف
هنا في الابتداء بالنعرة دون مسوغ، وغرابة تأخير الفعل من غير ضرورة .

ولم تكذب تنهوي بها حتى رأت الميت فاتحاً عينيه ينظر اليها . فسقطت الفأس من يدها، وسمعت حركة وراءها . فالتفتت فرأت الضيف^(١) والخادم واقفين يتخاضحكان . ففهمت كل شيء .

وهذا تقدم نحوها زوجها وقال لها : أليست المرؤحة في يد تلك المرأة أجمل من هذه الفأس في يدك . اليست التي تجفف تراب قبر زوجها بعد دفنه أفضل من التي تكسر دماغه قبل نعيه ! . فصارت تنظر اليه نظراً غريباً . ثم شهقت شهقةً كانت فيها نفسها . « اه

فما كان اغناه عن « فهمت كل شيء » ، وبرودة استعمالها في هذا المكان .

واسلوبه على الغالب خبري ممتزج بالخطابي لما فيه من المواعظ ، والذجاوى ، والتعريفات الخطائية البديهة . والتعريف الخطابي سهل المتناول يلجأ اليه الكاتب خديعة وتويهاً ليؤثر في النفوس ، ويستفزها اذا فاته عمق التفكير ، وقوة التحليل ، ودقة النظر . فن ذلك قوله في الغد :

« الغد، شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد، فربما كان ملكاً رحيماً، وربما كان شيطاناً رحيماً . بل ربما كان سحابة سوداء اذا هبت عليها ريح باردة حلت اجزاءها وبعثرت ذراتها ، فاصبحت كأنها هي عدم من الأعدام التي لم يسبقها وجود . الغد، بحرٌ خضمٌ زاخرٌ يعبُ عبابه . وتصطبغ امواجه . فما يدريك أن كان يجول في جوفه الدرّ والجوهر ، او الموت الاحمر .

لقد غمض الغد عن العقول، ودق شخصه عن الانظار حتى لو ان انساناً رفع قدمه ليضعها في خروجه من باب قصره لا يدري أليضعها على عتبة القصر ام على حافة القبر . الغد، صدر مملوء بالاسرار الغزار ، تحوم حوله البصائر ، وتنسقطه العقول ، وتستدرجه الانظار ، فلا يبوح بسر من اسراره إلا اذا جادت الصخرة بالماء الزلال . « اه

وانشاؤه على الاجمال ، هادى الخطوات لين الملامس ، الا في مواقف العصبية

(١) الضيف : هو التلميذ نفسه .

الدينية . مشرق الديباجة واضحا ، فيه رونق وماء ، وحلاوة وانسجام ، ورقة وتظرف .

منزلة

كتب المنفلوطي قصصاً جميلة نقلها عن الفرنسية ، وانشأ في الصحف مقالات تناول بها الحياة الاجتماعية في بؤسها ومرض اخلاقها ، وآثر الفقر والضعف ، على الغني والقوي . ونقر على الوتر الاسلامي الحساس في الدعوة الى الاصلاح ، واستعادة المجد المفقود ؛ فكان لاقواله اثر في نفوس الشبان خاصة ، لان حديث الحب والشقاء والموت والانتحار يثير عاطفتهم الملتهبة . وفي نفوس المسلمين عامة لان حديث الاصلاح والمجد القديم ، هو النعم الحلو الذي تستخف نبراته شواعر كل مسلم . وأعجب الناس بجمال انشائه ، وسهولة تعبيره ، فجلسوا اليه يطالعون قصصه ومباحثه ، فكانت له شهرة في حياته لا تنكر . الا انها اخذت تتضاءل بعد موته لاتساع الثقافة العربية ، ونهضة النقد الادبي . ولولا جمال انشائه ، وقرب عهده ، لما ثبتت له شهرة الى اليوم ، لان اتجاهه الاجتماعية ، ومنها الاسلامية ، ضعيفة في الجملة ، غير حقيقة بالخلود ؛ وان احدثت في حينها تأثيراً . وهكذا شأن القصة عنده ، موضوعة كانت او مترجمة . فضعف فنهما ، وانتشار الادب العربي كفيلا ن بجوها .

وان كان للمنفلوطي من فضل ، فانه يعود على تلطيفه اذواق الكتاب الذين تلمذوا له في مصر خصوصاً ، وعلى خروج اسلوبه من الجزالة القديعة الى النعومة الحديثة . ومن السجع المصنوع ، الى المرسل المطبوع . ومن القوالب التليدة ، الى التعابير الطريفة . وانه وان لم يبلغ في تفننه واختراعه طبقة الكتاب المجيدين ، لقد ارتفع بحسن انشائه ، الى المنزلة الاولى بين المترسلين .

- الخطابة

بلغت الخطابة من الضعف في ازمة الانحطاط مبلغاً زرياً . وكادت تقتصر على قوالب محفوظة تتلى في الجمع والاعياد . فلما نشأت المدارس الحديثة، جعلت لها شأناً رفيعاً في مناهجها . ودأبت تحمل الطلاب على المباريات الارتجالية، ليتعودوا ذلاقة اللسان، وتستوسق لهم ملكة الفصاحة .

وكانت مدارس الرهبان اعجل من غيرها الى تعهد هذا الفن وحيائه، لاضطرارهم الى الوعظ والارشاد في الكنائس، فظهر منهم خطباء مصاقع، دانت لهم اعداء المنابر، ونهضت بهم الخطبة الدينية نهضة ميمونة .

وسبقت بيروت سائر الامصار الى الخطب الاجتماعية والعلمية، قامت بها الجمعيات التي تآلفت فيها منذ سنة ١٨٤٧ . ولكن هذه الخطب كان اكثرها محاضرات تتلى مكتوبة على الورق .

وكان ازدهار الخطب الاجتماعية والسياسية في مصر بعد ان هبطها فيلسوف الشرق جمال الدين الافغاني^(١) . فقد تحلقت حوله الطلاب، فاخذ يث فيهم روح الحرية والاستقلال، وجمع كلمة الاسلام . وسار على اثره تلميذه الشيخ محمد عبده^(٢) فكانت خطبها ممهدة طريق الثورة العراقية، ومؤذنة بارتفاع صوت خطيبها المفوه

(١) ولد في اسعد اباد ١٨٣٨ م (١٢٥٤ هـ) . وجاء مصر سنة ١٨٧١ ومات في الاستانة ١٨٩٧ م (١٣١٥ هـ) . (٢) ولد في سنة ١٨٤٩ م (١٢٦٦ هـ) في محلة نصر من اقليم البحيرة بمصر . درس بالازهر ثم اتصل بجمال الدين الافغاني، وافاد منه علماً كثيراً . وكان الداعية الاكبر للاصلاح الديني، والاجتماعي في مصر . ونفي بعد الثورة العراقية، فجاء سورية ولبث ست سنوات ثم غادرها الى باريس، وانشأ جريدة العروة الوثقى مع استاذة الافغاني . ودرس في تلك الاثناء اللغة الفرنسية . ثم اجازوا له الرجوع الى مصر واسند اليه منصب الافتاء، فظل فيه حتى مات في سنة ١٩٠٥ م (١٣٢٣ هـ) .

عبدالله نديم^(١) . ثم نبغ زعيم الحزب الوطني وخطيبه المنطيق مصطفى كامل^(٢) . فكان للخطبة السياسية حظ كبير في ايامه . وسلمها من بعده الى سعد زغلول^(٣) . فاعرفت العربية في الانبعاث اخطب من سعد، ولا ابلغ تأثيراً . ولم تحرم سورية الخطباء السياسيين في جهادها الوطني ، وثورتها في طلب الاستقلال . وكان لتأليف الاحزاب والاندية والمحافل ، ومجالس الشيوخ والنواب ، ولتنظيم المحاكم الاهلية ، وحرقة المحاماة يد بيضاء على الخطابة من علمية واجتماعية ، وسياسية وبرلمانية وقضائية . على انها لم تسلم في الجملة من اللحن ، وفساد مخارج الحروف .

(١) ولد في الاسكندرية ١٨٤٥ م (١٢٦١ هـ .) وتوفي في القسطنطينية ١٨٩٦ م (١٣١٤ هـ .) . (٢) ولد بالقاهرة سنة ١٨٧٤ م (١٢٩١ هـ .) وتوفي سنة ١٩٠٨ م (١٣٢٦ هـ .) . (٣) هو ابن ابراهيم زغلول ولد سنة ١٨٥٦ او ١٨٥٧ م (١٢٧٣ او ١٢٧٤ هـ .) في بلدة ابيانة من مديرية الغربية ودرس في الازهر ، ثم اتصل بالافغاني واخذ عنه . وتقلب في مناصب عديدة ، وكان اكبر زعيم وطني في مصر . توفي سنة ١٩٢٢ م (١٣٤٦ هـ .) .

الصحافة^(١)

ولدت الصحافة العربية على ايدي الاجانب من فرنسيين واميركيين لان هذا الفن بضاعة دخيلة لا عهد للشرق بها قبل امتزاجه بالعرب .
وكانت مصر مهد الصحف الاولى منذ دخلها نابوليون الاول، وتلتها الجزائر بصحيفة^(٢) المبشر نشرتها الحكومة الفرنسية سنة ١٨٤٧ . ثم بيروت بمجلة^(٣) سنوية انشأها المرسلون الاميركيون سنة ١٨٥١ .

على ان هذه الصحف ما خرجت عن كونها رسمية من قبل الحكام او دينية علمية من قبل المبشرين .

واما الصحف السياسية الاهلية ، فقد كان بدؤها في الاستانة بجريدة^(٤) مرآة الاحوال لرزق الله حسون^(٥) سنة ١٨٥٥ . ثم صارت الصحافة الى ايدي اللبنانيين فاستأثروا بها برهة من الزمن لما هم عليه من الثقافة الحسنة، ونشاط النفس واقدامها،

(١) ذكر الفيكونت فيليب دي طراز في كتابه تاريخ الصحافة العربية ان الشيخ نجيب الحداد ابن اخت الشيخ ابراهيم اليازجي هو اول من اصطلح على لفظ الصحافة، واشاع استعماله . (٢) اول من استعمل الصحيفة بمعناها الحديث الكونت رشيد الدحداح وكانت تسمى قبلاً الوقائع او غزيرة معربة عن « Gazette » او جرنال . (٣) المجلة لفظه اصطلح عليها الشيخ ابراهيم اليازجي للصحف الدورية التي تبحث في العلوم والفنون، ومعناها في الاصل صحيفة الحكمة . (٤) في تاريخ الصحافة العربية للفيكونت دي طرازي ان احمد فارس الشدياق اول من اطلق لفظ الجريدة على الصحف المنشورة . والجريدة لغة الصحيفة يكتب عليها . (٥) نصراني من طائفة الارمن الكاثوليكية ولد ببلد نحو سنة ١٨٢٥ وتعلم بلبنان العربية والفرنسية والتركية والارمنية، واللاهوت والرياضيات . وسافر الى الاستانة، وانشأ جريدته في اثناء حرب القرم، ومات بلندرة سنة ١٨٨٠ .

فرفعوا منارها في بيروت^(١)، واوربسة^(٢) ومصر واميركة^(٣). فكان لهم الفضل الاكبر في بعثها وحياتها.

ولم تنشط مصر الى هذه الصناعة الا بعد ان ازدهرت في لبنان، مع انها ولدت بها دون غيرها. فمر عهد محمد علي، وتلاه عهد عباس ثم سعيد، وليس في القطر جريدة او مجلة الا الوقائع الرسمية. فلما انتهى الحكم الى اسماعيل، ومضى يبسط كفه للادباء، ويعني بتعزيز الاداب والعلوم، بدأت تتحرك الاقلام وتنجم الصحف. فظهرت اليعسوب في القاهرة سنة ١٨٦٥ لمحمد علي باشا الحكيم، وابراهيم الدسوقي، وكانت مجلة طبية. ثم ازمان لعبدالله ابي السعود سنة ١٨٦٦ اول جريدة سياسية اهلية. ثم نزهة الافكار لابراهيم المويلحي ومحمد عثمان جلال سنة ١٨٦٩. وتسامع الادباء اللبنانيون بعطف اسماعيل على الادب. وشاقهم ما في مصر

(١) كانت اولى الجرائد في بيروت حديقة الاخبار لخليل الخوري (١٨٥٨) ونفير سورية (١٨٦٥) ومجلة الجنان (١٨٧٥) للمعلم بطرس البستاني. والجنّة لولده سليم (١٨٧٥) والبشير للاباء اليسوعيين (١٨٧٥) والجنينة لسليم البستاني (١٨٧١). وثرات الفنون اول جريدة اسلامية انشأتها جمعية الفنون سنة ١٨٧٥، واعضاؤها من ادباء المسلمين واعيانهم. ومجلة المقتطف للدكتور يعقوب صروف، والدكتور فارس نمر (١٨٧٦)، والطبيب للدكتور بوسط الاميركي (١٨٧٧) تعاقب في ادارتها وتحريرها جمهرة من الكتاب منهم الشيخ ابراهيم اليازجي. ولسان الحال لخليل سر كيس (١٨٧٧) وديوان الفكاهة لسليم شحادة وسليم طراد (١٨٨٥) وهي اول مجلة قصصية. والاحوال لخليل البدوي (١٨٩١) والمشرق للاباء اليسوعيين (١٨٩٩). (٢) كبرجيس باريس في عاصمة فرنسا للكونت رشيد الدحداح (١٨٥٨). والجوانب في الاستانة لاحمد فارس الشدياق (١٨٦٥) ومجلة مصر القاهرة في باريس لاديب اسحق (١٨٧٩) والمستقل في غلياري عاصمة سردينيا ليوسف باخوس (١٨٨٥) والبصير في باريس لخليل غانم (١٨٨١). (٣) اخذ اللبنانيون في الهجرة الى اميركة في اواخر القرن التاسع عشر واولائل العشرين بعد ان ضاق عليهم الرزق في موطنهم فاثاروا في مهاجرهم تياراً ادبياً وانشأوا صحفاً كثيرة بيّنة الرقي، منها ما يظهر يومياً بثنائي صفحات. واقدم جرائدهم كوكب اميركة لنجيب عريبي انشأها في نيويورك (١٨٩٢). واول جريدة يومية الهدى لنعوم المكرزل انشأها سنة (١٨٩٨) مجلة شهرية في فيلادلفيا. ثم نقلها الى نيويورك وجعلها نصف اسبوعية، ثم جعلها يومية بثنائي صفحات كبار.

من فضاء رحب، ورزق واسع، فغمموا شطرها يحملون اليها علماً صحيحاً، ورقياً ناضجاً، فانسلكوا في دواوينها ومتاجرها يديرونها ويحسنون تنظيمها، واقبلوا على الصحافة يضطلعون بعينها، ويدربون عليها المصريين . فنهضوا بها، ودفعوها الى الامام، منفردين بادارتها اكثر من عشر سنوات، حتى برع الوطنيون في مصر . فهبوا الى انشاء الصحف، ولكنهم لم يستغنوا عن اللبنانيين في تحريرها، فساهم هؤلاء في كل جريدة ظهرت الى ذلك العهد . وكانت الاهرام اولى الجرائد اللبنانية انشأها في الاسكندرية سليم وبشارة تقلا سنة ١٨٧٦ . وانتقلت الى القاهرة سنة ١٨٩٢ . ثم المحروسة في الاسكندرية لاديب اسحق وسليم نقاش سنة ١٨٨٠ .

وكان اسماعيل على ميله الى نشر الاداب يضيق صدره عن احتمال النقد، فلكيت منه الصحافة عنفاً وشدة، فالغى نزهة الافكار، ونفى الشيخ ابا نظارة^(١) . وكاد يودي بالاهرام، لو لم يشد ازرها ممثل فرنسة .

وبولغ في ارهاق الصحافة زمن توفيق عندما ذر قرن الثورة العرابية، فوضع قانون المطبوعات سنة ١٨٨٠ فنال الصحف بشر كبير، فمنها ما النغي، ومنها ما حبس لمدة معلومة .

ولبثت الحرية الفكرية مودة حتى وقع الاحتلال الانكليزي، فبعثها اللورد كرومر من رمسها، فاقبل الكتاب على انشاء الصحف وفيهم المصريون . وهاجر جماعة من لبنان الى مصر يلتمسون بها هذه الحرية، بعد ان حرمهم اياها عبد الحميد . وكان في جملتهم الدكتور يعقوب صروف، والدكتور فارس نمر، وشاهين مكاريوس، فانشأوا المقطم سنة ١٨٨٩ . وصدرت المؤيد في السنة نفسها يديرها الشيخ احمد ماضي والشيخ علي يوسف . واتخذت لها سياسة تعاكس سياسة المقطم وهي اول جريدة اسلامية مصرية ذات شأن .

وكانت الصحف يومئذ قد ازدادت واختلفت مذاهبها السياسية، فمنها الاحتلالية،

(١) هو يعقوب بن رافائيل صنوع من اليهود ولد في القاهرة سنة ١٨٣٩ وانشأ فيها

جريدة هزلية سماها « ابو نظارة » وتكنى جا . ومات في باريس سنة ١٩١٢ .

كالمقطم والزمان والنيل . ومنها مصرية فرنسية كالأهرام والمؤيد . ومنها مصرية خالصة على شيء من انصاف المحتلين كمرآة الشرق والوطن . ومنها مصرية عثمانية كحقيقة الاخبار، والفلاح .

وفي سنة ١٨٩٢ اهل قانون المطبوعات ، فبلغت الصحافة غاية ما ترجوه من الحرية والانطلاق، فنهضت نهضة محسوسة، وتضاعف عددها . ثم ظهر اللواء سنة ١٩٠٠ لمنشئه مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني، فبعث في صدور المصريين روح مقاومة المحتلين لاجلائهم عن مصر . فتبدلت سياسة انكلترة منذ اليوم، واعتمدت على خطتي الارهاب والمداهنة، بعد الود والصفاء .

وقبض العميد اللورد كتشنر على خناق الصحافة، بعد ان تاذى من تطرف الصحف الوطنية، ومجاورتها حد الاعتدال، فاقفل اللواء والعلم ومصر الفتاة وسواها، وتصاب في السماح بانشاء جرائد جديدة .

ومضت فترة في الحرب الكبرى والصحف مسالمة الاحتلال ، بعد ان بسطت انكلترة حمايتها على مصر . فلما خمدت نيران الحرب، هب المصريون وعلى رأسهم سعد زغلول باشا ينادون بالاستقلال والغاء الحماية، فعادت الصحف الوطنية الى رفع الصوت، ومناهضة السياسة البريطانية، فعبّرت اصدق تعبير عن اماني المصريين ورغائبهم على اختلاف احزابهم وسياساتهم .

وقد تقدمت صحف مصر بعد الحرب تقدماً عظيماً، جارت به صحف اوربة، في جرمها وترتيبها وتصويرها، وبرقياتها واخبارها . وصار بعضها ينجم يومياً باثنتي عشرة صفحة كبيرة او بست عشرة صفحة شأن الأهرام . وارتقى جرائدها ومجلاتها، واكثرها انتشاراً، اللبنانية منها كالأهرام، والمقطم، والمقتطف^(١)، والهلال^(٢) .

أما الصحف اللبنانية في بيروت فقد تفهقرت تفهقراً مشؤوماً في عهد عبد الحميد ولم ينبض لها وتر الا بعد ان نودي بالدستور العثماني، سنة ١٩٠٨ . فعادت الى النهوض

(١) نقل المقتطف من بيروت الى القاهرة سنة ١٨٨٥ . (٢) الهلال مجلة ادبية علمية

تاريخية انشأها جرجي زيدان في القاهرة سنة ١٨٩٢ .

والانتشار، وكثرت حتى لم تقتصر على بيروت بل جاوزتها الى المدن والقصبات في لبنان . وكذلك الصحف السورية والعراقية^(١) ، لم يكن لها شأن قبل الدستور، وهي في الاصل دون الصحف البيروتية رقياً . فتقدمت على اثره تقدماً يندأ، وانتشرت، وعمت شتى المدن والامصار بعد ان كانت لا تصدر الا عن كبريات الحواضر . وانقسمت في تحزبها مع العثمانيين فكان منها الاتحادية ، وكان منها الائتلافية .

ولما نشبت الحرب العامة اصاب الصحف في الولايات العثمانية فترة وخمول لما نال حرية الفكر من الضغط والارهاق، ولما اصاب البلاد العربية من ضيق وفاقة، فلم يبق منها الا عدد يسير جارى السياسة التركية على جورها وفسادها، فانقطع ورزق الحياة .

ولم تنق من خمولها الا على نداء داعي السلام، فهبت من رقدتها، وتمطت بعد انقباضها، وقطعت شوطاً حسناً في مضمار النهضة، ونظمت نقاباتها، فعظم شأنها، وصار بعضها يصدر يومياً بثنائي صفحات . وعذبت بتصوير الاشخاص والحوادث^(٢) وتفرعت

(١) ظهر في دمشق قبل الدستور ثلاث جرائد وثلاث مجلات : سورية الرسمية انشئت سنة (١٨٦٥) . ودمشق لاحمد عزت باشا العابد (١٨٧٩) . والشام لمصطفى واصف (١٨٩٦) . ومجلة مرآة الاخلاق لسليم وحناء عنجوري (١٨٨٦) . والشمس لجورج متى وجورج سمّان (١٩٠٠) . والمقتبس لمحمد كرد علي (١٩٠٦) . وظهر في حلب اربع جرائد ومجلة : غدیر الفرات الرسمية (١٨٦٧) . ثم الفرات الرسمية (١٨٦٩) . والشهباء لهاشم العطار، وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٧٧) . والاعتدال لعبد الرحمن الكواكبي (١٨٧٩) انشأها بدلاً من الشهباء . ومجلة الشذور لعبد المسيح انطاكي (١٨٩٧) . وظهر في القدس جريدة واحدة : القدس الشريف الرسمية (١٩٠٣) . وكان في بغداد جريدة واحدة ومجلة واحدة وهما الزوراء الرسمية (١٨٦٩) . ومجلة زهيرة ببغداد للاباء الكرملين (١٩٠٥) . وفي البصرة جريدة البصرة الرسمية (١٨٩٥) . وفي الموصل جريدة الموصل الرسمية (١٨٨٥) . ومجلة اكليل الورود للاباء الدومينكيين (١٩٠٢) . (٢) من الجرائد المصورة التي انتشرت بعد الحرب « البيان » لصاحب هذا الكتاب انشأها سنة ١٩٢٣ اسبوعية بثنائي صفحات، ثم باثنتي عشرة صفحة، ثم بعشرين . وحجبتها سنة ١٩٣٠ . وكانت ابجاشاً تشمل على سياسة وادب ونقد وقصص .

موضوعاتها الى سياسة واخبار وادب ونقد وعلوم وفنون . ومنها ما اختص بفن واحد كالصحف الادبية، والرياضية، والتجارية، والزراعية، والهزلية . الا انها ما برحت مقصورة في الجملة عن الصحف المصرية في انتشارها، وثروتها، واتقانها وصرامة سياستها، وسرعة اخبارها . بيد ان لبنان كان وما برح اخصب تربة لانتاج الجرائد والمجلات والانجبا كتابها^(١) .

(١) قال الفيكونت دي طرازي في كتابه « تاريخ الصحافة العربية » الجزء الرابع : « لكننا اذا اعتبرنا عدد الصحف في كل دولة بنسبة عدد سكانها ومساحة ارضها فيكون لبنان اسبق جميع البلدان في ميدان الصحافة العربية . فانه يحوي من السكان ثمانمائة وخمسين الف نسمة طبقاً لاحصاء سنة ١٩٣٢ ومن الصحف اربعمائة وستاً وعشرين صحيفة . اي ان لكل الف نسمة صحيفة واحدة في الجمهورية اللبنانية . بينما نرى غيرها من كبريات الدول العربية تصيب فيها الجريدة الواحدة نحواً من ستائة الف نسمة » اه .

منزلتها وتأثيرها

لا يخفى ما للصحافة صاحبة الجلالة من الأثر البليغ في نهضة الشعوب وتقدمها . وقد كان لها يد بيضاء على البلاد العربية إبان يقظتها . فهي التي قاومت الاستبداد والمستبدين، وآزرت الحرية والاحرار . وبعثت الروح الوطني في صدور الشعوب الشرقية الحاملة المتواكلة . وهي التي ربطت الشرق بالغرب، واطلعت المشاركة على حضارة الاوربيين وعلومهم، وفنونهم واختراعاتهم، وسياساتهم واحوالهم . فاستفاد منها العالم والجاهل، وشملت بفضلها الخاصة والعامة . فاذا هي نعم الاستاذ والمربي، والمرشد والمنير .

وكانت الرقيب الساهر على الحكام والمسيطرين، تنتقد اعمالهم، وتنبههم على خطاهم، وتدلمهم على طرق الاصلاح والفلاح .

وكانت لغتها السهلة الحلقة الوسطى بين اللغة الفصحى واللغة العامية، فقربت بينهما بعد تباعد، فاصبح العامي يستاغها، ويراها دانية الى فهمه . والخاص لا ينكرها، ولا يضيق بها صدرأ . وهذبت العامية فنفت عنها كثيراً من الالفاظ الدخيلة المرذولة، واصبحت غير قابل من الالفاظ التي افسدها التحريف . وراضت الفصحى، فالانت اساليب الكتابة، وذلت شوامسها لمختلف الابحاث، واوضحت غوامضها، وزقت اليها الفاظاً ومصطاحات جديدة، قضت بها الحضارة العصرية، وما فيها من علوم وفنون . واطرحت الالفاظ الحوشية، والتعاير البدوية الجافية . فوسعت المعجم اللغوي من حيث ينبغي ان يتسع، وضيقته من حيث ينبغي ان يضيق .

على ان هذه الفوائد التي اتت بها الصحافة قام ازاءها من الاضرار ما يعادها . فقد كثر الاقبال على حرفة الصحف، ووافقه ترخيص من الحكومة في انشائها، فطما سيلها، وفاض حتى جاوز الحد، وافضى الى تبرم الناس به، والى ان يتعاطى الصحافة غير اهلها . فاحترفها المتكسبون المحتالون، وجعلوها اداة للتعيش بالتهويش، ونهش

الأعراض، والتحرش، والهراش. واتخذوا من سياستهم تجارة ومكسباً. يناصرون حكومة على حكومة، وحزباً على حزب، وشخصاً على آخر لا لعقيدة صحيحة، وإنما للكسب والارتزاق.

وفيهم من يبدل سياسته كما يبدل قيصه، جارياً مع المنهل الأعذب. فتراه اليوم يجارب رئيس حكومة، أو يطعن على شركة، أو يقاوم رأياً. ثم تراه في الغد الرئيس الذي يجاربه، والشركة التي يطعن عليها، والرأي الذي يقاومه. وربما ضربوا على وتر الطائفية، وهيجوا التعصب الديني، ونادوا بحقوق ملهم، ولا مآرب لهم إلا الزلفى، والاستكثار من القراء.

ومنهم من يطلب الربح والانتفاع بالطرق الماجنة فيحشو صحيفته باخبار الفحش والدعارة وقصص الحب الشائن، وصور الخلاعة المغربية، فيستهوي بذلك الفتيان الأغرار، واهل البطالة والفساد.

ومثل هذه الحالة يدعو الى الاسف فحري بالحكومات ونقابات الصحف ان يتداركوا هذه الفوضى المنتشرة، فان اضرارها جسيمة، وفي التفاضي عنها ثم عظيم. ويلام الصحفيون عندنا انهم فرديون في اعمالهم، يستقل كل واحد منهم بجريدة على قصر يده، وقلة ماله، وقعود الاحزاب عن مناصرته. فلا يلبث ان تعضه الحاجة، فيضطر الى النكوص خاسراً، او الى اراقة ماء وجهه. فلوا اجتمعوا شركات منظمة، تستند الى رؤوس الاموال، لتسنى لهم ان يخرجوا جرائد قوية راسخة البنيان، آمنين الحاجة، ولكان لهم شأن غير شأنهم اليوم.

ولم تكن جرائد مصر اقوى من جرائد لبنان وسورية والعراق على الاجمال، الا لانها غنية باموالها، واحزابها، وتعاون الجماعات على اصدارها. مع ان سواد كتابها غرباء عن مصر، وجلهم من لبنان.

والصحافيون كثير عددهم، لا يتأق لنا ان نحيط باسمائهم، فانه لم يظهر كاتب في الانبعاث الا اشتغل بالصحافة او ساهم في انشاء الصحف. فنحن نجدى بذكر من كان لهم الفضل المتقدم على نهضة الصحافة ورقيتها كالمعلم بطرس البستاني، اول من

انشأ مجلة جامعة، زاهرة بالجائها^(١) . وابنه سليم اول من اصدر جريدة يومية^(٢) .
 واديب اسحق اول من نهض بالانشاء الصحافي، ورفع مستواه . والشيخ ابراهيم
 اليازجي، اول من هذب لغة الجرائد، وطهرها من الفساد . ونكتفي بدرس آثار
 ولي الدين يگن، لما فيها من عبرة وذكرى لأصحاب هذه الحرفة؛ ولما في شخصيته
 العجيبة من المزايا التي يجمل بالصحافي ان يتحلى بها، الا وهي الجرأة والصراحة،
 والذاهة والاخلاص .

(١) ولد المعلم بطرس البستاني في الدبئية من لبنان سنة ١٨١٩ وتعلم في مدرسة عين ورقة
 العربية والسريانية واللاتينية والاطالية، والمنطق والتاريخ، والجغرافية والفلسفة واللاهوت
 والحق القانوني . ثم هبط بيروت، واتصل بالبعثة الاميركية وقرأ عليهم الانكليزية واليونانية
 والعبرية، وطرفاً صالحاً من العلوم العصرية . وانشأ مجلته الجنان سنة ١٨٢٠، سياسية علمية
 ادبية تاريخية، تظهر مرتين في الشهر . وله غيرها اثار كثيرة سيأتي ذكرها . وتوفي في
 بيروت سنة ١٨٨٣ . (٢) ولد سليم البستاني في عبيه سنة ١٨٤٨ وقرأ العلوم العربية على
 الشيخ ناصيف اليازجي . واتفق التركية والانكليزية والفرنسية . وعين ترجماناً لقنصلية
 الولايات المتحدة . وكان الساعد الايمن لايه في ادارة المدرسة الوطنية، وتأليف دائرة
 المعارف، وتحرير الجنان . انشأ الجنة سنة ١٨٧٠ صحيفة نصف اسبوعية تبحث في السياسة
 والتجارة، وتتناول الانباء البرقية على حساجا . ثم انشأ الجنة سنة ١٨٧١، اربع مرات في
 الاسبوع، فتم له بما وبالجنة التي ظلت تصدر مرتين في الاسبوع، اول جريدة يومية . توفي
 سنة ١٨٨٤ ودفن في بيروت .

ولي الدين يكن

١٨٧٣ - ١٩٢١ م ١٢٩٠ - ١٣٤٠ هـ

حياته

هو ولي الدين بك ابن حسن سريّ باشا، ابن ابراهيم باشا يكن^(١). كان جده هذا ابن اخت محمد علي باشا صاحب مصر. وامه اميرة شر كسية. فهو اصيل الجدين، طيب العرقين. ولد في الاستانة، فقدم به ابوه الى القاهرة، وهو طفل في الثالثة. وتوفي الاب والطفل لم يجز السادسة، فكفله عمه علي حيدر باشا يكن ناظر مال مصر، وادخله مدرسة الانجال التي بناها الخديوي توفيق في عابدين لتعليم اولاده واولاد بعض الامراء والاعيان. فقرأ فيها العربية والتركية، وشيئاً من الانكليزية والعلوم. ثم توفّر على الفرنسية في مدارس اخرى، فاحكمها، والم باليونانية.

واولع بالشعر والصحافة، فنظم وكتب وهو دون العشرين. وعرفت بواكير نفاثته جريدتا «القاهرة الحرة»^(٢) و«النيل»^(٣). ودعي سنة ١٨٩٣ ليكتب للامير في الديوان الاجنبي. ثم ترك الديوان، وانشأ سنة ١٨٩٥ جريدة المقياس، مشاركاً فيها يوسف فتحي.

ورحل ما بين سنة ١٨٩٥ و١٨٩٦ الى الاستانة، فاقام ثمانية اشهر عند عمه محمد فائق بك يكن من اعضاء مجلس الشورى. وانعم عليه عبد الحميد بالرتبة الثانية، وعاد الى مصر مزوداً برضاه وعطفه. ولم يكن يومئذ في صفوف الاحرار، بل كان يقاومهم، ويدافع عن السلطان. فلما جاء الاستانة، وشاهد مصارع الارمن، ومكاييد

(١) يكن : لفظه تركية معناها ابن الاخت. (٢) القاهرة الحرة انشأها عارف

المارديني سنة ١٨٨٥. (٣) النيل : انشأها حسن حسني باشا الطويراني سنة ١٨٩١.

رجال الدولة ودسائس الجواسيس، وشاياتهم، قفل وفي نفسه الم عضو، وفي صدره غلّ على عبد الحميد، ورجاله، ودواوينه. فانشأ جريدة الاستقامة سنة ١٨٩٧، وجعل يحمل فيها على اعوان الظلم، وزبانية الشر، ويدعو الى اصلاح الخلل، وتطهير الفاسد. فاحفظت كتاباته الباب العالي، فمنع جريدته من دخول ولاياته، فضاقت كسبها، فاضطر الى حجبها. ولكنه لم يهجر الصحافة بل شرع يكتب في المشير^(١) والمقطم والقانون الاساسي^(٢).

وكان عبد الحميد يجهد في استرضاء الاحرار واسكاتهم، فيدعوهم اليه، ويعددهم بالاصلاح القريب ونشر الدستور، ويخصهم باخطط العالسة. فدعي ولي الدين في جملتهم، فشخص الى الاستانة سنة ١٨٩٨، فجعل عضواً في مجلس ادارة الجمرک، ثم في مجلس المعارف الاعلى. الا انه كان على خصام متصل مع رجال الدولة لما يرى من فساد اعمالهم، وكذبهم واحتيالهم، واصلف النافذين منهم. فجاني ناظر المعارف، ومدير اوراقها، واهان رئيس كتاب عبد الحميد، ونعته «بالباشكاتب الكاذب». وطعن عليه في بعض الصحف الاجنبية. وشتم اباحية^(٣) حاجب عبد الحميد، وكتب في الصحف المصرية مندداً بابي الهدى صني السلطان، وانفذ الناس لديه. فاحاطت بنزله الجواسيس، وكثرت فيه الاقوال والشايات، واتهمه ابو الهدى بالاشترك في جمعية سرية. وسعت به دار الامارة في مصر، ففتش منزله، وصودرت اوراقه، وفيها ما لا يروق عبد الحميد. فاسودت صحيفته عند السلطان، بل ازدادت اسوداداً. فيينا هو ذاهب يستدعي طيبياً لامرأته النفساء. عرض له شرطي في بعض الطريق، واراد سوقه كرهاً الى المتصرف، فضربه ولي الدين، وما

(١) انشأها سليم سر كيس اللبناني في الاسكندرية سنة ١٨٩٤، وخصها بالطن على الحكومة المستبدة، ومطالبتها بالاصلاح. ثم نقلها الى القاهرة سنة ١٨٩٥. ثم الى نيويورك سنة ١٨٩٩ بعد ما لقي من حكومة مصر حساً وارهاقاً، وحكم عليه في بيروت بالموت غيائياً.

(٢) جريدة سياسية انشأها صالح جمال في القاهرة سنة ١٨٩٨. وكانت تظهر بالتركية والعربية، ويكتب فيها مع ولي الدين الكاتب التركي محمد قدرى. (٣) محمد باشا الجركسي، ويكنى بابي لحة.

زال يضربه حتى انتهى الى دار المتصرفية . فلامه المتصرف على عمله، واسمعه خشن الكلام . فلطمه والقاء على الارض ، فصدرت الإرادة السنية بجسده، فحبس، ثم بنفيه فنفي .

وكان منغاه في سيواس من اعمال الاناضول، فحملته السفينة الى صُنُسُون، ومنها اقلته عربة تقطع به الاودية والجبال في الرحول والثلوج حتى بلغت سيواس يوم الجمعة في ١٤ شباط سنة ١٩٠٢، فدخلها، واهله لا يعلمون عنه شيئاً . فكتب اليهم فوافوه . وكان من عادة الحكومة الحميدية ان تشغل كبار المنفيين بالمناصب فعين ولي الدين حال وصوله معاوناً لمدير اوراق الولاية ، وجعل راتبه خمس عشرة ليرة عثمانية . واتفق ان ولي امر سيواس رشيد عاكف باشا، من المصلحين الاحرار، فلقى كاتبنا حظوة عنده . وكان يجد من عطف السيواسيين، ومصاحبة الاجانب فرنسيين واميركيين وقراءة القصص، ونظم الاشعار ما يرفقه عنه وحشة المنفى حتى اعلن الدستور سنة ١٩٠٨ فعني عنه فرجع الى الاستانة، ومنها الى مصر .

وعاد يكتب في المقطم والاهرام والمؤيد والرائد المصري^(١) والزهور^(٢) . ونشر كتبه : خواطر نيازي، والصحائف السود، والمعلوم والمجهول . ثم انشأ جريدة الاقدام في الاسكندرية سنة ١٩١٢ . ثم عينته حكومة مصر كاتباً في وزارة العدلية، فبقي في منصبه هذا الى اواخر سنة ١٩١٤ . فلما ولي العرش السلطان حسين كامل دعاه اليه وجعله كاتباً في ديوانه، فنعم ولي الدين في قربه، وخصه باحسن مداخله . على ان الدهر ما بسم له الا ليعبس في وجهه، وما صافاه الا ليكدر عيشه، فلم يلبث ان استطال عليه الربو يتتابه بين ساعة وساعة، ويقطع انفاسه . وتمكن منه داء الصدر^(٣) فأذابه عضواً فعضواً . فترك منصبه في القاهرة سنة ١٩١٩، وجاء

(١) انشأها نقولا شحاده اللبناني في القاهرة سنة ١٨٩٦ . (٢) مجلة سياسية ادبية انشأها في القاهرة الشيخ انطون الجميل ، والشيخ امين تقي الدين اللبنانيان سنة ١٩١٠ . (٣) روى لنا ابراهيم سليم النجار ان ولي الدين مات مسلولاً . والتجار صحافي لبناني من دير القمر، انشأ في القاهرة جريدة الكلمة الحرة سنة ١٩١٠ . وكتب في جرائد عديدة في مصر ولبنان وسورية .

حأوان مستشفياً، فتوفي فيها وهو على أشد ما يكون من ألم وفاقة ، بعد ان رزى بثاني ولده، غلام في الخامسة عشرة من عمره ، وبامه وشقيقته . وكان آخر ما نظمه بيتان وجدنا بجانب السرير وهما :

يا جسداً قد ذاب حتى الحمى ، إلا قليلاً عالماً بالشقاء .
اعانك الله بصرٍ على ما ستعاني من قليل البقاء .

ونقل جثائه الى القاهرة، ودفن في مقبرة الاسرة اليكنية، في قرافة الإمام عمر بن الفارض . واطيقت له حفلة الاربعين، فلم يشهدا الا بعض اصدقائه، واكثرهم لبنانيون . وتحلف عنها سواد الادباء المصريين، فكأنهم ينقمون عليه سياسته الاحتلالية، وشدوذه عن تقاليدهم وعاداتهم، فانتقموا منه بعد مماته، واهملوه حتى ان تواريخهم الادبية لم تذكره في عداد كتاب النهضة وصحافيتها .

صفاته واخلاقه

كان نحيل الجسم، عصبي المزاج على قوة ، جريئاً مقداماً ، جلدأ على المصائب، آنفاً على غير تكبر، بل كان يكره المتكبرين ويحتقرهم، ولا يتكبر عن اذلالهم . وكان صريحاً من غير تحفظ ، صادقاً لا يعرف الخداع والكذب ، ولا يطبق مصاحبة المخادعين، والكاذبين . ولطالما لقي الاذى بسبب صراحته وصدقه . وكان حسن المودة، محمود الخالقة، مرهف العاطفة، دقيق الحس، متنبه اللحظ، سريع التأثر، خفيف الروح، لطيف النكتة، حلو التهكم .

وكان كريماً لا يبخل بما تملك يده، راغباً عن المال والرتب والالقاب . وقد سنحت له فرص كان بوسعها ان يغتنمها وينال مراتب ابائه واعمامه، الا انه اعرض عنها وأفاتها في سبيل عقيدته الحرة، ورأيه في الاصلاح . فحق له ان يقول :

تركت الغنى لا عاجزاً عن طلابه، وأنزلت نفسي من منازل محيدي
وهذي، بجمد الله ، مني براءة ، فيا أفق سجّلتها، ويا أنجم شهدي !

وكان يكره التعصب الديني، وينابذ أصحابه، وينفر من التقاليد، ويتعمد اطراحها . فقد تزوج امرأة مسيحية يونانية، فخرق بها تقاليد أسرته الأرستقراطية، وسمى ابنه جان وابنته فيكتوريا، فخرق بهما التقاليد الإسلامية . وثار على أساليب الأقدمين في انشائه، فخرق تقاليد المحافظين . وكان الى ذلك لا يصوم ولا يقيم الصلاة في أوقاتها .

وكان عثمانياً صادقاً إلا أنه لا يجد فرقاً بين عربي وتركي، وبين مسيحي

آثاره

ترك ولي الدين آثاراً في الشعر والنثر . فاما الشعر فلم يُعن بجمعه في حياته ، فجمعه بعد موته اخوه يوسف حمدي يكن، ونشره سنة ١٩٢٤، مقسوماً الى سبعة اقسام : الشعر السياسي، الرثاء والعزاء، التهنية والمديح، الدهريات، الهجاء، الغراميات، المتنوعات . وقدم له الشيخ انطون الجميل كلمة في حياة ولي الدين، وشاعريته، وحريته .

واما النثر فله خواطر نيازي، او صحيفة من تاريخ الانقلاب العثماني، ترجمه عن التركية، ونشره سنة ١٩٠٩ . مؤلفه محمد نيازي بك الرسنه لي بطل الحرية والانقلاب، ذكر فيه ما قامت به جمعية الاتحاد والترقي على يده، من الاعمال لسحق الاستبداد .

وله الصحائف السود، مجموعة مقالات اجتماعية نشرت في المقطم، بعضها باسم زهير مستعاراً، وبعضها باسمه الحقيقي . طبعت سنة ١٩١٠، انتقد فيها بعض العادات والخرافات والاخلاق، وبعض ما يقع في المجتمع من الحوادث الغريبة، والفظائع المستنكرة . فيها كثير من القصص، ومنها ما استهله بايات من الشعر، وربما بلغت القصائد الطوال .

وله المعلوم والمجهول في جزئين انتهى طبع ثانيهما سنة ١٩١١ . احدهما يبحث

في حالة الحكومة العثمانية، وسياسة الاستانة ومصر، وقيام الاحرار على عبد الحميد وانسلاك المؤلف في صفوفهم بعد أن كان يعاديهم، وسفره الى الاستانة، وما مر به في مجلس ادارة الجمرک، ومجلس المعارف الاعلى، وما جرى له مع رجال الدولة من خصام وملاحظات . يتخلل ذلك تعريف برجال عبد الحميد، وحزب تركية الفتاة، والسياسة الانكليزية في مصر . والثاني : يبحث في السبب الذي من اجله حبس ونفي . وفيه وصف سجنه، ووصف سفره الى منفاه، وذكر سيواس واهلها وتاريخها وآثارها وما لقي فيها .

وله التجارب : اجاث اجتماعية انتقادية في كتاب صغير، نشره فؤاد مغنّب^(١) سنة ١٩١٣ . وهو كالصحائف السود مقالات ظهرت في الجرائد قبل ان تجمع، بعضها مصدر بشعر . وفيها قصائد مستقلة . وله، ما خلا ذلك، مؤلفات ضاعت ولم تعرف، وفصول واشعار مبثوثة في الصحف والمجلات .

مميزته

ولي الدين شاعر، وافر الخيال، قوي الاحساس، متقد العاطفة . وله شعر وجداني جميل يستحق ان يدرس . الا اننا اخذنا على انفسنا ان نبحت في آثاره النثرية، التي تتجلى بها حياته العجيبة، وميزته الصحافية، واسلوبه الشخصي . معتمدين على المعلوم والمجهول، والصحائف السود، والتجارب .

(١) صحافي لبناني في مصر .

السياسة

شغف ولي الدين بالسياسة منذ صباه يوم علق يكتب في الصحف . وكان مذهبه في بدء امره عثمانياً حكومياً . لا يحجم عن نقد الانكليز مع حبه لهم ، لانهم كانوا يحمون الاحرار اللاجئين الى مصر ، ويعترف بذلك في المعلوم والمجهول :

« واما النيل فقد تغير في اواخر ايامه ، وظهر تغيره للعيان ، وما غيره صاحبه بل غيرته أنا . على انه لم ينتقد السياسة البريطانية ذاتها^(١) بل استكبر حمايتها الاحرار العثمانيين ، ممن هبطوا مصر ليستمتعوا بحريتها ، ويحتشدوا بها على حرب الحكومة المستبدة المنقرضة . فكنت انا وصاحب النيل رحمة الله عليه ، نذكر على الاحرار مساعيهم ، ونأبى مشاركتهم فيها . » اه

فلما رحل الى الاستانة للمرة الاولى ، وشاهد ما تصنع الحكومة الظالمة ، عاد الى مصر ناقماً عليها ، فانضم الى الاحرار ، ودفع الى المقطم اول مقالة نائرة على الاستبداد^(٢) عنوانها : « نرجع الى الجوايس » قال في آخرها :

« هذا قلم أرَّنُ القوس ، صائبُ الرَّمِيَّة . فَلأَجْرِيْنَهُ حتى لا تبقى من دار الظلم كَيْفَةٌ على كَيْفَةٍ ، وبياض على سواد . ولأَسْيَرَنَ قوارِعَه سُزْباً في كل قاتم الأعماق ، شاسع الأطراف الى ان يقول نصيرُ الحمية : لَيْتَكَ ، ونستريحَ واخواننا مما نحن فيه . » اه

واحتضنته الحكومة البريطانية كما احتضنت غيره من الاحرار ، فازداد لها حباً ، واصبح لا يذكرها الا بكل خير ، ولا يذكر عميدها اللورد كرومر الا شاد بفضله ، ونقته احسن النعوت ، ودعاه مصلح مصر ، واما المصريين المشفق ؛ قال في المعلوم والمجهول :

« ولا اظن ان رجلاً يُشفق على بنيه اشفاق اللورد كرومر على المصريين . فهو

(١) التأكيد بالذات مؤلدة، وانا يؤكد بالنفس والعين . (٢) كتبها في ٢٢ كانون

ابو حريتهم، ومصدر انصافهم، ومورد سعدهم إلا انه كان يُخدم من لا يُحبونه. « اه
ويحدثنا في مقدمة الجزء الثاني من كتابه هذا عن تأثير ثنائه على اللورد
كرومر، في نفوس المصريين :

« نظر اناس في الجزء الاول من المعلوم والمجهول، فأروا صورة اللورد كرومر
وقد كتبت تحتها «مصلح مصر». فألقوا بالكتاب جانبا، واطبقوا جفونهم، وولوا
عنه هارين. راعهم شخص ذلك الرجل الجليل على الورق، فأخذتهم سورتته، ولم تقوَ
عيونهم على النظر في وجهه، فكيف بهم لو تمثلوا بين يديه ورنَّ صوتُه في آذانهم .
وقد زعموا بعد ذلك اني صنيعه الرجل، والرجلُ لا علم له بكتابي الى يومنا هذا.
وهال بعض الجرائد ما في الكتاب، فامسكت عن الكلام فيه . لم تشأ تقريظه ثقةً
منها بان ستشتها الصحف التي تشتم اللورد كرومر، ولم ترد نقده علماً منها بان ساحبها
اذا دعت الى التزال، وتراضينا في هذه القضية على السكوت .

« يا حرية، ظننت بان سيكثر المتنافسون فيك فحفت ان ينفسوا عليّ، واذا هم
يدعونك ولا يعرفونك، فلن اخاف منذ اليوم رقيباً . أنا عرفتك وهمت بك هيأماً
فانا صاحبك من قبل ومن بعد . يريدون ان اكتب ما يريدون واريد ان اكتب ما
اريد . اتسعت مسافة الخلف بيني وبينهم . الشرق وطني وانا في الشرق غريب،
ولا ضير، ان اعرض عن مقالي اهل زماني فعداً يتهافت عليه ابناؤهم . » اه

وكان لا يتلكأ عن تنقص زعماء المصريين الذين يبثون في صدور الشعب روح
مقاومة الاحتلال، شأنه مع مصطفى كامل زعيم الحزب الوطني :

« ثم ظهر مصطفى كامل، وراح ينتصر بالمسيو دلونكل احد اعضاء مجلس
الامة الفرنساوي، وناظر المستعمرات في فرانساً في اواخر سنة ١٨٩٤ تقريباً . وكان
هذا الوزير ووزير الخارجية اذذاك، المسيو هانوتو، من اضداد الاستعمار الانكليزي .
ولم تكن فرانساً اقتنعت بنصيبها من البلاد المغربية بدل البلاد المصرية . فرحب
الوزيران بالشاب المصري، واستخدماه في آرابهما . فكان لهما اشد من البنان طوعاً،
واكبر من الظل اتياداً . فخلق مصطفى كامل من العدم . » اه

فولي الدين يرى ضرورة الاحتلال الانكليزي، ولا يتوقع خيراً لمصر الا في

بقائه . ويجسبك ان تقرأ الفصل الذي كتبه في الصحائف السود، وعنوانه : « المحتلون يخرجون من مصر . » لتبين كيف يخشى الشر عليها اذا تركها الانكليز، فانها في ظنه آيلة الى الفوضى والتقهقر وفساد الاحكام . ومما لا ريب فيه ان سياسته الاحتلالية هي التي جعلت سواد المصريين يعرضون عنه، ويبخسونه حقه بعد مماته .

وجملة القول ان ولي الدين عثماني صادق الوطنية، يريد لبلاده الحرية والمساواة والاخاء، ويكره العبودية والتفضيل والتفريق، لا فضل عنده لتركبي علي عربي، ولا لمسلم علي نصراني، وانما هم اخوة متساوون تجمعهم العثمانية في جامعها الكبرى . وفضلهم في نظر الحقيقة اخلصهم ولاء وخدمة للوطن .

ومصر ليست للمصريين كما يقول زعماءها الوطنون وانما هي للعثمانيين . قال في كلامه علي عبدالله نديم : « وانما احدث بيننا الخلاف أنه كان عدواً للعثمانيين . وهو من قدماء من يقولون : « مصر للمصريين » ونحن نقول : مصر للعثمانيين . » اهـ

الا انه كان يؤثر لها الاحتلال الانكليزي، كما ذكرنا، مع بقائها ولاية عثمانية . فقد كان يعلم ضعف حكومة الاستانة ، وقصر يدها عن ضبط ولاياتها القاصية . فلا يجد خيراً في خروج الانكليز من مصر بعد ان اصلحوا شؤونها ، ونهضوا بها ، وبسطوا الأمن في ارجائها . بل كان يشفق عليها من الرجوع الى سابق جهلها وخمولها اذا ترح عنها المحتلون .

وضعف حكومة الاستانة واسبابها في عهد الحرية، كان يؤلم صاحبنا فهو يريد لها القوة والسلطان، فلم يحجم عن نقدها، لانها لم تحسن اقامة احكام الدستور، ولم تستطع حفظ ولاياتها . فأخذت منها ادرنة، واخذت منها طرابلس الغرب . ولولا امل باسم في ظلال الحرية، يمدوه الى تنظر المستقبل السعيد، لئلا يأس من الحكومة الجديدة كما ناله يأس من حكومة عبد الحميد .

هذا هو ولي الدين في سياسته الحرة الجريئة ، على تشعب منازعها ، في صدق عقيدته، واخلاصه لما يرتئيه خطأ كان او صواباً، سواء من الناحية العثمانية او من الناحية المصرية . تلك السياسة التي لقي من اجلها الاضطهاد والحبس والنفي، والكره والاعراض، في حياته، وفي مماته .

الاجتماع

كان ولي الدين مغرى باصلاح البلاد العثمانية سياسياً واجتماعياً . فكما جاهد سياسة الظلم والارهاق، ونافع عن الحرية والدستور؛ فكذلك كان شأنه في منازلة التعصب الديني، والخرافات والعادات العالقة بالدين . يحمل على جماعة المتعصبين، الذين يستخدمون الدين لمنافعهم، ويسخرون الناس لمآربهم . فيتهكم بهم، ويقسو عليهم، ويبين الاضرار التي ينتجها تمصّبهم، وتسلطهم على النفوس الساذجة الجاهلة . ويصور خداعهم للناس، وتظاهرهم بما هم ليس فيه . ولك امثلة على ذلك في « ليلة القدر » و « اكدوبة رمضان » من كتابه الصحائف السود . قال في اكدوبة رمضان :

« في البلاد العثمانية كل المسلمين صائمون . كانت الحكومة المستبدة تسجن المفطر الى ان يأتي اليوم الثالث من عيد الفطر . وكان اكثر المفطرين يدعون الصوم، ويمسنون تقليد الصائمين حتى لقد بلغ امر الكذب ان يضرب المفطر في بيته من يدخن بجانبه سيكارتة . وقد خرجت بها ذات يوم في رمضان وراء امر عرض اريد قضاءه . فلما ركبت الترامواي رأيت جماعة من الاجانب على رؤوسهم القُبُعات وبافواهم سيكاراتهم . والناس ينظرون اليهم شزراً، ولا يقدر احد منهم ان يخاطب اولئك الاجانب بكلمة تسوءه . وكانت علبة سيكاراتي معي . فانسيت ان اليوم من ايام رمضان . فاخرجت سيكارة جعلتها في فمي، واقمت انتظر ان يدّ الى احد الجالسين شيئاً اشعلها به . فمشت في عيون الراكب، وجعل بعضهم يغمز بعضاً مشيراً اليّ بلحظه ففطنت لموضع خطائي . وقلت ادويه لكم ايها الكاذبون بالكذب . ثم وثبت من مكاني بقية كمن تذكر شيئاً نسيه وقلت : « لعن الله الشيطان، كدت والله ادخن سيكاراتي، وأنقض صومي » ونظرت الى رجل جالس على عيني وقلت مؤنباً له : « كذا يا اخي تراني أهم بما يفسد علي صومي، ولا تنبهني الى ما كاد يفرط مني عن غير عمد . وانت تعلم ان الدين يقضي علينا بالنصح لمن

سها، ولا يُعرض الا عن تولى . « فابتسم الثغور، وسرّي عن القوم . »

وقال في ليلة القدر :

« وكان رجل لا يُرزق ذرية فقال : اللهم املأ بيتي صغاراً ! » فانتبه في الغد على صياح ملاً بيته حتى ان ظنّ الحيطان تتصايح . فاذا هو بنحو الحسين صبيلاً لا يزيد طول واحداهم على الشبر ، يجاذبون امرأته، ويتواثبون حول سريره . هذا يقول : « ابي ! » وذاك يصيح : « امي ! » وكلما حاول مع امرأته الهرب حالوا بينهما وبين الباب . فرأت المرأة ان تأتيهم بشيء من اللبن في وعاء كبير لتقسّمه بينهم . فوثب بعضهم في الوعاء فغرق فيه، فعلا بكاء الآخرين . فلما ضاقت الحيل بالرجل وامراته، رميا بانفسهما من كوة تُطل على الطريق ، وارسلا ساقيهما للريح فراراً . لما كنت صغيراً كنت اجلس الى بعض الشيوخ فيقصون علي هذه النوادر، وانا اكاد اموت ضحكاً . ولقد قلت ذات يوم لرجل منهم : « تعالى الله عما تقولون . ايكون الحكيم العادل، يعلم ما تخفي الصدور ثم يفهم الدعاء كما يفهمه عبد الحميد ! » فضحك الرجل حتى سال لعابه . « اه

وكان من انصار المرأة، يريد تعليمها، ورفع حجابها، واعطاءها الحرية في اختيار زوجها . لا يرى في الحجاب فرضاً من فروض الدين، كما يقول اصحاب الرأي القديم، ويرى في عبودية المرأة وخمولها ما يقوض ركن المجتمع، ويهدم صرح السعادة الزوجية . وله في الصحائف السود فصل عنوانه « المرأة » جاء فيه :

« واما التي قتلها الحجاب فقد تزوجها رجل من اهل أدنه شديد الغيرة . دخلت بيته ليلة زُفت اليه، ولم تخرج منه ابداً، حتى اذا مرضت، وثقل عليها المرض، واشتد الألم دعا زوجها طبيباً، واخذ يصف له ما تشكوه . فقال انا لا ادوي على السماع، ولا بد من رؤية المريضة وفحص موضع العلة . فابى الزوج الاي ذلك . وما مضت ايام قلائل الا وقد أزررها في اكفانها، وشيعوها الى منزلها الابدي، من ضريح الى ضريح . » اه

وكان على نشأته النبيلة اقرب الناس الى الشعب، وابعده عن الارستقراطية في

انانيتها، واستثارتها، وتكبرها . يجارب اصحاب المناصب والالقاب، والمتكبرين وحديثي النعمة . ويذم الجرائد التي تزدنف الى ذوي السلطان بالنعوت الضخمة، والادعية الفارغة . ويدافع عن العمال والمضعوفين . ويتألم من الجهل المستحکم في العامة حتى جعلها مطية ذلولاً لاصحاب النعوت والمراتب ، يسوقونها في طريق منافعهم ويصورون لها الشر خيراً ، والنقمة نعمة، وطاعة الامر المستبد فرضاً ، والتعصب الاعمى شريعة . وهي لجهلها تنقاد اليهم ، وتصدق ما يزعمون . قال في المعلوم والمجهول :

« وجرائدنا التركية لم تدم كثيراً اذ لم يكن في مصر والبلاد الخارجية اناس كثيرون يقرأون اللغة التركية ، والذين يقرأونها او يفهمونها من الاتراك الذين استوطنوا مصر من الازمان السالفة، لا يهتمهم من السلطان الا كونه سلطاناً . وهم يعتقدون ان لاحق الأمة في مشاركة الملوك في اعمالهم . وان الرعية عبيد الملوك أمروا بالطاعة لهم ، وان ظلّموا، والشكر، وان أسأوا . يتحدثون بذلك في مجامعهم ، وبأيديهم السُّبح وامامهم النارجيلات (الشيشات) يمتصونها حتى تستطع حبابها . يوتقى لهم بالشاي منقوعاً . وبين يديهم جماعات من المشايخ منهم المدّعون لعلوم الكيمياء القديمة . ومنهم اولياء الله الناطقون بالغيب (بالسرياني) . ومنهم المتصوفون من اتباع الرفاعي والكيلاني ومحيي الدين العربي والبكطاشي والموآوي . ومنهم ائمة الشرع، ورواة الاحاديث والمفسرون . كل هؤلاء يُكفرون الاحرار، ويدعون لعبد الحميد، ويدعون انامل اكلت اطرافها حباتُ السُّبح يجرّون بها دراهم أعوانهم عدّاً، بطلاً وجشعاً ولوئماً . كانوا يؤثرون حب عبد الحميد على حب العادل الحميد .

فمن من هؤلاء القدماء الصلحاء الاتقياء يشك في صدق الخاج السيد الشيخ زيد مثلاً، وهو لابس عمامة كانها كيان^(١) . وفي يده عصا كأنها عمود الصبح^(٢) . وعليه جبة خضراء كأنها ملاءة الربيع . وفي رجليه خفان اصفران كأنهما سفينتان من

(١) كيان : زحل . (٢) عمود الصبح : ضوءه .

الثحاس الاصفر . وفي عنقه سُبحة هي اطول من ألفية ابن مالك . ثم يُصدق ما جاء به سليم سركليس، وهو رجل مسيحي ما قرأ على شيخ . او يؤمن بما يقول به غيره من احرار الترك والعرب، وهم متعلمون في اوربا او البلاد العثمانية على معلمين أتوا بهم من اوربا . والمسلمون من اخواننا المصريين كانوا ولا يزال اكثرهم متمسكين بتلك الآراء القديمة . . . كل هذه المصائب كانت عوائق دون نجاح المجاهدين من الاحرار . « اه

وهكذا فولي الدين لم يكن يفرغ من معالجة الاحوال السياسية، ومناوأة الظلام والمستبدين، الا لينصرف الى مكافحة الآفات الاجتماعية من جهل وتعصب وخرافات، وآراء فاسدة قديمة . لان الحرية السياسية لا يقوم لها قائم الا اذا تحررت عقول الامة من الجهل والتعصب والاستسلام والحول . ولذلك عزا تأخر نجاح الاحرار الى هذه الآفات .

وكما ربح سخط عبد الحميد واعوانه في حملاته السياسية، فكذلك ربح سخط الطبقة الارستقراطية في انتقاداته الاجتماعية . فتجهمه واعرض عنه النبلاء والشيوخ، وذوو المراتب والالقاب . وانسحب على اذياهم العامة في جهلهم وعبودية ارادتهم . فالى الاولين يقول : « يريدون ان اكتب ما يريدون، واريد ان اكتب ما اريد . » والى الآخرين : « انا اكتب وهم لا يفهمون . » واليهم جميعاً : « ان اعرض عن مقالي اهل زماني، فعداً يتهافت عليه ابناؤهم . »

التاريخ

لولي الدين صفة اخرى في آثاره غير صفة الكاتب السياسي، والمصلح الاجتماعي، هي صفة المؤرخ الامين الذي ينقل الحوادث بعد ان يعللها ويدقق فيها، ويفصل اسبابها، ومسبباتها . فكتابه « المعلوم والمجهول » تاريخ جليل من وجهتيه العامة والخاصة . فيه صورة جلية عن السياسة الحميدية واعمال الوشاة والجواسيس . ودهاء الرجال النافذين كابي الهدى وعزت العابد . ومذابح النصارى، واستبداد الولاة والحكام

بهم . وقيام الاحرار يطالبون بالاصلاح، ومطاردة السلطان لهم، والتجاؤهم الى مصر
محتمين بالانكليز . وعطف الخديوي عليهم بعد ان جفاه الخليفة وابي مصاهرته بايما
من ابي الهدى . ثم تغيره عليهم بعد ان توسطت عزت العابد في التصافي بين التاب
والمتبوع .

ويتخلل ذلك كلام على الصحافة المصرية ، ومنازعتها المختلفة، وحريتها في عهد
اللورد كرومر، واشتغال ولي الدين بها، ومقاومته للاحرار في بدء امره، ثم انسلاخه
في صفوفهم . وسفره الى الاستانة، وتوليته المناصب العالية، وما ناله من رجال السلطان
ووشاته وجواسيسه . وكيف ضرب الشرطي والمتصرف، وسجن ونفي .

ولا يغفل عن وصف الاماكن التي مر بها في طريقه الى منفاه، شأن المؤرخ
الدقيق، الى ان يصل الى سيواس فيحدثك عن تاريخها وجغرافيتها واثارها، وولاتها
واشرافها، ورجال الدين فيها، وحالة سكانها ومبلغ حضارتهم . ويجدتك عما لقي
فيها من الالم والعناء، وما اصاب من كرم اهلهما، ولطف الاجانب فيها . وغير ذلك
مما يتعلق به حيناً، ويخرج عنه آخر . ويربط جميع هذه الاجزاء ربطاً بديعاً محكم
التنسيق، ويعرضها عرضاً قوياً، بعيداً عن جفاف التاريخ، قريباً من روعة القصة .

ولا نخطئ الهدف اذا قلنا ان المعلوم والمجهول تاريخ في قالب قصة، وقصة في
شكل مقالات صحافية . ففيه من التاريخ، استقصاء الحوادث وتعليقها، والبحث في
مقدماتها ونتائجها، ودقة في تحديد السنين والشهور، واهتمام بذكر احوال الناس
واخلاقهم، وحضارة بلادهم، وعلومهم وآدابهم، وغير ذلك مما يعنى به المؤرخ
العصري . وفيه من القصة، طرافة الاخبار، وجمال العرض والتعبير، وبراعة الوصف
ودقة النظر، وقوة الاحساس، وصدق اللون المحلي . وفيه من النقد اللاذع، والتصوير
السخري، والتحزب السياسي، والاندفاع العاطفي، ما يخرج به عن صدد التاريخ
والقصة، ويدنيه من المشاغبات الصحافية .

وعلى الجملة فالمعلوم والمجهول مجموعة نفيسة، تضم سياسة عبد الحميد واعوانه،
في اواخر القرن التاسع عشر، وتنطوي على صفحة مجيدة من حياة ولي الدين .

الأسلوب الإنشائي

لم يكن ولي الدين من اصحاب الترسل الانيق، صياغة اللفظ، وصاغة الكلام. وإنما كان كاتباً حلو الأداء، لطيف التهكم، اليم النقد، بين الصراحة، عجيب الجرأة، صادق العقيدة، ناطق الحجّة، بارع التصوير، رائع التشبيه. وهو الى ذلك، قوي الشخصية، فريد الأسلوب، بريء من التقليد.

وطبيعي ان ينفرد بأسلوب طريف، ذاك الذي نبذ التقاليد في السياسة والاجتماع، وثار على كل رأي فاسد قديم، وتألمت نفسه من الناس، وتألمت لآلام الناس. فتبدو غرابته في تفكيره وتعبيره، وفي وصفه وتصويره. ويأتي انشاؤه مثلاً لتلك الشخصية الشاذة المستقلة، وصورة لنفسه المتألّمة، في إياها وحنانها.

يكتب ولي الدين فتتوالب جملة متقطعة لا تكاد تتصل، كأنها قطع من انفاسه، وتتدافع الفاظه هائجة كأنها امواج صدره. تطفو عليها ظلال النبل والشقاء والتهكم، فتصبغها بصبغة نفسه. ويسمو انشاؤه مرة ولاسيما في تهيداته، وانتقالاته، واوصافه. وينحدر اخرى، ولاسيما في احاديثه و اخباره، لا يستقر من الاضطراب كأن فيه شهباً من حياته. وهو على حالتي القوة والضعف يحتفظ بشخصيته وجدته وحلاوته. فما يتبين فيه الضعف قوله:

« وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر ديسمبر الكائن في سنة ١٩٠١ جا امرأتى المخاض. وما قاربت الشمس الا وضعت بنتاً سميتها فيكتوريا. » اه
ومثال القوة حين يهد بين يدي الموضوع:

« انما يُعرف الصديق الوفي عند اشتداد الكُرب، وتوالي الحوادث. اما ادعاء الود، والعيش في خَفْضِهِ، والحال في استقرار فذلك يتساوى فيه صادق وكاذب. وفي كرام الاعادي من يشفق على عدوه، اذا فُلتَ مرّته^(١)، ومال رُكنه. والله أيام الشدائد، تُعلم من حيث تستبكي، وتَهَب الموعظة من حيث تُوجع. » اه

(١) فُلتَ مرّته : اي ضعفت قوته .

ثم حين ينتقل من الخبر الى الانشاء :

« بين نوحات النائحات ، وبكاء الثاكلات ، سكوت يأتي به الاعياء ، وتقطع
الأنفاس . ذلك من الفواصل التي ينوب فيها القلب عن العين ، فتسكت الظواهر ،
وتبكي السرائر . » اه

ثم حين يصف :

« فخرجنا من توقاد على عادتنا مبكرين ، والطيير في وكناتها ، فجعلنا نتسّم
الهضاب ، لا يتخلل صعودنا انبساط ولا انحدار . حتى رفع لنا شامخ ذو هضبات ،
متصل الذرى بالسحاب ، تعالته زلال من الثلج كالقطن المندف . أشم ، صعب
المرتقى يقصر دونه الجهد ، وتنجل في ترقيه الغرائم . تتظالع فوقه الجياد والعربات
كأنها تسبح في سحاب جامد . » اه

واذا وصف ، صور واجاد التصوير والتلوين :

« في ليلة من ليالي الشتاء ، سكنت تحتها الاشياء ، وتحركت الضمائر ، سوداء
الجلباب ، بيضاء الصقيع ، طرقت باب المظلوم . » اه

واجمل ما في صورته تشابيهه الغريبة ، التي تدل على دقة نظر ، وتنبه للاشياء ،
وبراعة في تحوير الالفاظ المساعدة . يتخذها اما للسخر والتشويه ، واما للافصاح عما في
نفسه من تأثر و ألم ، فيشترك فيها الخيال والشعور :

« تباد لنا سلامين كمن يحشو التراب على رأسه . » اه

« وصاحبنا الكاتب داخل علينا يقود رجلاً كالجمل ، على رأسه عمامة^١

كالهودج . » اه

« وما راغني الاجنود من البق ، تدب الي من كل ناحية . بق غذي انواع
الدماء حتى اتسع وانبسط ، وعادت كل واحدة منه كطابع البريد ، تتبختر على
الورسادة تبختر الفقيه في الجنازة . » اه

« زارني قومسيير المركز فقال : « سلام ! » قلت : « سلام ! » فافتر ثغره عن

تبسامة^(١) كأنها تبسامة الجدث لميت جديد . » اه

(١) كذا في الاصل والمراد ابتسامه .

« وأتتها قصائد الصوفيّة مطوّلةً باردةً، مُظلمةٌ كليلالي الشتاء . »

وله الاشارات اللطيفة الموجزة :

« فتلطّف في التسليم، وجلس الى جانبي مرحباً ومسلماً . فلما فرغنا من مطارحة

الاكاذيب^(١) . » اه

« ثم مضى شهران، وفي اول الثالث زُفّت المجهولة الى المجهول . »

وانشاؤه على الاجمال موجز، عصبي النبرات، ولاسيا في المواقف العاطفية، وتمتاز

اوصافه بما فيها من الخيال الشعري الجميل .

منزلته

كان ولي الدين شهاباً من شهب الحرية في ليالي الاستبداد، تألق نوره على غفلة من الدهر، فانبسط، وما كاد حتى تحطفته الاحداث، فتجلد لها بجسم كالسيف في مضائه ونحوه . وما زال يدفعها، وتلقاه حتى اذابت آخر ذرة من شعاعه، فغار مشرقها في المغرب تاركة وراءها أثراً رائعاً كذلك الاثر الذي تغادره الشمس بعد الغروب .

كان صحافياً في زمن العبودية، زمن كثر فيه المداهنون والمتملقون، فلم يعرف المداهنة والتملق . بل صارح الظلم بالعداء، وجاهر بما لا يروق اصحابه ودافع عن عقيدته الحرة انبسل دفاع، فكان عنوان الجراءة والصدق، يقول كلمته لا يخشى فيها عقاباً، ولا يرجو بها ثواباً .

وكان مصلحاً في زمن التوت اخلاق مجتمعه، وطغت عليه الخرافات، فلم يحجم عن مكافحتها، غير مبالٍ ما يلقي دونها من ازورار وايداء .

وكان مجدداً في عهد غلب عليه التقليد، فثار على سنن المحافظين، يقول ويكتب

(١) الشخص الذي يسلم عليه لا يعرفه . وانما اراد هنا اظهار المجاملات الشرقية الفارغة

كما يريد لا كما يريدون . مستقلّ الرأي بين الشخصية لا يُصدر الا عن عقيدة
واخلاص .

وحسبه ان يكون للنهضة صحافيتها الجري،، وسياسيتها الصادق، ومصالحها الخري،
وكاتبها المجدد . ولئن اعرض عنه ابناء قومه في مصر حياً وميتاً، فإن في البلاد
العربية لقوماً يذكرون ولي الدين

القصص

مضى لنا كلام على نشأة القصة عند العرب، ومزلتها الادبية، وكيف انه لم تأتأنا عنهم قصص راقية الفن، وانما جاءنا حكايات، ومقامات، واحاديث^(١). ثم كان عصر الانحطاط، فأنحدرت القصة انحداراً مشؤوماً، وآلت لقتها الى العامية، او ما يشبه العامية. واصبحت عبارة عن تعداد حوادث خارقة يشترك فيها الانس والجن، ولا تصور في اكثر وجوهها الحياة الطبيعية التي يجيهاها الانسان.

على انه ما انتشرت الثقافة الغربية في القرن الفائت، واطلع الكتاب على القصص الاعجمية حتى اكبوا على نقلها. وكان اللبنانيون اسبق من غيرهم الى محاولة هذا الفن لتقدم ثقافتهم. فترجموا قصصاً عديدة عن الفرنسية والانكليزية، وسواهما من لغات الغرب. واشهر مترجميهم سليم البستاني، ونجيب طراد^(٢)، ونقولا رزق الله^(٣)، وطانيوس عبده^(٤)، ونقولا الحداد^(٥).

وانشأوا المجلات القصصية، كمجلة « الراوي » لطانيوس عبده^(٦). ومجلة « الروايات الجديدة » لنقولا رزق الله^(٧). ولم يقتصروا على النقل بل حاولوا الوضع. وكانت سوق القصص التاريخية، المتعددة الحوادث رائجة يومذاك في اوربة، فنسجوا على منوالها يستمدون موضوعاتهم من تاريخ الشرق. فألف سليم البستاني طائفة منها نشرها في « الجنان » مثل : « زنوبيا ». و« بدور ». وجاء بعده جرجي زيدان^(٨)

(١) ادباء العرب الجزء الثاني ص ٤٣١ . (٢) ولد في بيروت سنة ١٨٥٩ وتوفي جا سنة ١٩١١ . (٣) ولد في بيروت سنة ١٨٦٩ . ورحل الى القاهرة وانشأ فيها مجلة الروايات الجديدة . وتوفي جا سنة ١٩١٥ . (٤) شاعر كاتب عاش في مصر يشتغل بالصحافة وينشئ مجلة الراوي القصصية . ثم عاد بعد الحرب الى بيروت ، وظل يحترف الصحافة حتى توفي سنة ١٩٢٦ . (٥) كاتب اديب رحل الى مصر ولا يزال فيها . (٦) انشأها في بيروت سنة ١٩٠٩ . (٧) انشأها في القاهرة سنة ١٩١٠ . (٨) ولد جرجي زيدان في بيروت سنة ١٨٦١ . درس في الكلية الاميركية . وسافر الى مصر، واشتغل بالصحافة . واصر مجلة الهلال . ووضع تأليف همة في التاريخ ، والقصص ، واللغة والعلوم . توفي في مصر سنة ١٩١٤ .

فواصل الهلال بسلسلة طويلة بناها على تزيخ العرب والاسلام : « كعدراء قريش » و « غادة كربلاء » . و « فتاة غسان » . و « العباسة اخت الرشيد » . و « المملوك الشارد » . الا ان هذه القصص اجمالاً غلبت فيها الصبغة التاريخية على الاستنباط والفن . و حاولوا ايضاً وضع القصص العصرية التي تصور حياة المجتمع ، ونواحي اخلاقه ، وما يحدث عنها من فضائل و رذائل . فوضع سليم البستاني : « بنت العصر » و « اسماء » ، و « الهيام في جنان الشام » . وكذلك فعل نقولا الحداد ، في « آدم الجديد » و « حواء الجديدة » و « اسرار مصر » و « الصديق المجهول » . وهذا النوع غلبت عليه المواعظ ، والدروس الخلقية ، والاستنتاجات المنطقية ، والاراء الفلسفية .

ثم عرض المصريون لهذا الفن فكتبوا فيه . وشاع بعد الحرب الكونية شيوعاً عاماً فشمّل مصر ولبنان وسورية والعراق والمهاجرين . وانشئت له المجلات الخاصة ، تعنى بالترجمة والوضع . غير ان الكتاب آثروا في تأليفهم ، القصة القصيرة ، يحاولون بها غالباً تصوير حياتهم ، او حياة الاقليم الذي يعيشون فيه . وتظهر هذه العناية خصوصاً عند كتاب لبنان ومصر . اما القصص الطويلة فلم يُخرجوا منها الا نوراً يسيراً الا يكاد يذكر ، فلذلك ترجى نهضة الاقصوصة قبل نهضة القصة .

التمثيل

لم يترك العرب في الدولة العباسية علماء من العلوم اليونانية الا نقلوه واطلعوا عليه، واشتغلوا به . ما خلا الادب فانهم استغنوا بما لديهم، فلم تصل اليهم ملاحم اليونان ولا قصصهم التمثيلية . ولو قدر لها الوصول لما كان الحكم الاسلامي يومذاك، وهو فردي مصطبغ بالدين، يعمل لاجياء التمثيل شأن الكنيسة المسيحية في القرون المتوسطة . لان التمثيل عندهم تزوير لعظاء الرجال .

ويدل تاريخ هذا الفن على أنه ينتشر غالباً في الحكومات الديموقراطية، لما فيه من تصوير ونقد للاخلاق والاعمال . واذا ظهر في حكومة الفرد اقتصر على البلاط واراادة صاحب البلاط . وهيئات ظهوره، وانتشاره ان لم يكن له حافز من صاحب النهي والامر .

فلما تقدمت الثقافة الغربية في منتصف القرن الحادي، والتمعت النهضة في لبنان، تصدى اللبنانيون لهذا الفن، واتحفوا به الادب العربي . وكان اول من عني به منهم مارون النقاش^(١) فمثل رواية «البخيل» سنة ١٨٤٨ . فكانت فاتحة المسرح العربي، وحضرها قناصل الدول، وكتبت عنها بعض الصحف الاوربية .

وتما ح هذا الفن في صدور اللبنانيين فاقبلوا عليه ينهضونه، وحفلت به مدارسهم^(٢) . وحملوه الى مصر .

وكان اسماعيل قد بنى الاوبرة سنة ١٨٦٩، واستقدم اليها فرقة فرنسية تمثل

(١) ولد في صيدا سنة ١٨١٧، وتعلم في بيروت، فاحسن العربية والتركية والفرنسية والاطالية . وبرع في الموسيقى . وكان تاجراً يرحل الى اوربة . فشاهد التمثيل في ايطالية . فعاد الى بيروت وانشأ رواية البخيل، محتذاً فيها حذو موليير، والف فرقة تمثيلية، ومثلها في بيته . ثم انشأ داراً للتمثيل . وتابع تأليف الروايات . ومن قصصه المشهورة ابو الحسن المغفل . مات في طرسوس سنة ١٨٥٥ . (٢) كانت الكلية اليسوعية اسبق المدارس الى هذا الفن . بدأت بتمثيل الروايات العربية منذ سنة ١٨٨٢ . راجع الاداب العربية في القرن التاسع عشر للاب شيخو . ج ٢ . ص ٧٠ .

فيها . فلم تشهد مصر التمثيل العربي الا بعد ان هبطها سليم النقاش^(١) واديب اسحق ومعها فرقة لبنانية، فمثلت في الاسكندرية سنة ١٨٧٦ .

وكان في جملة الفرقة رجل يقال له يوسف الحياط، فاستقل بها، وشخص الى القاهرة، ومثل في الأوبرة رواية « المظلوم » . وكان اسماعيل حاضرًا، فظنها تعريضاً به . فتقدم باخراج الحياط وفرقة من مصر . ولكنها ما خرجت الا لتضطلع بالعبء . بعدها فرقة سورية من دمشق على رأسها ابو خليل احمد القباني^(٢) . فكان لها اثر حسن في احياء التمثيل العربي بوادي النيل . ثم توالى الفرق اللبنانية والسورية، على مصر، الى ان انشأ اسكندر فرح فرقة في نحو سنة ١٩٠٤، وضم اليها المغني الشيخ سلامة حجازي، فاقبل عليها الناس دون غيرها، لحسن غناء الشيخ، وجمال صوته . على ان الفن التمثيلي لم يتقدم الا في عهد عباس الثاني، بعد ان بعث احد اللبنانيين جورج ابيض الى فرنسا ليتعلم اصول التمثيل . فعاد الى القاهرة، وألف فرقة حسنة تعهدا بالثقيف، فكانت نهضة هذا الفن على يده . وخطا المسرح المصري خطوة محودة، وتقدم جميع المسارح العربية، ولا يزال .

وكانت المرأة المسلمة لا تشترك في التمثيل رعاية للتقليد . الا انها ما لبثت ان سايرت الزمن في تطوره، فاصبح من المسلمات، ولاسيما المصريات، ممثلات بارعات . وبينما المسرح المصري يخطو الى الامام بقدم ثابتة تدفعه الحكومة ، وتمشي به الفرق العديدة، وعلى رأسها رجال درسوا اصول الفن في اوربة، كفرقة محمد تيمور، وفرقة يوسف وهيبي؛ كان المسرح اللبناني، والمسرح السوري، يرجعان القهقري لتضاؤل الفرق التمثيلية فيها وتقاعد الحكومات عن مناصرتها . ولولا الفرق المصرية التي تقف الى لبنان وسورية لما شهدت ملاعبها تمثيلاً راقياً، مع ان لها فضل المتقدم في احياء هذا الفن .

(١) هو ابن اخي مارون النقاش، اخذ فن التمثيل عن عمه . (٢) القباني اول من احيا التمثيل في سورية، فقد انشأ في دمشق مسرحاً، ولف فرقة، وبدأ يمثل رواياته من سنة ١٢٨٢ هـ . (٣١٦٥ م) راجع خطط الشام لكردي علي ج ٢ . ص ١٤٣ .

والكتاب اللبنانيون هم الذين اغنوا المسرح العربي، بما ترجموا ووضعوا من الروايات في صدر النهضة كمارون النقاش، وسليم البستاني، وسليم النقاش، وأديب اسحق، ونجيب الحداد، ونجيب حبيقة وسواهم. وانه، وان لم تبلغ رواياتهم على الجملة، درجة الفن الراقى في الادب والتمثيل، لقد كانت غذاء صالحاً لحياة المسرح العربي، في اول نشأته .

ومما يؤسف له ان التأليف المسرحي لا يزال الى يومنا هذا ضعيف الفن، ضئيل الاثر، سواء فيه الموضوع والمنقول، والمقتبس؛ فما تقع على رواية راقية الا في الندرى . ولعل مصر، ومسرحها ارقى المسارح العربية، لا تتقاس عن اصلاح هذا الخلل بتنشيط الكتاب الى رفع الادب والفن في القصص التمثيلي .

علوم اللغة

كان المشتغلون باللغة معظمهم لبنانيون لمضاء عزيمتهم، وحاجة مدارسهم الى الكتب الحديثة التي توافق اذواق الطلاب وروح عصرهم . فقام فيهم من يشرح ويحشي بحث المطالب للسيد جرمانوس فرحات ، لحسن تبويبه، وسهولة الاخذ عنه، وملاءمته للبيئة الاجتماعية . فكان من شراحه المعلم بطرس البستاني، والشيخ عبدالله البستاني ، والخوري نعمة الله باخوس^(١)، والشيخ سعيد الشرتوني^(٢) . ووضع الشيخ ناصيف اليازجي كتبه المشهورة كارجوزته وشرحها في النحو : « نار القري في شرح جوف الفرا . » وارجوزته وشرحها في الصرف : « الجانة في شرح الخزانة . » و« مجمع البحرين » ستون مقامة في اللغة وقواعدها ونكاتها . و« عقد الجان في المعاني والبيان . » و« اللامعة في شرح الجامعة » . وارجوزة مشروحة في العروض . و« قطب الصناعة في اصول المنطق » . فاغنى المدارس، وافادها اجل فائدة . وجاء بعده رشيد الشرتوني^(٣) وسعيد الشرتوني، وجبر ضومط^(٤) وسواهم . فالفوا كتباً كثيرة في الصرف والنحو والبيان، متسلسلة وغير متسلسلة . وسبق اللبنانيون الى تأليف المعاجم الحديثة، والبحث في اصول اللغة وفلسفتها . فوضع المعلم بطرس البستاني معجمه « محيط المحيط » في مجلدين كبيرين، رتبته على اعتبار الحرف الاول من الثلاثي المجرد، وجمع فيه طائفة حسنة من المصطلحات العلمية والفنية، والالفاظ العامية المفسرة . وجعل له مختصراً في مجلد واحد سماه قطر المحيط . وحذا حذوه الشيخ سعيد الشرتوني في معجمه

(١) كان استاذاً في مدرسة الحكمة، توفي سنة ١٩٢٩ م، وكان قد اسن وشاخ .

(٢) كان استاذاً في الكلية اليسوعية ببيروت، توفي سنة ١٩١٢ عن ٦٣ سنة . (٣) رشيد

الشرتوني توفي سنة ١٩٥٦ . علم في الكلية اليسوعية، وكتب في البشير . من آثاره المبادئ

العربية في الصرف والنحو . سلسلة مطردة الصمود بحسب الصفوف . (٤) توفي جبر ضومط

سنة ١٩٣٥ . من آثاره فك التقليد في الصرف . والخواطر العراب في النحو والاعراب .

والخواطر الحسان في المعاني والبيان .

« اقرب الموارد » ثلاثة مجلدات كبيرة؛ ثالثها ذيل استدرك فيه ما فاته في الاولين .
 ولف الشيخ احمد فارس الشدياق^(١) كتابه « الجاسوس على القاموس » انتقد فيه القاموس
 المحيط للفيروز ابادي . والشيخ ابراهيم اليازجي « نجمة الزائد في المترادف والمتوارد » .
 والشيخ عبدالله البستاني معجمه « البستان » في مجلدين كبيرين، وجعل له مختصراً في
 مجلد واحد سماه « فاكهة البستان » . ووضعت معاجم مدرسية صغيرة « كالموجد »
 للاب لويس معلوف اليسوعي، و « المعتمد » لجرجي عطية .
 ووضع احمد فارس الشدياق كتاب : « سر الليال في القلب والابدال » بحث
 تحليلي في اللغة ذكر فيه الافعال والاسماء التي كثر تداولها . ورتبها بحسب التلغظ بها،
 ليوضح تناسبها وتجانسها . وصنف جر جي زيدان كتاب « الفلسفة اللغوية » في اصل
 اللغة ونشوتها .

اما سائر الاقطار العربية، فكانت تعتمد في الغالب على الكتب القديمة المطولة .
 وربما عني بعضهم بتحشيتها وشرحها كالشيخ محمد الدسوقي المصري^(٢) وله « حاشية
 الدسوقي على معني اللبيب^(٣) » في النحو . و « حاشية الدسوقي على التفتازاني » في المعاني
 والبيان . الا ان الكتب العصرية لم تلبث ان شملت معظم الامصار ولاسيما بعد
 الحرب العالمية . وتوفر على تصنيفها الادباء المسلمون، في مصر وسورية والعراق،
 اسوة بالادباء المسيحيين .

(١) احمد فارس الشدياق، عالم لغوي كبير، وكاتب متفنن مبتكر ولد في عشقوت
 من لبنان سنة ١٨٠٤ م. وكان مسيحياً مارونياً اسمه فارس تعلم في مدرسة عين ورقة. ثم
 اتصل بالمرسلين الاميركيين، وانتحل المذهب البروتستاني . ثم اتصل باحمد باشا باي تونس
 وانتحل الاسلام، وتسمى « باحمد » . وطوّف في انحاء اوربة ولاسيما فرنسا وانكلترا . ثم
 شخص الى الاستانة، وانشأ جريدته الجوائب . وله مؤلفات جليلة منها لغوية، ومنها
 رحلات وصف بها اسفاره واحوال البلدان؛ كالواسطة في احوال مالطة . وكشف المخبا عن
 احوال اوربا . والساق على الساق فيما هو الفاريق . والقاريق لفظة نحتها من فارس الشدياق .
 وهذا الكتاب فيه لغة واسفار، وذكر احوال المؤلف، وانتقاد للقيسين . وفيه مجون
 كثير . وكانت وفاة الشدياق في الاستانة سنة ١٨٨٧ م . ونقل رفاته الى لبنان، ودفن
 بالحازمية قرب بيروت . (٢) توفي سنة ١٢٣٠ هـ . (٣) معني اللبيب عن
 كتب الاعراب لابن هشام .

العلوم الشرعية

تبدلت العلوم الشرعية في النهضة تبديلاً محسوساً، ودخل عليها انظمة جديدة اقتضتها المدنية العصرية . وكان بدء هذا التطور منذ سنة ١٨٥٦ حين شرعت حكومة بني عثمان بانشاء المحاكم النظامية، فسنت لها القوانين الحديثة على مثال القوانين الاوربية . الا انها استثنت القانون المدني، فاستخرجت احكامه من الشرع، في كتاب « المجلة » مراعية فيه روح العصر .

وعمت هذه الانظمة جميع الولايات العثمانية الا مصر فان قضاءها استقل من عهد اسماعيل، ووضعت له القوانين الخاصة، مأخوذة في الغالب من القوانين الفرنسية . وكذلك لبنان تبدلت فيه النظم العثمانية بعد الحرب، ووضعت له قوانين جديدة استخرجت من ارقى الانظمة الاوربية .

وكان من اثر انشاء المحاكم النظامية ظهور فن المحاماة، وانشاء مدارس الحقوق، وانتشار المجالات القضائية . ونبع جماعة من رجال القانون نذكر منهم اشهر من اتصلت بنا آثارهم : كقصري باشا^(١)، وامين الشميل^(٢) وعمر لطفي^(٣)، وفتحي زغلول^(٤)

(١) مصري تغلب في مناصب الحكومة، توفي سنة ١٣٠٣ هـ . (١٨٨٥ م) . من آثاره ترجمة قانون الجنايات عن الفرنسية، وكتاب الاحكام الشرعية في الاحوال الشخصية . وقانون العدل والانصاف على مشكلات الاوقاف . (٢) لبناني جاء مصر واصدر فيها مجلة الحقوق سنة ١٨٨٦ . وهي اول مجلة قضائية . توفي سنة ١٨٩٧ . من آثاره الدررة الجليلة في المباحث القضائية . وترجمة نظام الحكومة الانكليزية . (٣) مصري شغل مناصب الحكومة، ووكالة مدرسة الحقوق . توفي سنة ١٩١٢ . ترك آثاراً في العربية والفرنسية فن آثاره العربية : الامتيازات الاجنبية . والوجيز في شرح القانون الجنائي . (٤) ولد بمصر سنة ١٨٦٣ م . وترقى في مناصب الحكومة الى وكالة نظارة العدلية . وتوفي سنة ١٩١٤ م . اشهر آثاره : شرح القانون المدني . وكتاب المحاماة .

في مصر . والشيخ يوسف الاسير^(١) ، وسليم باز^(٢) ومخايل عيد البستاني^(٣) في لبنان .
ومحمود حمزة الحسيني^(٤) في سورية .

(١) ولد في صيدا سنة ١٢٣٠ هـ . (١٨١٥ م) . ودرس في الازهر ، وعلم في مدرسة الحكمة ببيروت . وتقلب في مناصب الشرع والافتاء . من آثاره كتاب الفرائض .
(٢) لبناني من دير القمر ولد في بيروت سنة ١٨٥٩ . وتلقى علومه في مدرستي غزير وعين ورقة . تولى كثيراً من المناصب الرفيعة في العدلية كالادعاء العام في لبنان ، وعضوية مجلس الشورى في الاستانة . آثاره كثيرة اشهرها شرح المجلة ، وشرح قانون المحاكمات الحقوقية ، وشرح قانون المحاكمات الجزائية ، وترجمة قانون الجزاء عن التركية وشرحه . توفي في الحدث ، ودفن بدير القمر سنة ١٩٢٠ م . (٣) هو خال صاحب هذا الكتاب ولد في دير القمر من لبنان سنة ١٨٦٨ م . وتعلم في مدرسة الحكمة . ورغب في الفقه فانصرف الى دراسته حتى نبغ فيه . تولى المناصب العالية في القضاء اللبناني كمستشارية محكمة التمييز ، ورئاسة محكمة الجحج الاستئنافية ، والادعاء العام الاستئنافية ، ورئاسة استئناف محكمة الحفوق . اشهر آثاره مرجع الطلاب في الفقه ، وترجمة قانون رسم التمتة عن التركية . توفي ودفن بدير القمر سنة ١٩٣٤ . (٤) فقيه من علماء دمشق ، تولى في سورية النيابة الشرعية ، ومنصب الافتاء . آثاره كثيرة اشهرها الفتاوى المحمودية او الحمزاوية في مجلدين . توفي سنة ١٣٠٥ هـ . (١٨٨٧ م) .

العلوم الدخيلة

نشأت الحركة العلمية في مصر قبل غيرها من الاقطار العربية، واتسعت دائرتها في زمن قصير . ويعود الفضل في ذلك الى مساعي محمد علي، وايضاه البعثات الى اوربة، وانشائه المدارس العديدة، بينها مدرسة الالسن والترجمة . ثم ازدادت هذه الحركة اتساعاً في زمن اسماعيل، فلم تقتصر على الترجمة، بل شملت التأليف . فصار الذين تتقنوا في اوربة او مصر يكتبون احياناً بالاقتباس اذا حاولوا الكتابة في علم من العلوم . فظهر في العربية كتب كثيرة بين مترجم وموضوع، تبحث في شتى العلوم والفنون، كالطب والطبيعي والرياضيات، والتاريخ والجغرافية، والقوانين القضائية، والفنون العسكرية، والاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع .

واشتهر من الذين ترجموا وألّفوا في هذه العلوم جماعة منهم رفاة بك الطهطاوي^(١) واحمد حسن الرشيدى^(٢)، ومحمود باشا الفلكي^(٣) وسواهم .

ولبثت مصر منفردة في الاشتغال بالعلوم حتى نهض رجال البعثات الاميركية في لبنان، وانشأوا مدارسهم، وجعلوا العربية لغة العلوم فنقلوا اليها كتباً كثيرة في الطب والطبيعات والرياضيات . الا انهم عدلوا عنها بعد حين الى الانكليزية، فسكنت

(١) منسوب الى طهطا في مصر . ولد سنة ١٨٠١ م . وكان من رجال البعثة الاولى التي اوفدها محمد علي الى فرنسة، فتعلم الفرنسية، ومارس الترجمة حتى برع فيها . وله كتب كثيرة مترجمة ومؤلفة تبحث في شتى العلوم . توفي سنة ١٨٧٣ م . (٢) هو من رجال البعثة الاولى في عهد محمد علي، طبيب مؤلف ومترجم كتباً عديدة توفي سنة ١٨٦٥ م (١٨٢٨٢) . (٣) درس في اوربة العلوم الرياضية زمن اسماعيل، وترك فيها كثيراً من الآثار . توفي سنة ١٨٨٥ م (١٣٠٣ هـ) .

تلك الحركة المباركة . واعظم من خدم العربية منهم : مؤلفاته العديدة الدكتور فانديك^(١) ثم الدكتور بوسط^(٢) .

(١) الدكتور كرنيايوس فاندبيك ، هولاندي الاصل اميركي النشأة، ولد سنة ١٨١٨، وجاء بيروت سنة ١٨٤٠، فتعرف بالمعلم بطرس البستاني، فاصطحبها وسكنها معاً . وتعلم العربي واتقنه . ثم انشأ مدرسته في قرية عبييه . وائف الكتب العلمية بالعربية، لتدريس الجبر والهندسة والطبيعات والجغرافية . ولما انشئت الكلية في بيروت ، جعل استاذاً للكيمياء والفلك، فاخذ يوئلف فيهما ، ويعلم تلاميذه ، فترك اثاراً جلية تشهد بعلمه وفضله . توفي سنة ١٨٩٥ م . (٢) قدم لبنان سنة ١٨٦٣ ، واتقن العربية ، ثم عين استاذاً في الكلية الطبية . فائف كتباً كثيرة في الطب والتاريخ الطبيعي، وسواهما . توفي سنة ١٩٠٩ م .

الكتب الجامعة

لم يعرف صدر الانبعاث من الكتب الجامعة الا دائرة المعارف^(١) للبستاني، اول موسوعة^(٢) عربية، اضطلع بعثها الافراد، مع ان هذا العمل الجبار لا يقوم به الا الجماعات . والدائرة تشتمل على كل فن ومطلب من تاريخ واداب وعلوم . مرتبة على اوائل الحروف . اصدر منها المعلم بطرس البستاني ستة اجزاء، عاونه فيها ابنه سليم . وكان قد اعدّ بعض السابغ فادر كته الوفاة، فأتمه سليم واتبعه بالثامن . ثم توفي سليم، فواصل العمل اخواه ونسيهما سليمان، فاخرجوا التاسع والعاشر والحادى عشر . وهذا ينتهي بكلمة « عثمانية » ثم انقطع العمل .

وتعنى اليوم مصر بنشر دائرة المعارف الاسلامية، منقولة عن الانكليزية، مكتوبة ابجائها باقلام كبار المستشرقين . وربما علق بعض ادياء المسلمين على هذه الابحاث .

(١) دائرة المعارف : لفظه اختارها المعلم بطرس ترجمة لمعنى « انسيكلوپيديا » .

(٢) موسوعة : لفظه اختارها الشيخ ابراهيم اليازجي لدائرة المعارف .

التاريخ والرحلات

كان التاريخ في بدء النهضة ساذجاً خالياً من الفن شأن التواريخ العربية القديمة . وكانت لغته اقرب الى العامية منها الى الفصحى ، ولنا امثلة على ذلك تزيخ الجبّرتي^(١) . وتاريخ نابوليون وتاريخ الجزائر لتقولا الترك . وتاريخ الامير حيدر^(٢) . واخبار الاعيان في تاريخ لبنان لطنوس الشدياق^(٣) . وترجم كثير من التواريخ في عهد محمد علي ، نقلها رجال البعثات العلمية بعد رجوعهم من اوربة ، كالطهطاوي واصحابه . وكان من فوائد اتصال الشرق وسائر الدول العربية بالغرب ، واستقلال مصر ، ان تتابعت اسفار الكتاب الى البلاد الاوربية والمصرية وغيرها ، فاصطبغ التاريخ بالوان الرواية العيانية ، فكتبت عدة رحلات منها رحلات شهاب الدين الالوسي^(٤) و ابراهيم النجار^(٥) ، ومحمد بيرم التونسي^(٦) ، وفرنسيس المراه^(٧) ، واحمد فارس الشدياق .

(١) هو عبد الرحمن الجبّرتي المصري ، عاصر حملة نابوليون ، وشطراً كبيراً من ولاية محمد علي ، ودون في تاريخه اهم الحوادث التي مرت به . واسمه عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، اربعة مجلدات . توفي الجبّرتي سنة ١٢٤٠ هـ . (١٨٢٥ م) . (٢) الامير حيدر احمد الشهابي ، وتاريخه هذا يبتدىء بظهور الاسلام ، وينتهي بوفاة الامير بشير الكبير . وكانت وفاته سنة ١٨٢٨ م . (٣) ولد طنوس الشدياق في الحدث قرب بيروت ، ودرس في عين ورقة ، وعين قاضياً على نصارى لبنان . توفي سنة ١٨٣٥ . وتاريخه هذا يبحث في جغرافية لبنان وانساب اعيانه ، واخبار ولايته . (٤) هو محمود شهاب الدين الالوسي ولد في بغداد سنة ١٢١٧ هـ . (١٨٠٢ م) . وجا توفي سنة ١٢٧٠ هـ . (١٨٥٤ م) . رحل الى الاستانة وسواها ، وكتب اخبار اسفاره في عدة مصنفات . منها « رحلة الشمول ، في الذهاب الى اسلامبول » . (٥) ولد بدير القمر سنة ١٨٢٢ . ودرس الطب في قصر العيني . ثم رحل الى الاستانة ، وتعاطى بها الطب مدة ، ثم عين رئيس اطباء المساكر العثمانية في بيروت . ثم رحل الى اوربة ثم عاد الى بيروت وانشأ بها المطبعة الشرقية ، ونشر رحلته ، وتاريخ آل عثمان في كتاب سماه المصباح الساري . توفي سنة ١٨٦٤ م . (٦) ولد بتونس سنة ١٢٥٦ هـ . (١٨٤٠ م) . وتوفي بمصر سنة ١٣٠٧ هـ . (١٨٨٩ م) . تولى نظارتي المطابع والاقواف في تونس ، والقضاء في المحكمة الابتدائية بمصر . من اثاره صفوة الاخبار بمستودع الامصار ،

وتقدم فن التاريخ في اواخر القرن التاسع عشر، بتقدم الثقافة الغربية، وتأثير المستشرقين، فعرف طائفة من المؤرخين المحققين، كالمطران يوسف الدبس^(١)، وجميل المدور^(٢)، وجرجي زيدان^(٣). واطرد تقدمه في القرن العشرين، الأزمن الحرب الكونية فانه لم يصنف شي. يستحق الذكر غير تاريخ لبنان وضعه جماعة من ذوي الاختصاص، دعاهم الى وضعه المتصرف اسماعيل حقي بك، فجااء احسن ما كتب في هذا الباب .

ثم استأنف هذا الفن سيره بعد الحرب، فظهرت فيه مؤلفات حسنة كتاريخ الصحافة العربية للفيكونت فيليب دي طرازي . وخطط الشام لمحمد كرد علي، وملوك العرب لامين الريحاني، ويدخل هذا في باب الرحلات . وحياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل .

فيه تاريخ تونس، واخبار رحلاته الى اوربة . (٧) ولد بجلب سنة ١٨٣٦، ودرس الطب، ثم رحل الى باريس ليتم علومه، وعاد منها وقد ضعف بصره . من آثاره، رحلة الى باريس وصف بها سفره . وكان ينظم الشعر ويطلب به اغراضاً جديدة . توفي سنة ١٨٧٣ .

(١) هو رئيس اساقفة بيروت الماروني، ومؤسس مدرسة الحكمة . من آثاره تاريخ سورية في تسعة اجزاء، وتاريخ الموارنة . توفي سنة ١٩٠٧ . (٢) اديب لبناني نشأ في بيروت، واستوطن مصر وتوفي سنة ١٩٠٧ . اشهر آثاره حضارة الاسلام في دار السلام، تاريخ طريف الاسلوب في الادب العربي، كتبه بلسان رحالة فارسي قدم بغداد على عهد الرشيد فوصف احوال الدولة العباسية متناولاً السياسة والادب والاجتماع . (٣) اشهر آثاره التاريخية: تاريخ التمدن الاسلامي، خمسة اجزاء، وتاريخ مصر الحديث جزءان، وتاريخ مشاهير الشرق جزءان، وتاريخ العرب قبل الاسلام .

الادب والادباء

كان من اثر الثقافة العربية في المشاركة ان نشط الكتاب الى الدراسات الادبية في اواخر القرن الماضي، يحتذون على مثال نقاد الغرب، ويطبعون في تحقيقاتهم على غرار المستشرقين . فظهرت مقدمة الاياداة لسليمان البستاني سنة ١٩٠٤ م وفيها دروس تحليلية، ومقابلات، واستنتاجات، فكانت فاتحة النقد الحديث . وستكلم عليها في غير هذا المكان . وتلاها تاريخ الادب العربية في القرن التاسع عشر للاب لويس شيخو^(١) وتاريخ ادب اللغة العربية لجرجي زيدان^(٢) . ألا انهما قصرا الدرس والتحليل على الميزات العامة في كل عصر . ولم يعرضا لدرس آثار الشاعر او الكاتب؛ فجا. عملها من هذه الناحية ناقصاً .

واصاب الادب فتور في الحرب الكونية ، كما اصاب غيره من الفنون . ثم استأنف نشاطه بعدها، وانتحى نواحي جديدة . منها دراسة خاصة لكل كاتب او شاعر؛ كابن الرومي لعباس محمود العقاد، وحديث الاربعاء لطف حسين، والروائع لفؤاد افرام البستاني . ومنها دراسة شاملة لادب عصر بكامله . كالادب الجاهلي لطف حسين، والنثر العربي في القرن الرابع للهجرة لزكي مبارك . ومنها دراسة تامة لتاريخ الادب في عصوره، كتاريخنا هذا، فانه اول كتاب من نوعه، اسهب في نقد آثار الادباء . وفي تحليل ميزات العصور الادبية والتاريخية . فافضت هذه الدراسات

(١) الاب لويس شيخو اليسوعي، ولد بماردين سنة ١٨٥٩ . وتوفي ببيروت سنة ١٩٢٧ . كان قيم المكتبة الشرقية في جامعة القديس يوسف، ومدير مجلة المشرق . نشر والفت كتباً كثيرة، منها مدرسية، ومنها تاريخية، ومنها اديبة، ومنها دينية، ومنها جدلية . نشر كتابه الادب العربية في القرن التاسع عشر سنة ١٩١٠ م . واتبعه سنة ١٩٢٦ بآخر عنوانه الادب العربية في الربع الاول من القرن العشرين . (٢) ظهر الجزء الاول من تاريخ ادب اللغة العربية لزيدان سنة ١٩١١ م . واتبعه اربعة اجزاء نشر الرابع منها سنة ١٩١٤ . وهي السنة التي توفي بها .

الى نهوض النقد الادبي، وارتفاع شأنه . فتبدلت اوجه النظر الى الشعر والشعراء، والتصنيف والمصنفين . ومضى زمن كان يقال فيه لكل قصيدة عصماء، وكل كاتب فخرير . فهبط ادباء حالفتهم الشهرة الكاذبة ردىاً . ولم يثبت الا اصحاب الادب المتين .

بيد ان النقد لم يسلم من النقائص، فهو في الغالب اسير العاطفة ولاسيا مع الاحياء، تلتطفه المراعاة اذا اعترضته الصداقة، ويعنف به التعامل اذا قاده الجفاء . ولو اقتصر صناعته على الادباء دون غيرهم لكان الامر لان الاديب الصحيح مها ساورته العاطفة لا تفسد عليه ذوقه، ولا تجده عن أدبه . ولكن هناك طائفة من المتأدين، صادفوا من الصحف ظمأ الى المباحث الادبية لرواج سوقها واقبال المدارس في لبنان وسورية ومصر على تدريس الادب العربي . فانبروا، قبل ان ينضج ادبهم، وتستوسق لهم ملكة النقد، يروزون الكتاب والشعراء، ويحتكمون في اقوالهم، احتكاماً يخالطه السرف والعنت، بل اصبح كل كاتب، وحامل قلم يرى من تمام ثقافته، ان يجعل من نفسه ناقداً، يبدي رأيه في الادب، وان لم يكن صاحب نقد يعول على آرائه . فمنهم من يذهب به الغرور الى ان يتكلم على الادباء الاقدمين وهو لا يعرف عنهم الا ما التقطه التقاطاً من الافواه . او ان يدل على الشعر باحكامه، وهو غريب عنه لا ينظمه، ولا يروييه، ولا يحسن تلاوته وتذوق موسيقاه .

ومنهم من لا يفهم من النقد غير تطبيق القواعد المدرسية، كانها منزلة من السماء، فيجعل نفسه دونها، آلة متحركة لا ارادة لها . او ان يغير على اقوال الآخرين، فيتوسع فيها، وينتحلها غير متأثم .

ومنهم راغب في الشهرة لا يجدها الا في مهاجمة اديب مشهور في الاحياء، ليدكر اسمه بجانب اسمه . او شعوبي وقاح يتنقص الادب العربي، لا يجد فيه فضيلة تحمد، ويقدم الادب العربي، فيرى ادنى شاعر عجمي ارفع من شعراء العرب كلهم . وهو لو درس ادب العرب درساً صحيحاً، لبدل من ادائه . ولكنه جهله فعاداه . والانسان عدو لما يجهل .

ومنهم من لا يطيب له النقد الا اذا اصاب من ينتقده في عرضه، وذمه في اخلاقه، وهذا نقد متهافت مذموم لا يسلم صاحبه من ارتداد الشر اليه .
فهذه النقائص في النقد اشاعت الفوضى في الادب الحديث، وجعلته محمواً شديداً الغليان، حائراً لا يهتدي الى الطريق السوي، شأن كل ادب جديد لا تستقر له حال الا بعد ان تكتمل ثقافة اصحابه، وتتفر لهم التربية الادبية الصحيحة . وهو، لا بد، واصل الى هذه الغاية ، لاطراد تقدم الثقافة، ونشاط الحياة الادبية . فهذه الحركة المتسعة محمودة العواقب ، على ما فيها من فوضى وغليان ، لانها سائرة سيراً حثيثاً الى الامام، لا تصدها العوائق، وانما هي تتبع سنة النشوء والارتقاء .

سليمان البستاني

١٨٥٦ - ١٩٢٥ م و ١٢٧٣ - ١٣٤٤ هـ

حياته

هو سليمان بن خطّار بن سلّوم بن نادر البستاني، وامه مريم بنت الخوري جرجس البستاني . ولد في إِبْكَشْتين، قرية في الشوف من لبنان . فلما بلغ السابعة دخل المدرسة الوطنية في بيروت لصاحبها المعلم بطرس البستاني، ولزمها ثمانى سنوات حتى تطلع من العربية والانكليزية والفرنسية . وحذق الطبيعيات والرياضيات والتاريخ والجغرافية . وفاز بالشهادة النهائية . فاحترف التعليم، وكتب في الجَنَّة والجنان والجنينة، غير منقطع عن المطالعة، والتبحر في العلوم والآداب، والتزيد من اللغات . فطارت له شهرة، وهو في حدود العشرين، فدعي الى البصرة لانشاء مدرسة فيها . فشخص اليها، وتولى امر المدرسة سنة، ثم اتخذ بغداد له مقراً، وجعل عضواً في المحكمة التجارية، ومديراً لبواخر عُمان والبصرة .

واقام في العراق ثمانى سنوات، رحل في خلالها الى بادية العرب، وطوّف بالمواضع التي تغنى بها الشعر القديم، واطلع على احوال البدو وعاداتهم . ووصف رحلته هذه في كتاب لم يطبع بعد .

ثم آب الى بيروت، وسافر الى الاستانة، ثم الى مصر؛ ثم طرق الهند واطراف العجم، ثم قفل الى بغداد سنة ١٨٨٨ م فأصهر فيها الى انطون البغدادي، ثري من الكلدان، ومكث زهاء سنتين . ثم قصد الى الاستانة واقام بها سبع سنوات كان يتنقل في اثناها بين الشرق والغرب . فحيناً بسورية ولبنان، وحيناً باوربة واميركة . وعاد الى مصر سنة ١٨٩٦، وساهم في تصنيف الجزئين العاشر والحادي عشر من

دائرة المعارف . ثم نشر الياذة هوميروس سنة ١٩٠٤ .

ولما نودي بالدستور سنة ١٩٠٨ رجع الى وطنه، فاخترته بيروت مبعوثاً عنها في المجلس العثماني، وانتخبه المجلس رئيساً ثانياً له سنة ١٩١٠ . وانتدبته حكومة السلطان الى اوربة غير مرة في مهمات رسمية . فقابل الملوك والرؤساء، وعظما، الدول، وفض المشاكل السياسية الخطيرة . فجعله الخليفة محمد رشاد عضواً في مجلس الاعيان، ثم عهد اليه في وزارة التجارة والزراعة سنة ١٩١٣ . فلما استعرت الحرب العالمية، حاول ان يرد الحكومة عن خوض غمارها، اشفاقاً على مصير الدولة، فعاكسه الحزب العسكري، فاستقال من الوزارة، وسافر الى سويسرة سنة ١٩١٤، واقام بها خمس سنوات، يخدم مصالح دولته . ثم جاء مصر واتخذها مقاماً حتى سنة ١٩٢٤، فاجر الى نيويورك مستشفياً من ماء في عينيه، فاحتفى به المهاجرون، وعقدوا له حفلات التكريم . بيد ان الطب لم ينجع فيه، ففقد بصره، ثم سطت عليه يد المنون، فاخذت ذلك النور المتألق في غرة حزيبان سنة ١٩٢٥ . وحمل جثمانه الى الوطن في ٨ تموز . فكان له في نيويورك وداع فخم، مشى به المهاجرون والاميركيون في مقدمتهم رجال الحكومة . واستقبلته بيروت في ٦ آب فكان له مأتم وطني، لم تبق جمعية خيرية على اختلاف الاديان والنحل الا ساهمت فيه . ومشى به رجال الحكومة ومجلس النواب، ودار الانتداب . وعقدت حفلة التأين مساء اليوم نفسه، في مدرسة الاحد الاميركية . وفي الغداة نقل الجثمان الى ابكشتين مسقط رأسه ودفن بها .

صفات وافراد

عرف سليمان بشدة العزم، ومضاء المهمة، وحب الاسفار . وعرف بسعة الصدر، وحسن المعاشرة على هيبة ورزانة . وعرف باخلاصه الخدمة للدولة العثمانية، والولاة للامة العربية، والعصية للوطن اللبناني . فلطالما عهدت اليه حكومة السلطان في الامور الخطيرة، فلاقت النجاح على يده . ولو وافقته على اتباع خطة الاعتزال في الحرب الكبرى، لما انهار عرش بني عثمان . ولطالما ساعد العرب، ودافع عن حقوقهم في المجلسين والوزارة . ولم ينس لبنانيته في جميع اطوار حياته . فقد كان لبنان قبلته، ومصطافه، ومرجع حنينه . وحاولت الحكومة العثمانية حمله على ان يسعى لاقتناع اللبنانيين بتترك حماية الدول الاجنبية، والاكتفاء ببني عثمان، على ان يكون هو حاكم الجبل، فرد طلبها وابي ان يساوم على وطنه .

وعرف باباء النفس، والزهد في المال والالقاب . فان المشاكل المالية التي فضها لم تقوَ على اغرائه فيجمع منها ثروة كما جمع سواء . وكان منصبه في الوزارة يخوله حق التمتع بالالقاب الضخمة، ولكنه كان يرفضها كلما عرضت عليه .

وعرف بقوة الحفظ والاستظهار، حدث عن نفسه انه استظهر في صغره وهو في المدرسة نشيداً كاملاً، ونصف نشيد من ملحمة ملتن في الفردوس الغابر، وقسماً غير يسير من منظومة سيدة البحيرة لولتر سكوت . وحفظ الفية ابن مالك كلها، وازشد منها مائتي بيت تباعاً في حفلة امتحان^(١) . وقوة حافظته ساعدته على درس طائفة من اللغات .

علومه

حُق لسليمان ان يحمل لقب العالم كما حُق له ان يحمل لقب الاديب، فقد كان راسخ العلم بالتاريخ والجغرافية، والاقتصاد السياسي، بارعاً في الطبيعي والرياضيات. وكان متسع الآفاق في ادبه، لا يقصره على العربية وحدها بل يجمع اليه معها آداب الشعوب العجمية لطول باعه في معرفة اللغات .

وقلما وجد مثله عالم باللغات، يعرف منها ما يعرف، ويتقن منها ما يتقن. فقد كان يحسن العربية والسريانية، واليونانية، والفارسية، واللاتينية، والانكليزية، والفرنسية والايطالية، والتركية. وكان يلم بالعبرية، والالمانية، والروسية، والهندية. وكثيراً ما خطب في المجلس العثماني بعدة لغات ليفهم اقواله النواب على اختلاف عناصرهم وبلادهم.

آثاره

كادت حياة البستاني تتوزعها السياسة والاسفار؛ فقليلاً ما كان يستقر ويفرغ للتأليف. وصرف همه الى الاعمال العظيمة التي تتطلب العناء الشديد والوقت الطويل، كدائرة المعارف والالياذة، فحالت دون فيض انتاجه؛ فجاء نزرأً بالاضافة الى توقد خاطره، وتبحره في العلوم، وثقفه بمختلف الآداب. على انه ترك من الآثار الخالدة، ما ينطق بفضله وسعة مداركه. فله في الشعر نظم الالياذة^(١) وقصائد ومقطعات

(١) ابتداء البستاني بنظم الالياذة في او احر سنة ١٨٨٧، وكان يومئذ في القاهرة، فضع شيئاً منها، مستنداً الى الترجمات الفرنسية والانكليزية والاطالية. ثم آثر ان ينقلها عن اصلها اليوناني، فدرس اليونانية على راهب يسوعي حتى احكمها، فراجع ما كان ترجمه، ونقح ما فيه من الخلل. وكانت الالياذة تراغفه في اسفاره الكثيرة، فيشتغل بها على رؤوس الجبال، ومتون البواخر، وقطارات سكك الحديد، فجاءت وليدة اقطار العالم الاربعة. وكثيراً ما كانت الاسفار والمشاغل تضطره الى اهمالها فيطو بها برهة، ثم يعود اليها، حتى انتهى من نظمها سنة ١٨٩٥ وهو يصطاف في فنسار باعجه من ضواحي الاستانة. ثم اهمم بوضع الشرح لها، فكان عمله شاقاً راجع من اجله كثيراً من الكتب العربية والعجمية في الشعر والادب والتاريخ. ويتضمن هذا الشرح نحو الف بيت لماثي شاعر عربي بين جاهلي ومخضرم، واسلامي ومولّد، قالوا في مثل معاني الالياذة او حوادثها. ويشتمل على طائفة حسنة من اساطير العرب، وعاداتهم، واخلاقهم وادابهم في بداوتهم وحضارتهم. وكان انتهاؤه منه سنة ١٩٠٢. وطبعت الالياذة وشرحها في القاهرة في ربيع سنة ١٩٠٣، فحمل الكتاب الى لبنان فصاف وكتب معاجمه اللغوية والتاريخية. ولما عاد الى مصر اخذ في انشاء المقدمة. ونشرت الالياذة بمنظومها وشرحها ومقدمتها ومعاجمها وفهارسها سنة ١٩٠٤.

والالياذة تشتمل في الترجمة على نحو احد عشر الف بيت، وهي في الاصل اليوناني بين الستة عشر، والسبعة عشر الف بيت. لان البحور العربية ولاسيما الكثيرة الاجزاء تستوعب ابياتها من المعاني ما لا تستوعبه الايات اليونانية. ومعلوم ان الاضطلاع بنظم القصائد الطويلة امثال الالياذة لا يستقيم لصاحبه الا اذا تحرر من عبودية الوزن الواحد، والقافية الواحدة. وهكذا صنع البستاني فانه جعل الاناشيد على طرق شتى، فمنها ما قطعه قصائد مختلفة. ومنها ما نظمه قصيدة واحدة دون ان يراعي القافية الواحدة. ووسع لنفسه في اتخاذ الموشحات والاراجيز

مختلفة أشهرها الداء والشفاء وهما قصيدة وموشحة نشرتتاً معاً، قالهما في سويسرة، نظم الأولى في اثناء مرضه سنة ١٩١٨ فوصف آلامه وصفاً دقيقاً، وحن الى وطنه لبنان . ونظم الثانية في شفائه سنة ١٩١٩ فوصف طبيعة سويسرة، وناقشها بطبيعة لبنان، وفيها حنين شديد الى الوطن .

وله في النثر مما طبع، مقدمة الاياداة، وستكلم عليها . والجزآن العاشر والحادي عشر من دائرة المعارف، عاونه فيها نجيب ونسيب ولدا المعلم بطرس البستاني . وله اجاث جلية في الاجزاء الاخرى . وكتاب عبرة وذكرى يبحث في الاحوال السياسية قبل الدستور العثماني وبعده . وطريقة الاختزال العربي دون مقتطفاً منها في الجزء التاسع من دائرة المعارف بعنوان « ستينوغرافيا » ، ثم نشرها على حدة . ومقالات في الصحف العربية والفرنجية .

وله من غير المطبوع، تاريخ العرب . ورحلاته . وذكريات .

ميزته

لا نحاول ان نحلل في هذا البحث، ميزة البستاني من نواحي الشعر والعلوم والسياسة، بل نحن مقتصرون على ناحيته التاريخية الادبية في مقدمة الاياداة، وما كان له من أثر بليغ في صناعة النقد الحديث . ولهذا آثرنا ان نبني الكلام على ميزة المقدمة ومثلتها، لا على ميزة صاحبها ومثلته .

والمخمسات ، وفي استنباط ضروب جديدة كالثنى والمربع والمثمن ، وما اشبه . وحاول ما امكنه ان يراعي لكل ضرب مقاماً ، ولكل موضوع بحرّاً . وشعر الاياداة في الجملة رصين محكم النظم ، وربما ارتفع في مواطن الى اسمى درجات الجمال

اغراض المقدمة

تقع المقدمة في مائتي صفحة كبيرة مضمومة الى اشعار الاياداة، قسمها المؤلف خمسة اقسام او اربعة فصول وخاتمة . فالاول في اسم هوميروس ولقبه، ثم في نسبه ومولده وحياته وموته ومثله . والثاني في الاياداة وموضوعها ونظمها وتناقلها، وفي حفاظ الشعر عند الامم عموماً وعند العرب خصوصاً . ثم في جمعها وكتابتها، والقول في سلامتها من التحريف . ثم في المذهب الوُلُفي والرد عليه . ثم في سبب حياتها وخلودها . ثم في اغفال العرب نقلها الى لغتهم . والثالث في نقلها الى العربية، وحكاية ناقلها، والاوزان والضروب التي نظمت عليها . والرابع في الاياداة والشعر العربي، وهو اكبر الاقسام، تكلم فيه المؤلف على الشعر القديم واصله وسبب طموسه، وعكاظ وتأثيرها، والقرآن وفضله . ثم قابل لغة قريش بلغة الاياداة، وكيف عاشت الاولى وماتت الثانية . وبحث في اطوار الشعر العربي، او طبقات الشعراء في مختلف العصور، فحلل ميزة كل طبقة منهم منذ الجاهلية الى عهد المحدثين، واورد مختاراً من شعرهم . ثم المع الى مغامر الشعر العربي، ومناهج المولدين في ابواب الشعر وفنونه . وذكر علوم الادب التي تلازم الشعر كالعروض والبديع والبيان . وانتهى الى الكلام في شعر المحدثين او المتأخرين ؛ فبين جمودهم وتقليددهم، واسباب الضعف والانحطاط في شعرهم . ثم بحث في الملاحم وضروب الشعر عند الفرنجة، وقابل ملاحم الاعاجم بملاحم العرب من الشعر الجاهلي، وجمهرة اشعار العرب . ثم نظر في جاهلية العرب وجاهلية اليونان، ثم في ملاحم المولدين، ثم في الحقيقة والمجاز، وما يتصل بالمعاني الشعرية من التشبيه والكناية والاستعارة، والبدييات . وما يعدو عليها من النقل والسرقة وتوارد الخاطر . وما يطرأ من التغير، وما يستحسن منها وما يستهجن بفعل الحضارة .

والقسم الخامس او الخاتمة، في اللغة العربية، واللغة اليونانية، واتساع لغة العرب وثروتها، وكثرة مترادفاتهما، وتعدد المعاني للفظ الواحد، وفائدة ذلك وضرره .

واسباب ضعفها في تأدية المعاني المستحدثة، كالتعابير العلمية، والصناعية والسياسية .
ثم في ما هو الداء والدواء، والنهضة الحديثة، ومستقبل اللغة والشعر .
وهذه الاقسام تشتمل في شتى اغراضها على طرق النقد الحديث، وما يتخلله من
تحليل وتعليل وفلسفة واستنتاج . وتشهد بسعة مدارك البستاني، وتبسطه في آداب
العرب واليونان . ومجسبك ان تعود الى رده على المذهب الولني^(١)، ثم الى كلامه في
اغفال العرب نقل الياذة، ثم الى بحثه في جاهلية العرب وجاهلية اليونان، لتبين بعد
غوره، ودقة نظره، وحسن تعليله، وبراعة استنتاجه .

والمذهب الولني يريد ان يجعل الياذة قصائد متفرقة لطائفة من الشعراء . فعرض
البستاني لتفنيده محاولاً ان يثبت وحدة الناظم ووحدة المنظومة، فيدحض مزاعم
ولف واصحابه . فاعتمد على طريقة تحليلية بارعة، أوصلته الى الغاية التي يسمو اليها .
فتحرى اولاً نعوت اشخاص الياذة ووصافهم فاتضح له انها واحدة في جميع
الاناشيد، بحيث لا يمكن هذا الاتفاق الا للناظم واحد . ثم نظر في الاماكن الجغرافية
التي ورد ذكرها في الملحمة، فرأى ان الناظم لا يناقض نفسه بكلمة مما وصف به
هذه الاماكن . ثم تتبع اجزاء الياذة، ودقق في ارتباطها وتماسكها، فتبين له :
« ان ناظم النشيد الاول انما هو ناظم النشيد الاخير . فكأنما هي مرقاة يصعد بك
صاحبها درجة بعد اخرى حتى تستقر في آخرها، وانت متبين كل ما وراءك^(٢) » .
ثم بحث في فلسفتها وآدابها فاستنتج انها من روح شاعر واحد في اخلاقه وآداب
نفسه . فاثبت بذلك كله وحدتها ووحدة الشاعر .

وكذلك في كلامه على اغفال العرب نقل الياذة، فانه لم يقنع بتدوين الخبر
المجرد شأن المؤرخ الساذج بل عمد الى تعليله وبيان أسبابه . فاذا هي الدين، واغلاق
فهم اليونانية على العرب، وعجز النقلة عن نظم الشعر العربي .
ثم تلك النظرة الشاملة التي جمع بها جاهلية العرب وجاهلية اليونان ، فقابل فيها

(١) وُلّف عالم الماني (١٧٥٧-١٨٢٤) ذهب الى انكار هوميروس زاعماً انه شخص

وهي خلقته مخيلة الشعراء، وان الياذة وسائر شعره قصائد متفرقة لشعراء كثيرين ضاعت

اسماؤهم . (٢) مقدمة الياذة ص ٥٤ .

المواقف التي قيل فيها الشعر الجاهلي بالمواقف التي قال فيها هوميروس الياذته، وعارض احوال الشعب العربي باحوال الشعب اليوناني، وبين كيف يتشابهان في اللباس، وطرق المعاش، والسداجة الفطرية وغير ذلك .

ثم تكلم على الملاحم، وخلو الشعر العربي من قصيدة طويلة كالالياذة فقال ان العرب :

« لم يتخطوا في شعرهم الى ما وراء الطبيعة ، وكانوا مع عبادة الأصنام يميلون الى التوحيد ، وكان التسليم لاحكام العلوية من سُننهم قبل الاسلام ، فلم يُوغلوا في التخيلات الشعرية الى النظر في احوال الآلهة وما يترتب على ذلك من تفرع البحث الواحد الى اجاث متعددة على ما هو شأن الأمم الآرية واذا نظرت الى حالة اليونان بما كانت عليه، مع تلك الحشونة، من الانتظام والدربة، رأيت انهم كانوا ايام حرب طروادة اقرب شياً بالعرب في ايام الخلفاء الراشدين . ثم كانوا ايام هوميروس اي في زمن نظم الالياذة قد بلغوا من الحضارة مبلغاً لم يكن للعرب في جاهليتهم منه الا التزر اليسير . فلم يسع ابنا الجاهلية ان يتجاوزوا بنظمهم احوال فطرتهم ، وطرق معاشهم، فكانوا ينتقلون بالشعر من باب الى آخر انتقلهم من حي الى حي، يجيدون في كل ما يقولون ولكنهم لا يطيلون المقام فلا يُشيدون المنازل الفسيحة الأركان . » اهـ

اسلوبها الإنشائي

كتب البستاني مقدمته، بأسلوب علمي، يتلاءم مع النقد الأدبي، والفقه التاريخي . اسلوب، انشاؤه رصين عارٍ لا وشي فيه ولا صور خيالية . واذا عرض شيء من ذلك، فانه لا يبعد من ان يأتي متكلفاً، وانما هو يجري مع الطبع المسموح في سياق تركيب الجمل . او هو من ذلك النوع الملهم يهبط به الوحي المجرد فيجعل منه سجماً او جناساً او صورة دون ان يكون للكاتب يد متمردة امر تنزيله .

اسلوب يسير هادئاً مترقياً لا صوت له ولا قعقعة؛ ألا رقرقة خفية كجرس الماء في الجدول المستقيم المعبّد . اسلوب حافل بفلسفة النقد والتاريخ، وبالاداة العقلية والتعليقات المنطقية، ألا انه واضح كل الوضوح منسجم كل الانسجام، خالٍ من الغموض والالتباس، وتداخل الجمل التي تفصل ما قبلها من المعاني عما بعدها . فيه مرونة عجيبة تجعل الالفاظ لينة الجانب تقبل ادق الابحاث واعمقها، واعلقها بالعقل والمنطق، دون ان يبدو منها تصلب واشتزاز . وقلما انفقت هذه الخصاص لاصحاب العلوم لان الطلاوة والسهولة والوضوح لا تحالف الاساليب العقلية في الجملة . الا ان البستاني كان يجمع الى صفته العلمية صفة ادبية فجا . اسلوبه على ما فيه من بحث دقيق، وعمق مدلول، رائع الانشاء، مختار الالفاظ، رائق الديباجة كانها مرآة صافية تنم بجلاء، عما ينعكس عليها من صور ورسوم .

ولانشائه بلاغة في تأدية المراد دون تطويل ولا ايجاز، كأن الالفاظ فصلت على مقادير المعاني لا زيادة فيها ولا نقصان . وان وجد مترادفات او جمل متعاقبة على المعنى الواحد، فقليلة نزره تكاد لا تلمح . وليست من قبيل الحشو والتطويل وانما هي لزيادة التبليغ والتقرير . ودونك هذه القطعة على سبيل المثال، اقتطفناها من بحثه في جاهلية العرب وجاهلية اليونان قال :

« إن أقدم ما اتصل بنا من الشعر الجاهلي الجليّ مَثُولٌ مُعْظَمُهُ في مثل المواقف

التي قال فيها هوميروس إياذته فهناك شياطين وجنّيات تلقن الشعراء فصيح الكلام
تلقين القيان لهوميروس . وفي مثل ذلك يقول الأعشى :

دَعَوْتُ حَلِيلِي مَسْخَلًا ، وَدَعَوَا لَهُ جُهَنَامَ ، جَدْعًا لِلْمُهَجِّينِ الْمُدْمَمِ .

وَجُهَنَامُ تابعة عمرو بن قُطْن . ولكل من فحول شعراء الجاهلية جنّية او شيطان
يلقنه الشعر . وهناك ملوكٌ كبارٌ على قبائل صغار تتكاتف وتتحالف دفعاً لعار .
واخذاً لثأر . فتثور حرب البسوس بين بكر وتغلب وتتلحم عبس وفزارة على أثر
سباق داحس والغبراء . ويكادون يفنون بعضهم بعضاً كما كاد يفنى الطرواد واليونان
وحلفاؤهم . وهناك ايام تتصاول وتتجاول فيها قبائل منهم ، فيشتهر أمرها ويذيع
ذكرها كيوم الكلاب ويوم الجفار ويوم النصار . ويتغنى الشعراء بمجديتها تغني
هوميروس بيوم القناطرة ، ويوم الايتول والسكريت وما اشبه ذلك مما يفوق الحصر .
واذا نظرت الى الاشخاص ذهشت لما يبدو لك من الشبه في الاحوال والاقوال .
فن بطل كمنزلة ترتجف لصوته القبائل ارتجافها لصوت آخيل ، يُغاظ مثله فيعتزل
القتال فينكل العدو بقومه حتى يهب من عزله فيفعل فعل آخيل في عودته . ومن
خطيب كمنطور يقف واعظاً موقف قس بن ساعدة فيرشد ويرغب ويرهب . ومن
اخوة واخوات وازواج وزوجات وبنين وبنات وآباء وامهات يقولون ويفعلون في
جاهلية العرب نظير قولهم وفعلهم في جاهلية اليونان مما استراه بالمقابلة في تعاليق الشرح .
ولو اتسع لنا المقام لما عدنا سيلاً الى ابراز نظير لكل من رجال الياذة ونسائها .
واذا حولت نظرك الى اللباس والرياش وطرق المعاش رأيت ، مع سبق اليونان
في حلبة الحضارة ، مشاكلة باهرة في حالة المعيشة الفطرية والسذاجة الخلقية والحرية
الجاهلية : سراة كأكسيل يتسابقون الى قرى الاضياف كحاتم الطائي . وبينون
بيوتهم على مضرب السبل في قارعة الطريق . وامراء كأخيل وفطرقل يأمرن
وينهون ولديهم الخشم والجواري ؛ ومع هذا فهم بيدهم يتولون توزيع الزاد على
الاضياف ، وينحرون الذبيحة بمداهم على نحو ما نحر الامير الكندي ناقته للعدارى .
وابناء ملوك كوكلدجزيام لا تعيهم مع غناهم رعاية المواشي وتربية الأنعام كما قال

خالد بن الوليد لماهان الأرمني : « واما ما ذكرت من فقرنا ورعيننا الابل والشاة ،
فما منا من لم يرع ، واكثرنا رعاةٌ ومن رعى منا كان له الفضل على من لم يرع^(١) . »
وسبايا تشرى وتباع . وأسرى تقتل وتفتدى وتسرح باحسان ؛ الى غير ذلك مما لا
نهاية له . وسترى منه جانباً غير يسير مفصلاً بالمقابلة في مواضعه . « اهـ

منزلها

كان لظهور مقدمة الإلياذة أثر قوي في الأدب العربي، فانها نقلت اليه اصول النقد الحديث بما فيها من الدرس والتحليل، وتحري الاسباب، ومقابلة الآداب، والاستنتاج. وكان النقد لا يعدو حدود المعاني واثلافها مع الالفاظ، وواجه البيان والبديع، والمغالط اللغوية وتواطؤ الشعراء على الكلام، وسرقاتهم، وطبقاتهم. وهذا نقد ناقص لا يقنع به الأدب العصري والثقافة الجديدة. فجاءت المقدمة متممة لهذا النقص؛ فسدت ثلثة فوها. في الأدب، وادت الى الشعراء، والكتاب خدمة جلتى في ما تشتمل عليه من اساليب النقد الصحيح؛ كما في كلامها على هوميروس، وتوصلها بالتحري والمعارضة والتحليل، الى اثبات شخصيته وصحة اسمه، وان الإلياذة لشاعر واحد لا لجماعة من الشعراء. او في تحليلها اطوار الشعر العربي؛ فانه على مجازه كان نواة صالحة لما نشأ بعده من التحليلات والابحاث. او في مقابلتها الآداب العربية باداب اليونان، وبجسها في ضروب الشعر عند العرب والاعاجم، مما اعتمد عليه الادباء من بعد في كلامهم على الأدب اليوناني، واغفال العباسيين نقله، وخلو الشعر العربي من الملاحم الطويلة، وغنى اللغة العربية بترادفاتها، وفقرها في الاعراب عن المعاني الحضرية المستحدثة. وامتازت ابجائها بالزاهة والاخلاص المجرد للعلم، فكانت عنوان النقد العادل لا تيمله العاطفة، ولا يغنزه التعصب. فتلقتها المقامات الأدبية بالنظر العالي، واقبل عليها الكتاب ينهلون من فيض معينها ويتذوقون ما فيها من ادب طريف، على ما بهم من ظلم الى كل شي. جديد. ولم تقتصر مكانتها على الامصار العربية، بل جاوزتها الى اليونان، فعرف المجمع اللغوي في اثنتي عشر جزءا، فاشار بترجمتها، وضمها الى إلياذة هوميروس. وحسب منزلها في الأدب العربي فائحة النقد الحديث.

اصلاح غلط*

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٣	٣	قادس	وادي آس
٩٦	٢٢	بين والقوم	بين القوم
١٣٤	٢٣	ثقة	ثقات
١٥٠	٣١	وانتشر	ثم
١٧٠	٣	دونا	دون
٣٠٣	٩	الوطنون	الوطنيون
٣٠٦	١٤	يديهم	ايديهم